

الجود والبر

عن تاريخ الحبس في تصرف

رواية
محمد جبريل



لوحة الغلاف للفنان مصطفى الرزاز
عروس النيل - ١٩٩١ - زيت واكريلك على قماش - ١٦٨ × ١٦٨ سم

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل
كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصري معاصر من مختلف
المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن
موضوع الكتاب.
وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون
التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصري الحديث
على هذا التعاون.

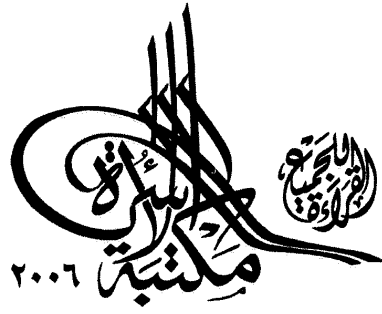
جيريل، محمد.
الجودرية/ عن تاريخ الجبرتي بتصرف: رواية/
محمد جيريل. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة
للكتاب، ٢٠٠٦.
٢٤٠ ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٢-٢٨٩-٤١٩-٩٧٧.
١- القصص العربية
أ. العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٦٩٥ / ٢٠٠٦

I.S.B.N 977-419-289-3

د يوى ٨١٣

الجوداء سيرة
عن تاريخ أجبدرتي بقصر



برعاية السيدة
سوزانا مبارك

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المشرف العام

د. ناصر الأنصاري

تصميم الغلاف

د. مدحت متولى

الإشراف الطباعي

محمود عبد المجيد

الإشراف الفنى

على أبو الخير

ماجدة عبد العليم

صبرى عبد الواحد

توطئة

انطلاقاً من شعار «مكتبة الأسرة، هذا العام: الثقافة لغة السلام، والذي طرحته السيدة الفاضلة سوزان مبارك، انتقلت مكتبة الأسرة حوالى ٢٠٠ عنوان، حاولت أن تقترب من الأجواء الفكرية والثقافية والإبداعية لمفهوم قيمة ثقافة السلام ودعم التسامح، وتعميق قيمة المواطنة والانتماء والمشاركة والمسؤولية المدنية، ودور مؤسسات المجتمع المدنى، وترسيخ قيمة دور المرأة وتعزيز قيمة التجدد الثقافى، والتفكير النقدي، والحوار، والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى. وأخيراً إبراز تواصل الإبداع المصرى عبر أجياله المختلفة وتياراته المتنوعة.

إن مكتبة الأسرة من خلال سلسلتها المتنوعة تحاول استيعاب المشهد الثقافى والفكرى والإبداعى فى مصر عاماً بعد عام. وفى هذا العام تطرح أعمالاً جديدة، وتقدم أسماء لم تنشر من قبل فى هذا المشروع الرائد، وتقتحم مجالات فكرية وثقافية وأصوات إبداعية جديدة.

وسوف تدور عناوين مكتبة الأسرة ٢٠٠٦ فى فلك سلاسل الأدب، والفكر، والعلوم الاجتماعية، والعلوم والتكنولوجيا، والفنون، والمثويات التى تحتفى هذا العام مع العالم كله بمرور ستمائة عام على رحيل المفكر العربى الكبير عبدالرحمن بن خلدون، الذى يعد واحداً من بُناة الحضارة العربية الإسلامية فى أوج عظمتها وازدهارها، ولأن هذه الحضارة كانت الأساس الذى قامت عليه

الحضارة الأوروبية الحديثة، فابن خلدون يعتبر نموذجًا واضحًا لأهمية حوار الحضارات وطريقة تواصلها.

سيظل هدف مكتبة الأسرة فتح نوافذ جديدة للقارئ المصرى للاطلاع على منابع الثقافة العربية والعالمية وتكوين ثقافته ومعرفته بأيسر السبل، والوقوف أمام ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والثقافى والعلمى والفكرى المستتير، حتى يستطيع القارئ مواجهة العنف والأصولية، والفخر بإسهامات أسلافه العرب فى تشكيل مسيرة الحضارة الإنسانية.

مكتبة الأسرة

تقديم

منذ وقت مبكر جداً . تعلم محمد جبريل درساً أساسياً فى مدرسة نجيب محفوظ، أن يكون خادماً مخلصاً لسيد واحد فقط هو الفن.

عمل بالصحافة ، قضى فى سلطنة عمان قرابة عشر سنوات، حاضراً فى بعض الجامعات عن أساليب وتقنيات العمل الإعلامى، لكنه فى كل مراحل حياته المختلفة، كان يكتب.

أصدر ثلاثين رواية، وثمانى مجموعات قصصية، وسبع دراسات ، بالإضافة إلى سيرته الذاتية التى جاءت تحت عنوان «حكايات عن جزيرة فاروس»

أما الملفت للنظر، فهو هذا الكم الكبير من الكتب التى تناولت إبداعاته نقدياً، فهناك ثلاثة عشر كتاباً نقدياً، حمل اسم «محمد جبريل»

هذا الزخم الإبداعى الكبير، دال على موهبة استثنائية فى حقل السرد الحداثى، وعلى أطروحة فنية، وعالم روائى يكاد يكون متكاملأ.

تنهض التجربة الروائية لمحمد جبريل، على ركيزتين أساسيتين: المكان كبطل فاعل، والتراث كمنطلق للحكى.

وكما خلق ماركيز أسطوره المكانية من «ماكوندو» وكما دارت كثير من أعمال داريل عن الإسكندرية، وكما تمحورت روايات محفوظ حول مصر القديمة جاءت أعمال محمد جبريل عن «حى بحرى» تلك القطعة الحنينية الشاعرية من الإسكندرية.

أما عن التراث، فقد استدعى جبريل أبا الطيب المتنبى، وأبا العباس، والبوصيرى، وعلى تمارز والحاكم بأمر الله والإسكندر وغيرهم لا ليروى سيرتهم كمؤرخ أمين، وإنما ليقدم تفاصيل جديدة فأت المؤرخين أن يقدموها، وكأنه يستدرك عليهم نسيانهم، كما ينبغي لروائي بارع.

ولد محمد جبريل بالإسكندرية عام ١٩٣٨، وحصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٧٥ عن كتابة النقدى «مصر فى قصص كتابها المعاصرين»، وفى عام ١٩٧٦ حصل على وسام الاستحقاق.

أما «الجودرية» روايته الأحدث، والتي يسر مكتبة الأسرة أن تقدمها للقارئ هذا العام، فهى تقدم رؤية فاعلة لمرحلة مهمة من مراحل تاريخ مصر الحديث، حيث يتخذ المؤلف من شخصية «الجيرتى» قناعاً يدخل منه إلى علاقاته السردية.

صدرت الطبعة الأولى لهذه الرواية عن المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٥.

مكتبة الأسرة ٢٠٠٦

إلى عاشق القاهرة

صديقي الدكتور / أيمن فؤاد سيد

« إنها القاهرة .. كم قهرت جابرة »
الجبرتي

الباب الأول

فصل

قدمت الأنباء على يد الساعة من ثغر الإسكندرية ، بأن الفرنجة نزلوا الشواطئ الشمالية للبلاد يوم الاثنين الثامن عشر من المحرم سنة ١٢١٣ من الهجرة النبوية الشريفة ، الموافق الثالث عشر من يوليو ١٧٩٨ من الميلاد . نزل إلى البر من قارب صغير عشرة رجال . طلبوا مقابلة كبار المدينة . قالوا إنهم إنجليز جاؤا للتفتيش على الفرنسيين ، لأن الفرنسيين خرجوا بعمارة كبيرة ، وربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ..

رفض السيد محمد كريم - رئيس القوم - هذا القول . حدس أنها مكيدة ، وضغط على الكلمات :

- نحن أحق بالدفاع عن أنفسنا ..

قالت رسل الإنجليز :

- نحن نقف بمراكبنا في البحر ، محافظين على الثغر ، لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه ..

قال السيد محمد كريم :

- هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل ، فاذهبوا عنا .. وردت المكاتبات - في اليوم الثالث - أن مراكب الإنجليز عادت من حيث أتت ، فاطمأن الناس ، وسكن القيل والقال .

حين لاحت سفن الأسطول الفرنسي في الأفق ، اضطرب أهل الإسكندرية ، وتوقعوا الشر . هياؤا السلاح ، رمموا الحصون القديمة ، تكونت أعداد من المتطوعين

وقبائل البيو . توالى المكاتبات إلى القاهرة ، من الشجر ، ومن رشيد ودمنهو ، بأن
مراكب وعمارات كثيرة للفرنسيين ، وصلت إلى الإسكندرية . وصف السيد محمد كريم
محافظ الإسكندرية سفن الفرنسيين بأنها مثل الجبال ، بأعداد غطت مياه البحر .
قال إن على الممالك أن يدفعوا المقابل لعيشة الترف والأبهة التى استلبوا بها
حياة آلاف المصريين وأمنهم . ضاق بمكاتبات أمراء الممالك ردأ على مكاتباته .
طالبهم بالتنبه إلى الخطر ، والدفاع عن البلاد ضد هجمات المغيرين . لم يكن فى
الإسكندرية أكثر من ستة آلاف نسمة ، بغد أن قتل الطاعون ألفاً أخرى فى أواخر
القرن الثامن عشر .

أظهر الأمراء غرورهم واستكبارهم . زعموا أنهم القوة القاهرة ، والغلبة التى
طبقت شهرتها الأفاق فى جهات العالم الست ، وأن سائر دول أوروبا - وليست فرنسا
وحدها - إذا حاولت منازلتهم ، ولم يأتهم المدد من الباب العالى ، فليس فى ذلك ما
يستوجب الخوف ولا القلق . رء وسهم تحصدها السيوف ، وأجسادهم تدوسها سنايك
الخيـل .

بدأ الجيش الفرنسى رحلته من طولون - وهو ميناء فرنسى - قاصداً الإسكندرية
استولى على جزيرة مالطة فى الثانى عشر من يونيو ١٧٩٨ ، ثم ظهر أمام سواحل
الإسكندرية فى أول يوليو من العام نفسه . غزو مالطة أتاح لنابليون مدداً ، ربما لم
يكن يصل إلى مصر لو لم يحصل عليه ، مدافع وبنادق وبراميل بارود وسفن حربية ،
بالإضافة إلى كنوز ذهبية خلفها الرهبان وزخارف ذهبية من الكنائس ، حولت إلى
سبائك ، حول نصف قيمتها إلى باريس لتجاوز بها حكومة الإدارة أزمته المالية ،
وأبقى النصف الآخر لتدير منه الإدارة المحلية أمور الجزيرة .

لو أن مراد بك أنصت إلى نصيحة المـسيو روزيتى قنصل النمسا ! . أدرك الرجل
أن احتلال مالطة هو أولى الخطوات نحو الإسكندرية . قال :

- مصر هى المقصودة بحملة الفرنسيين ..

رفع مراد بك كتفيه ، وأظهر السخيرية :

- لا شيء يدعونا للخوف من الفرنسيين ، خاصة إذا كانوا كهؤلاء التجار الموجودين عندنا . عندما يصل منهم مائة ألف ، يكفى أن أرسل للقائهم التلاميذ المماليك الشبان ، يقطعون رؤوسهم بحد ركاب سروج جيادهم !

ثم وهو يتأمل - فى المرأة المقابلة - القامة الفارعة ، الممتلئة ، والوجه الشركسى الشاحب ، المستدير ، والعينين الممتلئتين القاسيتين ، يعلوهما حاجبان كثيفان ، والندبة الطويلة على خده الأيمن ، والعمامة المزركشة ، والعباءة الحريرية الفضفاضة ، والسيف المتدلى من الجنب ، يضوى بالبريق :

- إذا فرضنا وصولهم إلى أرضنا .. فإن ممالك الخزنة وحدهم يكفوننا المؤونة ويقطعون دابرهم ..

يثق فى قدرة جنوده على تحطيم جيش الفرنسيين بسنابك الخيل ، وحصد رؤوس جنوده ببوارق السيوف ..

قال روزيتى :

- سيدى ..

قاطعه مراد بك بإشارة من يده :

- إنهم فستق خلق للاكل لا للحرب !

هل يفيد قنطارا البارود اللذان أمر مراد بك بإرسالهما - تحت إلحاح روزيتى - إلى الإسكندرية ؟

كان مراد بك أقرب - فى طبيعه - إلى الخوف وإيثار السلامة ، وإن غلف ذلك بكلمات تبين عن الشجاعة والاندفاع . لم يأخذ شيخ البلد ولا الأمراء كلماته مأخذ الجد حين أقسم أن يقيم من جماجم الفرنسيين منارات فى ميادين القاهرة . كان أسلوبه العسكرى يعتمد على الكر والفر ، فهو يهاجم إذا لاحت ثغرة ، وينسحب إذا تأزمت

الأمور . وكان أهم ما يعتز به ، امتلاك أعداد من أجمل المسدسات الدمشقية
والفدارات والمسدسات والأحجار الكريمة والتحف والملابس الموشاة .

فصل

الأنباء الأولى مفرحة ..

هاجم انكشارية الممالك طليعة جيش الفرنسيين . قتلوا قائدها ، وقطعوا رأسه .
طافوا بها شوارع الإسكندرية . لم يفتنوا إلى أن من هاجمهم هم الطليعة ، وأن
المدينة بلا حصون ولا جيش للمدافعة ..

فى يوم الإثنين الثامن عشر من محرم . نزلت جماعة من رجال الفرنسيين ناحية
العجمى ، يرافقهم الجنود والأسلحة . دعوا العديد من رجالات المدينة إلى السفن
الواقفة بالقرب من الساحل . بادروا بإلقاء القبض عليهم فور صعودهم ، وانطلقوا -
ومعهم آلات الحرب - ناحية ميناء العجمى . أسقط الأهالى مشاعر الفرحة . بعث السيد
محمد كريم إلى مراد بك يستعجل النجدة ..

قال مراد بك للوالى العثمانى بكر باشا :

- إن هؤلاء الفرنسيين ما دخلوا البلاد إلا بإذن الدولة العثمانية ، ولا بد أن الوزير
عنده علم بتلك النية ..

قال بكر باشا :

- يجب ألا تتكلم بهذه اللغة ، فلا يمكن لدولة بنى عثمان أن تسمح بدخول
الفرنسيين بلداً إسلامياً .

وأشاح بيده :

- دع عنك هذا الكلام ، واستعدوا للقتال !

* * *

قال مراد بك للمسيو روزيتى :

- اكتب للفرنسيين إنذاراً ليخرجوا من الإسكندرية ..

قال روزيتى :

- إنهم لم يأتوا إلى مصر لكى يرحلوا عند أول إنذار .

قال مراد بك فى صوت متلكئ :

- عليك أن تطالبهم بالرحيل ..

افتتت شفتا روزيتى عن بسمه باهتة :

- هم لم يحضروا بإذنى فيخرجوا منها بإذنى ..

حدجه بنظرة مرتبكة :

- ما الذى يريده هؤلاء الموتى من الجوع ؟

ثم وهو يغالب شعوره بالقلق :

- إن كان ولا بد فأرسل إليهم مع المكتوب خمسين ألف فرنك ليرتحلوا ..

سكت روزيتى ، ثم قال :

- أخشى أن عليكم الاستعداد للدفاع !

* * *

نجدة مراد بك مستعصية . ثلاثة عشر رسولاً ، وصلوا القاهرة فى ليلة واحدة .
الفرنسيين على الأبواب ، ولا حل ، إلا أن يدافع أهل الإسكندرية عن مدينتهم . حصنوا
أبواب المدينة ، وزوبوا القلاع بالمدافع والذخيرة ، ووزعوا البنادق على الأهالى .
طالعت الإسكندرية حملة نابليون فى نهاية الأفق : البيوت القليلة ، المتناثرة ،
والتلال الرملية ، وعمود السوارى ، وقلعة قايتباى ، وقلاع المراكب المتباعدة .

صعد القائد العام إلى قاعدة الجرانيت الأحمر التي ينتصب فوقها عمود السوارى
أطل على الأمكنة المحيطة ، والممتدة في الأفاق ، المسلات البطلمية ، والمآذن ، والأسوار
القديمة ، وبقايا القلاع . في داخلها ، وأعلى السور الهائل ذى الفجوات الواسعة ،
رجال ونساء ، تسلحوا بالبنادق والرماح . امتزج التصور - فى داخله - بمشاعر التوقع
والتحدى . هو فى المدينة نفسها التى بناها الإسكندر ، رافقته سيرة المقدونى منذ بدأ
الإعداد للحملة . صحب الإسكندر فلاسفة وعلماء وفنيين فى حملته على مصر وفارس
والهند . حرص هو على الفعل نفسه . الإسكندر قدوته ومثله الذى يحتذى خطاه فى
حملته المشرقية . حمل الجيش معه مكتبة هائلة تضم ٥٥٠ مصدرًا ومرجعًا ، ومواد
للطباعة باللغات الثلاث : العربية والفرنسية واليونانية ، ومعملًا كيميائيًا ، ومكتبة فيزياء ،
ومكتبة تاريخ طبيعى ، ومرصدًا ، وتجهيزات كاملة لصناعة المناطيد وقيادتها . ضم
نابليون إلى حملته رسامين وكتاب ومساحين وفلكيين وعلماء حيوان ونبات ومهندسين
معماريين ومهندسين مدنيين وأطباء وصيادلة ورسامين وطباعين ومؤلفى موسيقا
ومترجمين وعلماء آثار ومستشرقين . يهيم أن يستند إلى العلماء والفنانين والمؤرخين
إلى جانب اعتماده على العساكر . المدينة التى يبشر بها لا تلجأ إلى البندقية وحدها ،
لكنها تلجأ أيضًا إلى العلوم والفنون والآداب . هؤلاء هم صناع إمبراطورية الحلم .
أضاف إلى من رافقوه إداريين يعدون الترتيبات . قال : لقد نقلت باريس إلى مصر .
أهمل الإشارة - فى خطبه ومذكراته وبياناته - إلى الإمبراطورية التى يحلم بها ، إلى
المساحة الجغرافية فى المنطقة المحملة بالخير ، وإمكانية السيطرة ، ووعد المكانة .

قدم بالتصور أن مصر ليست ملكًا للعثمانيين ، وليست ملكًا لأحد . إذا لم تحتلها
فرنسا ، فإن إنجلترا لن تفلت الفرصة . عليه أن يضع الخطط لطرد الإنجليز من جميع
الممتلكات الشرقية التى يستولى عليها ، يحتل خليج السويس ، يضمن الملكية المطلقة
على امتداد البحر الأحمر ، يحافظ - فى أثناء ذلك - على علاقة جيدة مع السلطان
العثمانى . فى باله رسالة ليبينتز إلى لويس الرابع عشر ، عن تحقيق ما سعى إليه
الإسكندر قديمًا : السيطرة على إمبراطورية البر والبحر من خلال السيطرة على مصر .

معزولة فى الصحارى الواسعة ، بحر من الرمال لم تطأه قدم منذ حملة الإسكندر . من المستحيل أن تصلها نجدات برية ، وإن كان اتصالها متاحاً بمناطق الشرق . عشرة أيام تفصل بين القاهرة والقسطنطينية ، لا تقتصر السيادة الفرنسية على البحر المتوسط ، وإنما تمتد إلى بحر الأدرياتيك . تتحول مصر إلى مستعمرة حقيقية لفرنسا فى هذه المنطقة .

درس كل ما يتصل بمصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين : الديانة التى تعتنقها ، الشرق الذى تنتمى إليه ، جغرافية المنطقة ، العادات ، التقاليد . قرأ كتاب دى مارينى " تاريخ العرب " بأجزائه الأربعة ، وكتاب فولنى " الرحلة فى مصر وسورية " وكتاب سافارى " رسائل عن مصر " . اكتفى بالحديث عن الحضارة الغائبة عن المنطقة منذ عصور الفراعنة ، وصل ما كان بما أصبحت عليه المدنية الأوروبية : ربط تجارة الهند بأسواق فرنسا ، وإلحاق خسائر مؤكدة بالتجارة البريطانية المنافسة ، تسويق المنتجات الفرنسية فى إفريقية وجزيرة العرب . وضع حواجز فى مضيق السويس تفصل بين مصر وسورية فىأمن المخاطر القادمة من الشرق ، فتح المجال لتبادل حر بين البحر المتوسط والبحر الأحمر وبين فرنسا والهند ، تحول مصر إلى مستودع للبضائع الواردة من أوروبا وآسيا ، زرع الريف على الطريقة الفرنسية بتنظيف قنوات الرى وبحيرة موسى ، استنبات الأشجار المعمرة ليفيد ظلها فى تلطيف حرارة الجو ، إعادة دور مصر مخزناً للغلال كما كانت فى أيام الرومان ، كشف المستور من التاريخ المصرى القديم .

أحاطت فرق الفرنسيين بالمدينة من ثلاث جهات . من الغرب ، ومن باب رشيد ، ومن باب سدره . تولى جماعة من الفرسان مقاتلة طلائع الفرنسيين قبل اقترابها . حاولوا ، ومن انضم إليهم من العربان ، أن يصدوا المغيرين . لكن الدائرة دارت عليهم ، اقتحم أعداد من جنود الفرنسيين أبواب المدينة . تسلق الأسوار أعداد أخرى . ظل آخرون خارج المدينة . دخل الفرنسيون الإسكندرية فى الثالث من يوليو . غابت الرءوس المدبرة باعتقال رءوس البلد ووجهائها ، وزاد عويل النساء ، وصياح الأطفال ، من انتشار الفوضى ، وعدم إحكام التدبير . طلبوا الأمان من الفرنسيين ..

الغزو الجديد مخالف لما اعتادته مصر من غزوات . هو يختلف عن محاولات البيو للإغارة على مدن الحدود وقراها ، فيسهل على الأمراء صدهم وطردهم إلى ما بعد الحدود . أيقنوا أن القوات المهاجمة ستمتلك الإسكندرية دون مقاومة . لأن جنود الأمراء بالفرار ، وظل شعب المدينة بلا حول ولا قوة ، ولا سلاح يدافع به عن نفسه ، وخت الأبراج من آلات الحرب والبارود .

بدا أن المدينة استسلمت . لكن رصاص البنادق انهمر من طاقات المساجد ونوافذها .

لم يكف المقاتلون من أهل الإسكندرية عن القتال . دارت المعارك في الشوارع والحارات والخلاء . انهالت طلقات الرصاص من النوافذ والشرفات والأسطح ، ومن خلف الأبواب والمتاريس . أصيب الجنرال كليبر بطلق نارى لامس جبهته ، وأصيب الجنرال مينو بضربة حجر ، وقتل وأصيب ضباط آخرون .

بدت المذبحة وشيكة ، لا يقتصر خطرهما على المصريين وحدهم ، فهي تشمل الفرنسيين أيضاً . مثلت حاجتهم للجوع والعطش حافزاً إضافياً للاقتحام ، واستكمال الغزو . أعملوا القتل في كل من يصادقهم . لم يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل . لم يأبهوا باستغاثات الرحمة ، وإن تركوا - فى النهاية - من لا يؤيه لهم . فقد المصريون سبعمائة غالبيتهم من النساء والأطفال ، بينما فقد الفرنسيون ثلاثمائة ضابط وجندى .

بلغت بونابرت تعليقات الجنود ، ما بين الهمسات والآراء المعلقة : لابد أن الجنون هو الذى جاء بهذه الحملة .. أى تهور قادنا إلى هذا البلد ؟ .. نحن ندفع ثمن طموح الجنرال . وعدهم قبل أن تنطلق الحملة من طولون بأنه - عند العودة إلى فرنسا - سيكون مع كل جندى وضابط ما يتيح له شراء ستة أفدنة من الأرض . انطلقت الأخيلة بلا حد : السماء الصافية ، البخور ذو الأريج العبق ، الراقصات الشرقيات ، والجوارى ، والغموض ، والسحر ، والمتعة بلا انتهاء .

وقع القائد العام منشوراً يطمئن فيه أهل المدينة بأنه قدم لمحاربة المماليك . : "بسم الله الرحمن الرحيم . لا إله إلا الله ، لا ولد له ، ولا شريك له فى ملكه . من طرف الشعب الفرنسى المبني على أساس الحرية والتسوية ، الصارى عسكر الكبير أمير

الجيش الفرنسية بونابرت ، يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد والصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق أبناء الملة الفرنسية ، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي ، فحضرت الآن ساعة عقوبتهم . واحسرتاه . من مدة عصور طويلة هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد الأبازا والكردستان يفسدون في الإقليم الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها . إن رب العالمين القادر على كل شيء قد حتم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريون ، قد يقولون لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين : إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه ، وأحترم نبيه والقرآن العظيم . أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد : قولوا لأمتكم إن الفرنسيين هم أيضاً مسلمون مخلصون ، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى ، وخربوا فيها كرسى البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطا ، وطردوا منها الكوالرية ، الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ، ومع ذلك فإن الفرنسيين كل وقت من الأوقات ، كانوا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه ، أدام الله ملكه .

قال نابليون لهنرى برتران ، مرافقه ، وصديقه ، وموضع سره :

- أعرف ما تريد أن تقوله : هذا المنشور قطعة من الدجل ..

وابتسمت عيناه الواسعتان :

- لكن ، ألا توافقني على أنه دجل مقنع ؟

وأشاح بيده في عدم اكتراث :

- على المرء أن يصطنع الدجل - أحياناً - ليحقق ما يستعصى عليه من الأمنيات !

وهز على رأسه مؤمناً :

- المرء في هذه الدنيا يجب أن يبدو صديقاً للناس ، وأن يبذل وعوداً كثيرة ، ولا

يفي بشيء منها !

اختلط في ذهنه - بعد أن وقع البيان - ما قرأه ، أو استمع إليه ، عن مصر :
الأهرامات ، المسلات ، أطلال المعابد الكريمة ، آثار البطالمة والرومان ، أسر لويس
التاسع ، البنايات العربية ، سحر الشرق ، وغموضه ، وأسراره ..

سبقت أحلامه الشخصية قواته المتجهة إلى القاهرة ، تريد ما بحوزة الممالك من
أسلحة وكنوز ، تعين الحملة على مغالبة ظروفها القاسية . قطع الجنود الصحراء .
عانوا الجفاف ، وحرارة الجو ، وارتداء الزي العسكري الشتوي ، وعانوا مطاردة البدو
واعتداءاتهم .

هنرى برتران مرافقه منذ كان نقيباً في سلاح الهندسة ، وصديقه المقرب ،
وموضع سره . سألته :

- ما الفترة التي تتوقع أن تقضيها في مصر ؟

قال بونايرت :

- بضعة شهور أو ست سنوات ، الأمر كله يتوقف على تطور الأحداث ، سأحاول
الإفادة منها ، كما أحاول الإفادة من وجودنا في مصر ، ومن العلماء والفنيين الذين
أتوقع أن يضيفوا إلى الحلم .

وعد جنوده بالغنائم والأسلاب والمكافآت المادية ، وإن لم يخبرهم بالمكان الذي
يتجهون إليه . أربعون ضابطاً فقط هم الذين كانوا يعرفون إلى أين تمضى الحملة .
شدد عليهم ، فلا يبلغون الجنود بالجهة التي تقصدها الحملة . ربما حكم العالم من
الإسكندرية ، وليس من باريس ولا روما ولا لندن ولا الأستانة ، ومن يد مصر لابد أن
تصل المدنية إلى أعماق القارة الإفريقية . فى باله موقع مصر ، وما تحمله أرضها من
ثروات . ثمة الكثير يمكن عمله فى هذا البلد . ربما لا يعينه الوقت ، ولا عودته المحتملة
إلى فرنسا ، على إنهاء كل شيء ، لكن الانطلاق يمضى إلى آفاق بلا نهاية . وضع نظام
تعليمى جديد ، تعويد أعيان مصر على أفكار المجالس النيابية والحكم ، تحسين وسائل
الزراعة ، استنبات محاصيل لم يسبق زراعتها ، تكاثر مشروعات الري من السدود

والقناطر والترع والقنوات ، التحكم بفيضان النيل فلا تهدر مياهه . ألف بوابة تضبط الفيضان وتحسن توزيع المياه ، المياه المهذرة فى البحر تتحول إلى منخفضات الصحراء ، ربط البحرين المتوسط والأحمر ، الوقاية من الأوبئة والأمراض المتوطنة ، قدوم آلاف الوافدين من فرنسا وإيطاليا واليونان وبلاد الشام وداخل إفريقيا . يتضاعف سكان البلاد أربع مرات ، تعتدل الكفة المقابلة لكفة أهل القاهرة والفلاحين والممالك .

فصل

وافق المقاتلون من أهل الإسكندرية - مرغمين - على أن يسلم السيد محمد كريم - حاكم المدينة - قلاعها وأسوارها ومرافئها ..

نادى الفرنسيون - عند استقرار الأمور - بالأمان ، ورفع أعلامهم على بنايات المدينة ، وطالبوا الأعيان والوجهاء وأصحاب العمامة بجسع السلاح ، ووضع شعار الفرنسيين على صدورهم ، وألف بونابرت مجلساً لحكم المدينة .

قال بونابرت للسيد محمد كريم :

- لقد أخذتك والسلاح فى يدك . وكان لى أن أعاملك معاملة الأسير ، لكنك استبسلت فى الدفاع والشجاعة متلازمة مع الشرف . لذلك أعيد إليك سلاحك ، وأمل أن تبدى للجمهورية الفرنسية من الإخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة ..

* * *

وصلت أنباء ما حدث إلى القاهرة . أبلغ بها ثلاثة عشر رسلاً أوفدهم محمد كريم إلى مراد بك .

عقد شيخ البلد إبراهيم بك اجتماعاً فى قصر العينى ، حضره الباشا أبو بكر والى مصر ، والأمراء الموجودون فى القاهرة ، والقاضى ، والمشايخ : عبد الله

الشرقاوى ، و خليل البكرى ، ومحمد المهدي ، وسليمان الفيومي ، ومصطفى الصاوى ،
وأحمد العريشى ومحمد الأمير ونقيب الأشراف عمر مكرم ، و شيخ السادات ، وعدد
من صفار العلماء ..

تحدثوا فى أمر الواقعة الفاجعة .

قال مراد بك :

- لم يحضر الفرنجة إلى هذه البلاد إلا بإذن من الدولة العلية ..

وأشار بإصبعه إلى البابا :

- لابد أنك تعلم بحقيقة الأمر .

قال البابا :

- لا يصح أن تخاطبني بهذه اللهجة ، ولا أن توجه هذا الاتهام . الدولة العلية لن
توافق على أى اعتداء ضد بلاد الإسلام .

اتجه شيخ السادات بنظره ناحية أمراء الممالك :

- إن كل هذا من سوء أفعالكم وظلمكم ، وآخر أمرنا معكم أنكم ملكتمونا للإفرنج ..

وأومأ إلى مراد بك بقوله :

- وخصوصاً بأفعالك وتعتديك أنت وأمرائك على متاجر المصريين وأخذ بضائعهم ..

كتم مراد بك الغضب فى نفسه . الموقف لا يحتمل حتى مجرد إبداء الغضب ، وما
يترتب على الفعل من ربود أفعال ..

قال مراد بك :

- سأحطم هؤلاء الفرنجة تحت سنانك خيلى ..

قال البابا :

- دعمكم من توجيه الاتهامات ، وانصرفوا إلى أخذ العدة تحسباً للخطر الماثل ..

فصل

هل يكفر الأمراء عما عاناه أبناء البلاد على أيديهم من ألوان العسف والظلم ؟

ألف الأميران إبراهيم بك ومراد بك جيشين . قاد أحدهما إبراهيم بك ناحية شرق النيل عند بولاق ، ومضى الآخر - بقيادة مراد بك - ناحية الغرب ، لصد الجيش الغازي قبل أن يبلغ القاهرة . أبلغه مماليكه أن قوات الفرنسيين يتألف معظمها من المشاة . لم يكن زيهم يناسب الجو الحار . البذلة العسكرية من نسيج دقيق الخيوط وجلد البقر ، ويحيط بسيقانهم حذاء برقبة عالية . لم يعتادوا على حرب الصحراء ، يعانون صعوبة السير فوق الرمال ، على ظهورهم عتاد يهد الحيل . اقتصر طعامهم - عبر الصحراء والقرى - على البطيخ ، يروون به ظمأهم ، وإن ظلوا في حاجة إلى طعام حقيقي ، يعينهم على المواصلة . سقط بعضهم صرعى في الطريق ، وانتحر البعض بإطلاق الرصاص على أنفسهم ، أو ارتموا في النيل .

أهمل مراد اقتراح التسوية الذي نقله إليه روزيتي . يحصل على مصر العليا من جرجا إلى الشلال الأول ، شريطة أن يعترف بالتبعية للفرنسيين ، ودفع إتاوة لهم . وجد في مجرد عرض الاقتراح ما يشي بضعف الفرنسيين .

رفض نابليون الزحف على القاهرة على امتداد فرع دمياط . قدر احتمال عودة نيلسون ، فيضطر إلى الارتداد لفرع رشيد . فضل اجتياز طريق الصحراء عبر دمنهور ، لتجنب دفاعات الممالك ، ولتقليل مسافة الطريق .

أهمل القائد العام ما نقله إليه الأرصاد من حصول جنود الحملة على طعامهم بالسطو والنهب والعنف ، واقتتال الجنود على الماء . يدرك أن غالبية جنود الحملة لم ينضموا إليها إلا لضمان الوجبة التالية . آخر روايتهم تسلموه منذ فترة بعيدة ، وثيابهم رثة . تحولت أعداد منهم إلى النهب والسلب في القرى لإسكات صراخ بطونهم . أبلغه الأرصاد بما كتبه الملازم نورمان إلى أسرته " العطش وحده هو الذي دفع جنودنا للاستيلاء على الإسكندرية . كنا أمام خيارين : العثور على الماء ، أو الموت " . وقال

الملازم فرترى : كان يكفي أن يزود كل جندي بزمزمية صغيرة يحمل فيها الماء ، لكن القائد الأعلى نسي هذا الأمر ، وسيطر الارتجال على كل شيء . القائد الأعلى هو من يجب أن تلومه . أهمل ضيق الضباط باقتصار الطعام على البقسماط ولحم الجمال وحفنة الأرز . أهمل حتى اكتفاء كل جندي بثلاث قطع من البقسماط . يدرك الظروف التي جاؤا بها . تواصلت حياتهم بالمعاناة نفسها . قدمت الحملة بنية الحصول على احتياجاتها من البلد الذي تهبط فيه . لما عاب الضابط فوجاني على جنوده طعامهم المسروق ، دافع الجنود - بجرأة لم يتوقعها - عن نهر العسل والتبيز الذي بدا سراً في صحراء مجدبة . ألمته حكايات الجنود الذين ألقوا بستراتهم وقمصانهم . لم يعوبوا يتحملوا ارتدائها ، حتى الجرايات ألقوا بها . ومن أسقطهم الجوع والعطش وضربة الشمس ، ومن دفعهم اليأس إلى قتل أنفسهم . أطلقوا الرصاص على رؤوسهم ، وألقى عدد من الجنود بأنفسهم في النيل ، ووجد قائد المدفعية الجنرال ميرور ميتاً في الصحراء . كانت الرصاصات قد اخترقت رأسه ، ومسدسه في يده ، وجنديين تعانقا ، وألقيا بنفسيهما في النيل . أعلن بعض الضباط السخط ، ورفض الفهم لبواعث قومهم إلى مصر .

لم يكن ذلك ما يتوقعه . استعاد قوله حين لمح أشعة إنجليزية في مدى الأفق : أيها الحظ ، أنتخلى عني ؟ أمهلني خمسة أيام فقط ! لم يكن يدري ما إذا كان يعني ما يقوله للجنود ، أم أنه لم يكن يقصد سوى حثهم على التجلد : اصبروا بضعة أيام أخرى ، ثم تجدون - في عاصمة مصر - وفرة في كل شيء : الخبز الأبيض واللحم الطيب والتبيز الفاخر والسكر والقهوة التركي .

التقت قوات الفرنسيين وقوات المماليك في شبراخيت ، في الرابع عشر من يوليو . تغلبت على ما عداها - حتى على رغبة الفرنسيين في الانتصار - رغبة الاستحواذ على ما بأيدي فرسان المماليك من الثياب الزاهية ، والعمائم ذات الريش ، والخوذات المذهبة ، والسيوف ، والرماح ، والحراش ، والبنادق ، والبلط ، والخناجر ، بالإضافة إلى الطبنجات الثلاث المتدلية من جانب كل فارس . غنائم ، لو أنهم فازوا بها ربما تغيرت حياتهم .

قال فرترى :

- أصبحت أقدامنا المتعبة مشققة كالأرض التي ندوس عليها !

لم تكن الأيام الأربعة التالية لمعركة شبراخيت أقل قسوة . مات بعض الجنود من شدة الحر ، واعترضت قنوات الري الجافة طريق عربات المدافع ، وانهك جنود سلاح المهندسين فى تسوية ضفاف الترع لإتاحة المرور من فوقها ، وأذن الضباط والجنود بالاستيلاء على كل ما يصادفهم من مؤن ، حتى لو دمرت القرى التى تقاوم عن آخرها . وأحرقت قرية على الطريق بالفعل ، بعد أن سلب كل ما فيها ، وذبح ٩٠٠ ما بين رجل وامرأة وطفل .

فصل

حلت الهزيمة بالأمراء ، وفروا عائدين إلى القاهرة .

لاحق اليقين مراد بك أنه يواجه ما لم يعهده من قبل ، وأنه لن يفلح - كما ادعى - فى تحطيم العدو تحت سنابك خيله . فضل الفرار ، والتخلى عن موافقته لنابليون - بواسطة روزيتى - أن يضع نفسه ومماليكه فى خدمة الفرنسيين ، لقاء التنازل له عن ممتلكاته فى مدن البلاد وقراها .

جاءت الأنباء بأن دولة الأمراء الظالمة لم تستطع الصمود أمام غزو الفرنجة . لم يستطع جنود الأمراء أن يصمدوا ، ولا حاولوا حماية المدينة من الجيش الأجنبى . ساد القلق حياة المصريين . أغلقت أبواب البيوت على سكانها ، وأغلق الكثير من التجار وأرباب الحرف محالهم ، ولجؤوا إلى القرى . خلت الطرق إلا لضرورة السير ، وتمطى الخوف . نقل الأمراء ما بحوزتهم من تحف ومنقولات ثمينة من بيوتهم وقصورهم إلى بيوت صغيرة ، بعيدة ، فى أماكن بعيدة ، فلا تصل إليها الأيدي ، وإن تسللت أعداد من أهل القاهرة إلى قصور مراد وإبراهيم . سلبوا ما فيها ، وما فى قصور الأمراء ، ثم أحرقوها فدمرت تماماً .

لإدخال الطمأنينة فى قلوب أهل البلاد . أمر والى مصر وشيخ البلد والأغا بفتح الأسواق ، وتعليق القناديل على الدور والدكاكين ..

فصل

استولى جيش الفرنسيين على قوة والرحمانية فى ٢٨ المحرم سنة ١٢١٢ هـ . ثم بدأ زحفه لملاقاة مراد بك . انجلى المناوشات بين طلائع الجيش الفرنسي وقوات المماليك ، عن فرار القوات المدافعة ، مدفوعة بالخوف والفزع . ولوا الأديار ، ومضوا فى موازاة ضفة النيل ، تاركين أسلحتهم ومدافعهم فى أرض المعركة . أحرق الراهب الفرنسى سيكار كومات من المخطوطات القديمة المودعة فى خزانة كبيرة برودان . قال إنها كتب سحر . تراجع مراد بك - بجندة المهزومين - إلى إمبابة ، على الجانب الغربى من النيل ، بمحاذاة قصبة بولاق ، وبدأ فى عمل متراس من ساحل النيل إلى قرية بشتيل . ثم شرع الجند فى حفر خندق ..

فصل

اشتبكت طلائع قوات الفرنسيين مع قوات مراد بك بالقرب من قرية بشتيل . زاد الفرنسيون من شدة نيرانهم ، فلم يتيحوا للمماليك تدبر استخلاص العبرة ، وتنظيم صفوفهم . دار القتال كأشرس ما يكون . اختلطت أصوات المدافع والرصاص والصيحات والصراخ والحشرجات . أحاط جند الفرنسيين بعساكر المماليك من كل ناحية . حاول المماليك - بتأثير الارتباك - أن يطلقوا مدافعهم وينادقهم ، فأخطأت التمييز بين قوات المسلمين وقوات الكفار . ماتت أعداد من جنود مراد بك ، وألقت أعداد أخرى بنفسها فى النيل ، وتبع من تبقى مراد بك فى تقهقره نحو الجيزة .

دانت الضفة الغربية لنهر النيل لسيطرة الفرنسيين ، فوجهوا نيران مدافعهم إلى البر الشرقى . كان جنود والى مصر وإبراهيم بك قد تابعوا ما حل بجند مراد بك من هزيمة قاسية . سرت فيهم روح التشردم والفرقة ، وعاد غالبية المدافعين إلى القاهرة ، يعرفهم الفزع والحيرة ..

فصل

خرج الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمر والأعلام والكاسات ، واختار بعض العلماء زاوية على بك ببولاق ، يتلون القرآن ، ويقرأون البخارى والأذكار ، ويدعون إلى الله - فى جنباتها - بنصرة الإسلام ، ودرج أعدائه .

وقف الممالك ، أو امتطوا جيادهم ، فى السابع عشر من يوليو ١٧٩٨ على الضفة المقابلة للنيل فى إمبابية . يرتدى كل واحد خوذة حديدية ، ودرعاً ، وثوباً حريرياً زاهى الألوان ، نى خيوط مذهبة ، وعمامة هائلة ، وتسليح بمسدسين وغدارة لامعة ، والبنادق والبلط والرماح والصوالج والحراب والخناجر ، والسيوف المعقوفة ، المرصعة بالأحجار الكريمة ، تضوى بالألق المنعكس من أشعة الشمس . وراية الحرب رفعت فوق ذبول الجياد ، والطبول والأبواق تمهد للمعركة المتوقعة . إلى اليمن الأهرامات الثلاثة وأبو الهول ، وإلى اليسار - فى الناحية المقابلة من النيل - تطلو المآذن والقباب وأسوار قلعة الجبل ..

لم يكن إبراهيم بك على ثقة بالنصر . أنطقه الخوف فى نفسه بما لا يصدر عن رجل : إن هؤلاء الكفار القادمين لقتالكم ، لهم أظافر طولها قدم ، وأفواه ضخمة ، وعيون ضارية . إنهم متوحشون يسكن الشيطان أجسادهم ، وهم يمضون إلى المعركة تربطهم السلاسل بعضهم ببعض .

ظل إبراهيم بك على الضفة الشرقية للنهر ، مراكبه محمّلة بالصناديق المملوءة بالذهب والأمتعة . فى نيته الفرار إلى الشام ، مع أول بادرة هزيمة .

فصل

ضيق الفرنسيون الحصار على قوات الممالك والفلاحين . عرضوا عليهم الاستسلام كأسرى ، لكنهم فضلوا القتال حتى الموت . وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة ، جرى فيها ما لم يتفق مثله فى مصر ، ولا سمع بما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين ، فليس من رأى كمن سمع .

لاحق جنود الجنرال ديزيه القوات المنسحبة . واجهوا القوات الخلفية لمراد بك ، بالقرب من جيزة مصر .

« من نجا برأسه فقد ربح .. » .

مقولة ، حاول أن يفر شيخ البلد والوالى - فى ظلها - عن طريق الصالحية - من العادلية إلى غزة . صار الفالح هو الذى يسبق رفيقه . ولوا الأدبار كأمواج فى مد وجزر متلاحقين . أما مراد بك ، فقد مضى بصحبة زوجته وجنوده المهزومين ناحية الصعيد . بلغ أسيوط مع مماليكه . جمّد الملاحه فى النهر ، وهدد تموين القاهرة . وصل إبراهيم بك إلى بلبيس ومعه حريمه وكنوزه . لم يعد من ثمانية عشر ألفاً ، هم ممالك مراد بك ، سوى ثلاثة آلاف فارس ، تبعوه فى اتجاه الجنوب ، خلفوا وراءهم أربعمئة جمل ، والكثير من الجياد والعتاد والذخيرة والنفائس والطعام - المطمح الأهم للجنود الفرنسيين ! - والمدافع التى لم تنطلق منها قذيفة واحدة . انشغل جنود الفرنسيين بانتشال جثث قتلى الممالك ، وسلب السيوف والثياب ، وما بها من حلى وأحجار كريمة وقطع ذهبية ونفائس ، ثم معاودة إلقاء الجثث - عارية - فى النيل .

تشوش نظام جند الممالك . اختلط حابلهم بنابلهم ، وانشغل كل واحد بتخليص نفسه ، لا يشغله حتى القائد الذى يصدر الأوامر ، أو الأمير ولى النعم . استدعت التصورات ما روى عن يوم نفخ الصور . قال الجنرال بارتييه : لم تثبت الخطط العسكرية الأوروبية قط ، مثلما أثبتت اليوم تفوقها على الشجاعة الشرقية غير المنظمة . لم يجد الفرنسيون عناء فى الاستيلاء على الجيزة وبولاق . شرعوا فى التدمير والنهب والسلب والإحراق . تعالى الصراخ والبكاء من مواضع كثيرة .

ترامت رائحة الفرنسيين إلى ناس القاهرة . تعالى النداء من فوق المآذن - قبل صلاة الفجر - : أيها الناس ، استيقظوا ، سنقاتل الفرنسيين . بدا الخطر فى انعطافة الطريق ، أو فى مدى البصر . اختلقت الشائعات ما لم يحدث ، ولا يمكن تصديقه . قيل إن الغزاة أعدوا للمدينة من أسباب الحرق والتدمير ما يلغيها من الوجود .

ضج الناس بالصياح والصراخ والعيول . احتشدت طوائف العامة . حضر الوالى
وشيوخ السادات ونقيب الأشراف وشيخ البلد إبراهيم بك وأتباعه من أمراء المماليك
والكشاف وأرباب العمامة والوجهاء وقادة الفرق العسكرية والعامة إلى قصبة بولاق ،
للتشاور فى صد الفرنسيين . استقر رأى على أن ينقسموا فى دفاعاتهم ما بين
الضفة الشرقية للنيل ، والضفة الغربية التى يتولى مراد بك أمر قيادة دفاعاتها . عمل
مراد بك المتاريس من بولاق إلى شبرا ، ونصب المدافع فى المواضع المؤثرة ، واستعان
بعربان الشرقية والغربية ..

نودى بالنفير العام ..

خرج أهل القاهرة من طائفة العسكر والمدنيين - فيما عدا العجائز والنساء
والأطفال - إلى المتاريس للجهاد فى سبيل الله ، والمدافعة عن البلاد ضد هجمات الغزاة .
لم ييخل أحد بشئ يملكه . تقاطرت الطرق الصوفية ، وارتفعت أصوات الطبول
والدفوف ، وعلت الأعلام والبيارق والشارات فوق الرعوس ، والتف المشايخ والمجاورون
فى حلقات ، داخل الجامع الأزهر ، ومعهم مشايخ فقهاء الأحمدية والرفاعية والبراهمة
والقادرية والسعدية وغيرها من الطوائف وأرباب الأشايير وأطفال المكاتب ، يذكرون
الاسم اللطيف وغيره من أسماء الله الحسنى ، ويقرعون البخارى ، والكثير من التلاوات
والأدعية والابتهالات الدينية ، وحمل الزعر والحرافيش والجعيدية التباييت والعصى ،
يرافقهم التهليل والتكبير ، وأصوات الطبول والمزامير .

خلت الشوارع من المارة . أمر قائد الشرطة - لتجنب أعمال السلب والنهب ،
ولرفع الخوف عن أهل القاهرة - بفتح المقاهى نهاراً وليلاً ، وتعليق القناديل على البيوت
والدكاكين . ازدحمت الجوامع والمساجد والزوايا بالعلماء وأتباع الطرق الصوفية
وأطفال المكاتب وعامة الناس . يتلون القرآن ، ويقرعون البخارى ، ويرددون الأدعية
والابتهالات .

تكرر النداء فى الأيام التالية .

بذل أبناء القاهرة وسعهم ، وفعلوا ما فى قوتهم وطاقاتهم وخزائنهم من أموال . لم يبخل أحد بما يملكه . أغلقت الأسواق والدكاكين ، واتجه المئات إلى بر بولاق . رفعت الأعلام فى أيدي المتصوفة والحرافيش ، وتعالى الطبول والزمر والطاسات ، تختلط بالأنكار والنداءات والصيحات صعد نقيب الأشراف السيد عمر مكرم إلى القلعة . أنزل منها اليبريق النبوى . نشره بين يديه من القلعة إلى بولاق ، وسط زحمة خانقة ، ألوف من أهل القاهرة ، يحملون العصى والشوم والنبابيت ، تقاطروا من سوق السلاح ، وسوق الرميّة ، ترافقهم التهليلات والتكبيرات ، وإيقاعات الطبول والزمر . لم يعد فى القاهرة سوى من لا طاقة له على حمل السلاح من الشيوخ والنساء والأطفال .

راع الناس ما لحجاً إليه الأمراء من نقل أموالهم وأمتعتهم ونفائسهم إلى مناطق بعيدة . ركب القادرون نوابهم ، وحملوها ما يمكن أن تحمله من المتاع ، وتضاعفت أسعار الدواب فى سوق الرميّة . حتى الحيوانات الجريئة والمريضة وجدت من يدفع فيها الأثمان الباهظة . وثمة من جعل رأسه ، أو كتفيه ، وظهره ، ركوبة لابنائيه ، يفر بهم خارج القاهرة ، وأخفى النساء حليهن ومصاغهن ، بعيداً عن خزائن البيوت ، ووافق الكثير من الأسر الكريمة على اقتران فتياتها بما رفضنه من قبل ، كى يصحبن أزواجهن إلى مناطق آمنة . تعددت نواحي اللجوء ما بين قرى الصعيد وقرى الشرقية ، ومضت أعداد إلى مدينة الخانكة ، حيث لاذ بها والى مصر وشيخ البلد . لكن لصوص العريان خرجوا على جميع المهاجرين فى المطرية ، فى طريقهم إلى الخانكة . أعملوا فيهم القتل والسلب ، وهتكوا أعراض النساء . عاد من فازوا بالنجاة إلى القاهرة ، وهم لا يسترون أبدانهم ، ولا يملكون ما يقيم الأود ..

داخل أهل القاهرة من تلك التصرفات خوف . خرج الناس إلى الشرق ، أو إلى جهة الصعيد . توزعت الطرق ، واختلطت ، وتشابكت . أخذ كل إنسان ما يستطيع حمله من مال ومتاع ، لا يدرى أى الطرق يقصد . لاذ بالأزهر الشريف مشايخ فقراء الاحمدية والسعدية والرفاعية ، وغيرهم من طوائف الفقراء وأرباب الأشاير ، يقرعون البخارى والأنكار ، ويتلون الأدعية والابتهالات ، والاستغاثات بخفى اللطاف لينجى الناس مما يخيف .

معظم البنايات أغلقت أبوابها ونوافذها بالمزاليج ، تشى بأن سكانها تركوها لغياب قد يطول . أغلق التجار حوانيتهم . خلت الأسواق من المارة . توقفت عمليات البيع والشراء . زادت الأسعار بما لا يقوى عليه غير القادرين . تقشمت مظاهر الفاقة والجوع وعدم الحصول على ما يقيم الأود . ترصد عربان البادية واللصوص الفرصة . تسللوا إلى بيوت الأهالي ، واقتحموها . أخذوا ما فيها من الأمتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك مما يصعب حصره ، وأقدموا على أفعال شنيعة من القتل والنهب والتدمير ، وفجروا بمن عجز عن الفرار من حرائر الأسر . فتحت أبواب النور عن آخرها ، وتناثر الكثير من البضائع والأمتعة فى الطرقات . لم يعد فى القاهرة - بعد أن هجرها معظم بنيتها - سوى النساء والأطفال والعجائز الذين لا يقوون على الحركة ، يمتثلون للقضاء ، ويتوقعون المكروه .

فصل

داهمت قوات الفرنسيين بيت السيدة نفيسة خاتون بنت عبد الله ، زوجة مراد بك . كانت - قبل اقترانه بها - أرملة لسيدته على بك الكبير . تعلمت العربية قراءة وكتابة . عنيت بالقراءة والاطلاع ومجالسة العلماء من وراء حجاب . احترمتها الخواص وأمراء المماليك . اجتذبت قلوب الناس بما عرف عنها من البر والإحسان ورفع الظلم وحماية الغلبة والمنكسرين . ساعدت مراد بجزء مما ورثته عن زوجها ، وأضفت على مكانته هيبة . بحث الفرنسيون عن أسلحة ووثائق سرية وأموال . دافع عنها المشايخ وأمير الحج وقاضى القاهرة . فرض الفرنسيون عليها إتاوات قاسية ، وغرامات لا سبب لها .

فصل

تبين لأهل القاهرة أنه كان من الأوفق لهم أن يظلوا فى مدينتهم . ارتكب البدو من الشرور ما لا يتصور أن الفرنسيين يقدمون عليه . هتكوا الأعراض ، وقتلوا الأنفس ، وسفكوا الدماء ، بلا دافع إلا النيات الشريرة فى الأذى والتدمير .

جاءت الأنباء بأن الفرنسيين لم يعبروا إلى الضفة الشرقية للنيل ، فالفرصة قائمة إذن لانتزاع السلامة من أيدي الفرنسيين . قرر العلماء والوجهاء - حرصاً على أهل القاهرة - تسليم القاهرة إلى قادة الفرنسيين . حملوا مبعوثين - أحدهما مغربي - باسم أهل القاهرة إلى القائد العام للفرنسيين في معسكره بالجيزة . لطفهما بونابرت ، وأظهر لهما الود . أعادهما إلى القاهرة برسالة يقول فيها إنه لم يحضر إلا بقصد إزالة الممالك الذين يستعملون الفرنسيين بالذل والاحتقار ، وأخذوا مال التجار ، ومال السلطان . وطمأن المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية على أرواحهم وممتلكاتهم .

قرأ المشايخ رسالة بونابرت ، فاستقرت الطمأنينة في النفوس ، وزاليتها الوحشة .. سار إلى الجيزة جماعة من المشايخ ، يتقدمهم الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي . استقبلهم القائد العام - في مقره - بالحفاوة والترحيب . ظلوا صامتين أمام القامة القصيرة ، والبشرة الشاحبة ، والنظرة الهادئة ، الباردة ، من العينين الرماديتين .

ابتدروهم بالقول :

- من هو الحاكم الحقيقي للبلاد ؟ أين هو ؟

قال الشيخ مصطفى الصاوي :

- الحكام ولت ، والرعية ذلت . وقد أتينا من قبل علماء البلد والأعيان نطلب لهم الأمان

قال القائد العام في صوت أملس :

- نحن قدمنا ضمانات ، ولا خصوم لنا سوى الممالك .

ثم وهو يتصنع الود :

- نحن نؤكد ضمانات الأمن للأشخاص والبيوت والممتلكات ، ولا سيما لدين النبي الذي أحبه !

أردف فى وده :

- إننى راض عن مسلككم . أحسنتم عملاً بالامتناع عن الوقوف ضدى . لقد جئت للقضاء على جنس المماليك ، ولحماية التجارة وأهل البلد ..
سكت كالمأمل ، وأضاف :

- إننى أريد إعادة مملكة العرب .. من يعارضنى فى ذلك ؟
حدس من ارتجاف الشفاه ، إنهم يريون الكلام ، فيعجزهم النطق ..
اتجه إليهم بنظرة تومض بما صعب تبينه :
- لقد دمرت المماليك ، وقضيت على مظالمهم . يبقى أن يدرك شعب مصر ما نريده
له من خير . ساعتها لايد أن يتعلق بنا بإخلاص !
وعلا صوته بلهجة متحمسة :
- نحن سنعيد زمن مجد الفاطميين !

أردف فى حماسه :

- لماذا تخضع الأمة العربية للأتراك ؟ . لماذا تبسط سيطرتها على مصر الخصيبة ،
وشبه الجزيرة العربية المقدسة ، شعوب قدمت من القوقاز ؟ وإذا ما عاد الرسول محمد
إلى الأرض : إلى أين سيذهب ؟ هل إلى القسطنطينية ؟ إنها مدينة دنيوية ، بها من
الكفار أكثر مما بها من المؤمنين ، ووجوده فى القسطنطينية يعنى أنه يضع نفسه وسط
أعدائه . كلا ، إنه سيفضل مياه النيل المباركة . وسيأتى للإقامة فى الجامع الأزهر ،
أول الطريق إلى الكعبة .

تهللت وجوه المشايخ :

- هذا صحيح تماماً !

واجههم بنظرته الملتمة :

- أنتم المشايخ الكبار .. لماذا تأخرتم حتى الآن ؟

قال الشيخ مصطفى الصاوى :

- لسنا المشايخ الكبار . كما قلنا فإن المشايخ الكبار خافوا وهربوا ..

قال بونابرت :

- ما الذى أخافهم ؟ من الذى أخافهم ؟

وأشار إلى ضباطه :

- أكتبوا لهم بالحضور الآن ..

أمر ، فأرسلت كتب بالأمان إلى كبار المشايخ والعلماء والأعيان ، ممن فروا خارج القاهرة . أثروا السلامة ، وطلبوا العافية ، وأمنوا أنه إذا كان لكل أجل كتاب فإن المرء يجب ألا يلقي بنفسه إلى التهلكة ..

عاد - بالطمأنينة - كل من وصلت إليه كتب الأمان وشيخ السادات والشيخ عبد الله الشرقاوى ومعظم الأهالى . صدعوا بأمر القائد العام ، وأبرزوا الطاعة والانقياد . عادوا إلى الصلاة فى المساجد ، وفتحت الدكاكين أبوابها ، وذهب الحرفيون والتجار إلى أعمالهم ، وتلقى التلاميذ الدروس فى الكتاتيب . عمر أفندى مكرم نقيب الأشراف والروزنامجى أفندى - وحدهما - لم يعودوا إلى المحروسة . لحقا بشيخ البلد فى بلبيس ، يرافقه أعداد من أبناء الناس والعامه .

أزمع عمر مكرم ألا يعود إلى القاهرة إلا على جهاد ، أو يعد المستقبل بخير تبتهت ملامحه . لم ينظر إلى المعاناة التى تتهدده ، ولا إلى النفى الذى سيعيش فى إسناره . ما شغله خلاص مصر من المماليك ، وباشا العثمانيين ، والفرنسيين الغزاة .

فصل

عبرت أعداد من الفرنسيين النيل - فى اليوم التالى للقاء بونابرت والعلماء - إلى الضفة الشرقية . ظلت أعداد أخرى على الضفة الغربية من النهر . تابع أهل القاهرة - بأعين الحزن والخوف والفضول - سير موكب القائد العام من الجيزة إلى قصر محمد

بك الألفى وسط ساحة الأزبكية ، حيث نزل فيه . لحق الألفى بسيدده مراد بك إلى الجنوب .

كان القصر حديث البناء . أنفق عليه الألفى أموالاً طائلة . من حوله حديقة واسعة ، تظللها أشجار السرو والبرتقال ، وتتناثر فيها النافورات المنبثقة في تكوينات ، السلالم رخامية ، متداخلة بالمرمر والجرانيت الأسواني ، والأرضيات من الفسيفساء ، والأسقف والجدران مزخرفة بالنقوش الإسلامية . ونافورة رائعة تتوسط قاعة الاستقبال ، وفي القاعات والحجرات ينتظم فاخر الأثاث والرياش . والحمامات متناثرة في كل طابق . كان الخلاء الترايبي يمتد أمام القصر ، وإلى يسار الواجهة شجرة جميز هائلة ، لم يمنع القائد العام المصريين مما ألفوه من الجلوس في ظلها .

أقام قادة الفرنسيين في ما أعجبهم من دور الوجهاء والأعيان . أما الجنود ، فقد ظل غالبيتهم في معسكراتهم بالجيزة . لم يحاولوا العبور إلى الضفة الأخرى للنهر ، حتى لا يثيروا الفزع في نفوس الأهالي .

فصل

هل المصادفة هي التي حددت موعد لقاء القائد العام والعلماء ، أو أن بونابرت اختار يوم إعدام السيد محمد كريم للقائه بهم ؟

أمر القائد العام بإبقاء السيد محمد كريم محافظاً للمدينة . حين عرف أن الرجل على صلة بالأهالي الذين يقاومون الفرنسيين ، اتهمه بالخيانة ، وإن تردد في إدانته بما يعرض للعقاب . حدثه أعوانه عن حب الإسكندرية للرجل ، وشهرته التي امتدت إلى القاهرة والمدن الأخرى . ثم تحدثت تبليغات الأرصاد عما يمتلكه الرجل من أموال هائلة لا يعرف موضعها سواه ، فقرن العفو عنه بفدية تنجيه من الإعدام . طالبه بأن يدفع غرامة ثلاثمائة ألف فرنك ، يسدها في اثنتي عشرة ساعة ، أو تفصل رأسه .

لم يكن في حوزة المحافظ قيمة الغرامة ، ولا أقل منها . تعددت التماساته إلى الأعيان والوجهاء : اشتروني يا مسلمين ! . لم يبذل أحد من ماله لكي ينقذه ، أو أنه لم

يكن بحوزتهم ما يفتنون به ، فتركوه لمصيره . شفع فيه أصحاب العمامة ، فلم تقبل لهم شفاعا . أعدم في الخامس من سبتمبر ١٧٩٨ ، واحتزرت رأسه . طاف جنود الفرنسيين بها شوارع المدينة يناون : هذا جزاء الخائن !

استقبل بوناپرت - في اليوم نفسه ، ثاني يوم إقامته بقصر محمد الألفى - حملة العمامة والأقلام والوجها . كان يرتدى معطفاً أسود ، أضاف إلى نحوله ..

لم يدعهم إلى الجلوس . ظلوا وقوفاً . واجههم بنظرة تفرض المهابة ، وملامح تخلو من الود ، وتملى الإرادة ، وتملى الملاحظات والأسئلة .

قال في صوت باهت :

- لقد فضلتكم أيها العلماء ورجال الشرع ، لأنكم قادة طبيعيون . أنتم أيضاً حملة القرآن الكريم ومفسروه ، وأصحاب أخلاق حميدة ، ومحبون للعدالة ، ولا اتجاهات عندكم لقيادة الحركات المسلحة ..

وافتعل ابتسامة :

- لقد أصلحنا الأمور بعد فسادها ، وفرضنا النظام في كل الحارات ..

ثم وهو يسند يده على خصره :

- إنما جئنا إلى مصر لتحريرها وإعادة الازدهار إليها ..

قال الشيخ البكرى :

- لقد جئتم لتخليصنا بمشيئة الله الرحمن الرحيم .

زال ما بالنفوس من قلق ورهبة ، عندما بالغ القائد العام في إكرام المشايخ ، والحدب بهم ، وفرد لهم الأسمطة ، وهبأ لهم أفخر الموائد ، وخلع عليهم ما ألهم ألسنتهم بالشكر والثناء ..

جاء اختياره للعلماء لأنهم أغنياء ، ولا يعرفون ركوب الخيل ، ولا المناورة العسكرية ، ولا يجيدون القيام بثورة مسلحة .

أعلن القائد العام عن تكوين ديوان لتدارس أمور البلاد ، وعرض ما يجب عرضه على القائد العام . قال :

- يجب ألا تختاروا لمعاونتكم أى كبير من الممالك !

قال الشيخ البكرى :

- سوق مصر لا يخافون إلا من جنس المملوك ، ولا يحكمهم سواهم ..

فكر بونايرت قليلاً ، ثم قال :

- ماذا ترون ؟

قال الشيخ عبد الله الشرقاوى :

- لا بأس من اختيار الممالك الثلاثة الذين يتوقف على وظائفهم حفظ النظام :

الوالى على أغا الشعراوى ، والمحاسب حسن أغا محرم ، وأغا الانكشارية محمد أغا المسلمانى .

- لا أعرفهم .. لكننى أثق فى سلامة اختياركم .

أصدر القائد العام أمره بإنشاء الديوان : عشرة من العلماء والقاضى وكتخدا والى مصر مصطفى أغا . وعين أغا مستحفظان ، ووالى الشرطة ، وأمين الاحتساب ، وكتخداوية بونايرت ، وكتخدا مستحفظان . جعل من دار قائد أغا فى الأزبكية مقراً له . حدد نشاطه بصفة الاستشارة . يقوم بالوساطة بين المصريين والسلطات الفرنسية ، يبحث ما يفرضه القائد العام من ضرائب على التجار وأصحاب الأراضى والعقارات ، يرفع التماسات الممالك لإعادة بعض ما صادره الفرنسيون من ممتلكاتهم وأموالهم .

تأتى مواكب الأعضاء إلى مقر الديوان ، فى ساحة الأزبكية . يركبون البغال المسرجة ، كمن حولهم الخدم والقواسة . خصص القائد العام حرساً من الفرنسيين للترحيب بهم ، وإكرام وفادتهم . يرافقونهم إلى القاعات ، فيستقبلهم المساعدون بالحفاوة نفسها . تقدم لهم المشروبات الباردة والقهوة . يدخل القائد العام . يختار الجلوس على أريكة تتوسط المكان ، وتبدأ المناقشات ..

نزع القائد العام نقابة الأشراف من السيد عمر مكرم . قلدها إلى خليل البكرى .
وافق على رواية البكرى بأن النقابة كانت لآل البكرى ، وأنها اغتصبت منه . ألبس
الشيخ فروة ، وتقلد نقابة الأشراف ، هو وحده الذى أخذ السجل بالمنحدرين من نسل
الرسول . صار من حقه التمتع بوقفها وعائداتها . نودى فى القاهرة بأن كل من له
دعوى على شريف ، فليرفعها إلى النقيب .

نهض بونابرت من مجلسه . رفع بيده طيلسانات ملونة . أراد وضع الطيلسان
المثلث الألوان على كتف الشيخ عبد الله الشرقاوى . تراجع الشيخ ، فسقط الطيلسان
على الأرض . لاحظ بونابرت تغير سحنة الشيخ . قال للترجمان كلمات بلغة بلاده ،
وأوما برأسه ..

قال الترجمان :

- يا مشايخ ، أنتم صرتم أحباب القائد العام ، وهو قصده تعظيمكم وتشريفكم
بزيه وعلامته ، فإنكم إذا تميزتم بذلك ، عظمتكم الناس والعساكر ، وصار لكم منزلة
فى قلوبهم ..

استطرد الشيخ الشرقاوى :

- لكن قدرنا ينحط عند الله ، وعند إخواننا من المسلمين !

أخلى القائد العام وجهه للغضب ، وتحدث إلى الترجمان - بلغة الفرنسيين - ما
نقله الترجمان للمشايخ : هذا الشيخ لا يصلح للرئاسة ، ونحو ذلك ..
لاطف بقية المشايخ القائد العام ، واستعفوه من تلك الشالات ..

قال بونابرت :

- إن لم يكن هذا ، فلازم وضعكم الكوكارد فى صدوركم ، وهى العلامة التى يقال
لها الوردة ..

قال الشيخ الشرقاوى :

- أمهلونا حتى نتروى فى ذلك .

نقل المترجم عن القائد العام قوله إنه من الأجدى للعلماء أن يؤلفوا ما ينفع الناس ،
وليس الاكتفاء بالفرائض الدينية ..

أدرك الشيخ أن بونابرت يخفى نزوعه إلى الشر وراء قناع من المودة الظاهرة
والابتسام والعبارات اللطيفة . تأمل القبعة العريضة - تبدو غير مناسبة - على رأسه ،
والحذاء الواسع على القدمين .

قال نابليون ، ليزيل ما ران على الجلسة من توتر :

- بعد أن دحرنا مقاتلى مراد .. ماذا ينتظرنا من معارك ؟

قال الشيخ البكرى :

- إن سوقة مصر لا يخافون إلا من جنس المملوك !

- نحن انتصرنا على المماليك .. من بقى لنحاربه ؟

- لا يوجد سوى بعض شيوخ الأزهر يقرعون البخارى ..

أظهر نابليون القلق :

- ما البخارى ؟ هل هو مدفع بعيد المدى ؟ وهل داناته ثقيلة ؟ وما المخزون الذى

يوجد منه عند المصريين ؟

قال البكرى :

- إنه كتاب دين يلجأون إليه فى أوقات الخطر ..

ارتسمت الراحة على ملامح بونابرت :

على القوات إذن أن تواصل التقدم !

عبر جنود الفرنسيين فى اليوم الثالث إلى القاهرة .

الباب الثانى

فصل

تأمل الشيخ بدر الدين المقدسى أسراب الطير وهي تحلق فوق وعاء الحبوب الذى يعلو منڈنة جامع أحمد بن طولون ، فوق جبل يشكر ، بالقرب من المقطم . يواظب خدم الجامع على ملئه طيلة أيام السنة . نصح مريديه بعدم التردد على الجامع . مبنى من الطوب الأحمر . محاط من ثلاث جهات بثلاث زيادات . الصحن الأوسط المكشوف ، مربع ، تحيط به فى جوانبه الأربعة أربعة تمتد فيها صفوف متوازية من الأعمدة ، مائة وستون عموداً ، يحيط بها ، وبالحوائط ، شريط كتابى بالخط الكوفى ، طوله كيلو مترين ، يضم سورتي البقرة وآل عمران . المنبر من خشب الساج والأبنوس ، زخارفه نباتية ، موزقة ، الحراب القديم الأصلى معه خمسة محاريب أخرى . الميضاة قبة كبيرة ، محمولة على أربعة عقود ، رقبتها محلاة بشريط كتابى من خط النسخ المملوكى .

التشققات - الطولية والعرضية - واضحة فى الأعمدة المصفوفة ، تهدد الجامع بالانهيار . النشع غطى الجدران بأشكال وتكوينات ..

- مسجد النقيب الذى بنىته بالحسينية هو أيضاً من بيوت الله .

من عائلة مقدسية ، تنتمى إلى الأشراف . عرف بابن النقيب لأنه كان ابن النقيب السيد على بن موسى الحسينى المقدسى ، أجداده نقباء الأشراف فى بيت المقدس . سموه المحدث ، والمقدسى .

ارتبط بحى الحسينية ، لأنه حى الزعر والحرافيش وعوام الناس . وكان يلقي دروسه فى جامع الحسين . جمع حوله الكثير من المصلين والمريدين الذين وفدوا عليه

لسماع عظاته بعد صلاة المغرب ، وخطبته قبل صلاة الجمعة . تزايد المريديون والأتباع وطالبو النصفة والمدد والصلوات والعطايا والزكوات . تشرَّب أعناقهم ، وتتسع عيونهم ، وينصتون إلى كلماته بالصمت والاهتمام . يدعواهم إلى رفض مستنكرات الشرع ، والاقتصار على ما يقضى به الكتاب الكريم والسنة .

عرف عنه أنه على علم بفقهِ الدين ، وتفسير القرآن . يدرك باطن العلم وظاهره . لا يتكلم إلا عن قراءة ودراسة وفهم ، ولا يردُّ أحدًا ، ويفتح بيته لمن يقصده في حاجة ، أو فتوى ، أو مظلمة ، أو شفاعة . لا يقصر تأثيره على خواص ، إنما هو يساوي في استقبال الجميع . لا شأن لذلك بمكانة علمية أو اجتماعية . يسير في الشوارع والأسواق . يجلس داخل المساجد والزوايا . يتردد على بيوت كبار التجار والوجهاء . من حوله الأعوان والمريديون وطالبو الحاجة . يلجأ الناس إليه لقضاء الحاجات ، ورفع المظالم ، وحل المنازعات ، يفزعون إليه في الملمات . ينصر الضعيف على القوى ، ويتشفع للأهالي عند رجال الإدارة والمالِك . إذا حاصرت الظروف القاسية ، استعان بعبدة يس ، يوالى ترديدها ، حتى تنتشع الغمة ، ويزول الخطر .

لم يكن يأذن لأحد في مجلسه أن يتكلم بغير أحاديث العلم والعقيدة وفقه الدين وسير الرسول وآل البيت والخلفاء والصحابة والتابعين والسلف الصالح . الصلوات الخمس هي الإيقاع ليومه : الصحو ، والخروج إلى الأسواق والعمل ، ومجالسة المريدين ، والقراءة ، والتأمل ، والنوم . ويخ أحد مريديه لأنه أذاع عنه ارتفاع التكليف . وصل إلى مقام لا يحتاج معه إلى ممارسة شعائر من أي نوع .

اعتبره الناس قطبًا صوفيًا . له عيانان سوداوان حادثان . وجهه مشرب بحمرة . يرتدى عمامة وعباءة شديدي الأناقة ، حوافها مذهب ، والحزام العريض حول الخصر موشى بالذهب ، ويركب جوادًا عربيًا ، أضاف إلى سمته فروسية باهرة .

ازدادت أعداد المريدين - بتوالي الأيام - حتى ضاق بهم مسجد النقيب . قصده الناس من أطراف الأرض ، طلبًا لعلمه وبركاته ومدده . قوافل من المشرق والمغرب ، فيها رجال ونساء ، يحملون الهدايا النفيسة . كان يشكر أصحابها ، ويعتذر عن قبولها .. اشتهر بأنه يتجنب موائد الحكام ، وأموالهم ، ولا يطرق أبوابهم ، ولم يكن يتردد

فى نقد أمراء الممالك وحكام العثمانيين ، ولا يخشى غضب الأميرين مراد وإبراهيم ، ولا غضب الممالك . لجأ إليه الناس لإغاثتهم من ظلم الأمراء ، وغسف أهل الحكم . أحاط بالأميرين عصابة للشر ، انشغلت بالسلب والنهب والمصادرة ، وأهملت مصالح الناس . أجبر الأمراء على أن يسيروا فى الناس سيرة حسنة ، ويكفوا أتباعهم عن مد الأيدى إلى أموال الناس ، وممتلكاتهم . صار له هيبة لا تقل عن هيبة الأمراء ، ولا عن هيبة الباشا ممثل السلطان .

تحققت له مكانة عظيمة فى قلوب الناس . لم يعد يتم أمر من أمور الناس ، والتعبير عن سخطهم ضد الممالك ، ثم الفرنسيين من بعدهم ، إلا باطلعه ومشورته . شدد المقدسى عليهم ، فلا بد أن ينبهوا الناس إلى الكتب التى فرقها الفرنسيون ، زعموا فيها أنهم ليسوا نصارى ، لأنهم يقولون أن الله واحد ، وأنهم يعظمون محمداً ، ويحترمون القرآن ، ويحبون العثمانيين ، ولم يأتوا إلا لطرده الممالك الظلمة ، لأنهم نهبوا أموالهم ، وأموال تجارتهم ، ولا يتعرضون للتجارة فى شىء ..

تحدث المريدون عن رؤية فرنسيين يدخلون الجامع . يكتبون فى أوراق ، ويرسمون ما يلاحظونه ..

قال مختار الرمادى :

- حتى نعالهم لم يخلعوها ..

فى حوالى الخامسة والعشرين . يتنفس العافية . حلق شعر رأسه من الجنين ، وترك ما يشبه الخصلة تتدلى على جبهته . وجهه أسمر ، تكسوه ابتسامة طفولية ، وعيناه صاحبتان ، وأسنانه مفلجة ، وتنتهى ذقنه بلحية صغيرة ، مدببة . فى ظهر يده أثر حرق ، أو كى بالنار . يرتدى جلباباً أزرق بياقة مفتوحة . يبدو الصديرى المخطط من فتحة الجلباب . فك الأزرار الكثيرة المتقاربة ، ففرت غابة الشعر الكثيف . يضع على كتفيه شالاً مزين الأطراف .

لاحظ حيرة الحرفيين وأبناء الطوائف وعوام الناس . تشتتت ولاعاتهم وانتماعاتهم

إلى أمراء ومشايخ وعلماء ووجهاء ونوى نفوذ . أزمع أن يجمعهم فى اتجاه التخلص من الفرنسيين . لا شأن لما يفعلون بشخص ، مهما علا مركزه أو رتبته . التخلص من غزوة الفرنسيين ، خطوة وحيدة ، لا صلة لها بانتماعات تالية. خروج الفرنسيين مسئولية أهل مصر ، يسبق ما عداه من انتماعات الدين والجماعة .

قال الشيخ المقدسى :

- دخولهم بالنعال تدنيس للجامع ..

قال المعلم شريحة :

- لماذا يدخلون الجامع من أصله ؟

ثم وهو يفتصب ضحكة :

- أعلن القائد العام للفرنسيين اعتناقه الإسلام ..

قال الشيخ المقدسى :

- هل احتفظ باسمه المسيحى ؟

قال المعلم شريحة :

- لا .. هو الآن على يونايرت ..

قال الشيخ المقدسى :

- هل قاد حملة عسكرية إلى مصر ليعلن إسلامه ؟

قال مختار الرمادى :

- إذن علينا توقع إمامته للمصلين فى الجامع الأزهر ..

قال طلبة أبو سليمان الكتبى بالصنادقية :

- لا تسخر من الرجل فهو - فيما أرى - صادق فى إسلامه ..

وأردف فى نبذة وثقة :

- عرفت أن القانون الذى جاء به من بلاده من فقه الإمام مالك..

قال التاجر عفيفى عبد المولى :

- أصدقك .. رأيت بنفسى فى اجتماعه بالمشايخ يكثر من نطق الشهادتين .

كان الرجل يعتز بمكانته بين تجار خان الخليلى من الأتراك والفرس ، تقتصر تجارته على البن اليمنى .

قال الشيخ المقدسى :

- المصيبة أننا لم نقلد الفرنسيين إلا فى خلق الذقون !

تهياً المعلم شيحة للقيام من موضعه :

- ربما لزم الجامع العتيق فى أيامى الأخيرة ..

ورفع أعلى صدره :

- يطير الجامع بمصليه إلى الجنة ..

أهمل نظرة الدهشة فى عيني الشيخ المقدسى :

- هذه أمنيته .

لم يعد المعلم شيحة يصبغ فوديه بالحناء . حتى شعر حاجبيه أهمل صبغه . أحاطت بوجهه دائرة من البياض . وكان يرتدى القفطان ، يتدلى إلى كاحل القدمين ، ويضع فوق رأسه طربوشاً أحمر ، أحاطه بطيات من القماش الأبيض ، تتحول إلى عمامة ، ويدس قدميه فى خف مغربى . حفظ الكثير من الأنكار والأوراد والأقوال الشريفة . تحدد يومه بمواعيد الصلاة . يصحو لصلاة الفجر ، وينام عقب صلاة العشاء ، ويقسم أوقات نهاره بين مواعيد الصلاة فى الظهر والعصر والمغرب ، ويتحدث عن أمنيته فى أن يرحل - على قدميه - إلى الأراضى الحجازية . يؤدى فريضة الحج ،

ويزور قبر النبي ، ومقابر آل البيت والصحابه والتابعين . وكان يتردد على سوق المسكة عقب صلاة الجمعة . يشتري ما يحتاجه البيت من الدجاج والأوز والحمام ، ولحم الماعز والضأن ..

فصل

تعاظم شر جند الفرنسيين وفسادهم . استولى الجنود على الكثير من المراكب التي تنقل البضائع فى النيل . جعلوا من أخشابها وقوداً للتدفئة . وكانوا ينزلون على البلدة . يطلبون الأموال والغرامات العينية . يعطون موعداً بالساعات . إذا انقضت دون أن يفى أهل البلدة بما هو مطلوب ، بادروا إلى إشعال الحرائق ، وإلى النهب والسلب . قد يقبضون على شيخ البلدة ، يضربونه ، يسحبونه معهم فى الجبال ، يذيقونهم أنواع التعذيب ..

استطالوا على أهل القاهرة ، وعسفوا بهم . اعتاد الناس نزول الجند إلى الشوارع والطرقات والأسواق ، ينهبون الدكاكين ، ويخطفون عمائم المشايخ ، وينالون المارة بالأذى والتنغيص ، ويفتكون بمن حاول زجرهم أو مقاومتهم . أظهر الناس استيائهم من المسابقات التي يجريها الجنود الفرنسيين على ظهور الحمير . تقتحم بالرعب نفوس المارة والمقعدين .

شارك الجنود الفرنسيون الجعيدية والأوباش سلب بيوت الأمراء والوجهاء والأعيان ونهبها . أغلق التجار والحرفيون محالهم ، ولاذ الناس بالبيوت . فتح الجنود - بالقوة - دكاكين سوق السلاح ، واستولوا على معظم ما بها . بدا البحث عن الأسلحة المخبأة ذريعة لنهب بيوت الممالك وأولاد الناس . أخرجوا سكان قلعة الجبل من بيوتهم . أنزلوهم إلى المدينة ، وسكنوا بدلاً منهم . طردوا أهل القاهرة من دورهم لحاجة الجنود إليها . أخذوا ما بحوزتهم من الجياد والجمال والحمير والدواب . حطموا الكثير من البيوت والوكائل والدكاكين ، ونهبوا ما لا يدخل الحصر من البضائع والأمتعة

والأموال . اقتحموا بيوت الأمراء . أخذوا ما استطاعوا حمله من الأثاث والمشغولات الذهبية والنفائس والمؤجرات والستائر والسجاجيد والنقود والثياب والأقمشة . تركوا الأبواب مفتوحة . دخل النهابة واللصوص والأوباش . أتوا على البيوت تماماً . صارت مثل الأرض المجذبة .

أمر بونابرتة ، فعلقت أعلام الفرنسيين على الكثير من الدور التي يخشى أصحابها الأذى ، وعلقوا مكاتبات أمان على دور أخرى .

وطأهم الفرنسيون ، وأنقلوا كواهلهم بالضرائب والمصادرات . طلبوا من التجار سلفة مقدارها خمسمائة ألف ريال . أظهر التجار عجزهم عن دفع المبلغ . تدخل كبار المشايخ والأعيان بالشفاعة اللازمة . خفض الفرنسيون إتاوتهم إلى الضعف ، وحددوا أياماً - كمهلة - لدفع النصف الباقي . فرضوا المبالغ الطائلة على أهل الحرف وتجار الأسواق كقروض مؤجلة الدفع ، وما لا قيل لهم على احتماله من المكوس والضرائب . وضاعفوا الضرائب على الحمامات والخانات والوكائل والمعاصر والسيارح والحوانيت والأسواق ، وعلى حالات نقل الحياة ، وجميع الأوراق الشرعية ، مثل صكوك الزواج والوصايا . ألصقوا أوراقاً بهذا المعنى على المفارق والطرق ورعوس العطف وأبواب الجوامع . أرسلوا نسخاً منها للأعيان . ألزموا التجار بالحصول على رخص لقاء مبالغ مالية ، واخترعت ضرائب للتسجيل والممتلكات . عينوا المهندسين ومعهم أشخاصاً لتمييز الأعلى من الأدنى ، وشرعوا في الضبط والإحصاء . لولا الخشية من غضب تغمض نتائجه ، ما ترددوا في فرض الضرائب على الجوامع والتكايا والأضرحة .

تواترت المصادرات ، وحل بالناس ما لا يوصف من المظالم . أنكروا أحكام المواريث . لا شيء يحصل عليه ورثة الميت ، وإنما اعتبر الفرنسيون أنفسهم هم الوارث الوحيد ، يصادرون الأرض والعقارات والأموال ، فلا يبقى لورثة الميت إلا ما يقيم أودهم . أذلوا أغنياء الناس وفقيرهم بكل ما أسعفتهم به الحيل . زاد الفقراء فقراً ، ولم يعد الأغنياء يملكون قوت أيامهم . ارتفعت الخلائق ، واستبد بهم الخوف والفرزع . أسرفوا في وضع قواعد من الخبث ، وأسس من الكفر ، ودعائم من الظلم ، وأركان

من البدع السيئة . أقبل جنودهم على أنواع المكولات مثل الكلاب المسعورة ، فتضاعفت الأسعار . مسحوا أثر الفائط بأوراق المصاحف ، وقذفوا بها ملطخة في الطريق والمراحيض .

أعدموا رجلين بتهمة التجسس لصالح الممالك ، وطاقوا برأسيهما وهم ينادون بالقول : هذا جزاء من يخدم الممالك !

فصل

ظلت الأسواق مغلقة ، وتوقفت حركة البيع والشراء . ارتفعت الخلائق ، واستبد بهم الخوف والفرع . عانوا من توقع الآتى ..

جعل الفرنسيون القلعة لضباطهم وجنودهم . أحاطوا جوانبها بمدافع تتجه فوهاتنا نحو القاهرة . هدموا جامع أبى هريرة بالجيزة ، والجامع المجاور لقنطرة الدكة . وهدموا - بدعى تحصين القاهرة - الكثير من الدور والبنائات الأثرية والأسوار والجدران والمساجد والزوايا والخانقاوات .

دمروا قصر يوسف صلاح الدين ، وما خلفه الملوك والسلاطين . شوهوا قصر الملك الناصر محمد بن قلاوون . بدلوا معالم باب العزب بالرميلة ، ومحو ما كان به من آثار السابقين ، وسلبوا الأسلحة والورق والبلط والخوذات والحرايب الهندية . أحاطوا القاهرة بالقلاع ، فوق التلال والأماكن المرتفعة . أزالوا بنايات ومواضع كثيرة . أقاموا فى مواضعها ما يسهل لهم حسن القيادة ، والتصرف فى الأمور ، والمحافظة على أمن جنودهم .

هدموا البنائات المقابلة لبيت الألفى ، فظهر ميدان متسع المساحة . هدموا بقية الدور ، وقطعوا الأشجار ، وأزالوا تلال الأثرية بما يمهّد طريقاً من بيت القائد العام إلى قنطرة المغربى ، ومنها إلى بولاق . وحفروا على كل جانب خندقاً . كما غرسوا شجر السيسبان بامتداد الطريق .

أفربوا فى بىء حسن الكاشف جملة كبىرة من كتبهم ، علىها مبالرون يحفظونها ، وىأتون بها للطلبة ، ومن ىرىبون المراجعة ىجبون فىها مرادهم . ىجتمع الطلبة منهم ساعتىن بعد ظهر كل يوم . ىجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب ، على كراسى منصوبة ، موازىة لسبورة عرىضة مستطىلة . من ىرىء المراجعة ىطلب منها ما ىشاء . ىحضرها له الخازن . ىتصفحون ، ىراجعون ، وىكتبون . حتى أسافلهم من العساكر ، إذا أراد المصرىون الفرجة لا ىمنعونهم من الدخول . ىتلقونهم بالبشاشة ، وإظهار السرور . ىحضررون لهم أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاویر وكورات البلاد والأقالیم .

فصل

أفلح الحاج أبو بكر باشا وأمراء الممالىك وأتباعهم ، وأعداد كبىرة من أهل مصر ، فى الانتقال من الصالحىة - عبر صحراء سىناء - إلى غزة .

بدأ عبور باقى جند الفرنسىین من الجىزة إلى القاهرة . أسروا أعداداً كبىرة من غلمان أمراء الممالىك وجوارىهم وزوجات بعض الكشاف وأتباعهم ممن لم ىرافقوا المغادرین للقاهرة . تشفع كبار المشایخ والأعیان فى الأسرى ، فلا نذب لهم ولا جریرة . أعتقهم بونابرت - مراعاة لخاطر من قصدوه - وشدء على جنءه ، فلا ىقدموا على الأفعال القبیحة ، ولا ما ىضیر النفس والمال .

فازت النساء بالحياة وءءها ، ءون أن ىحصلن على ما ىستر أجسادهن ، أو ىسكت صراخ بطونهن . تجمعن فى صحن الأزهر ، حاسرات الرؤس ، حافیات ، ىسألن أهل الخیر ما ىحفظ علیهن الحياة .

فصل

واصلت قوات الفرنسيين سيرها - عبر الخانكة وأبى زعل - إلى مديرية الشرقية .
أرادت أن تمنع محاولات جميع الأمراء الفارين لصفوف فرسانهم ، بالإضافة إلى
الاتفاق مع بدو الصحراء ضد العدو المشترك ، واستولى الفرنسيون على بلبيس دون
قتال ، وواجه الفارون من لصوص البدو ما يخطر ، وما لا يخطر ، على البال من ألوان
السرقه والنهب والاعتصاب . لما اشتكى المنهوية أموالهم وأمتعتهم للقائد العام ما حدث
لهم على أيدي لصوص البدو ، قال لهم فى لهجة مؤنبه :

- ولم رافقتم الأمراء إلى المنصورة ؟

أمر ، قاعيد الجميع إلى القاهرة - وكان من بينهم كبير التجار أحمد المحرقى -
تحرسهم طائفة من فرسان الفرنسيين ..

فصل

زار بونايرت - بصحبة عدد من أعوانه - جامع السلطان حسن ..

تأمل القبة والمنذنتين والصحن الواسع والرخام والزخارف على الأرض والجدران ،
وأشغال الخشب والبرونز فى الأبواب والأفاريز المعدنية ، وتموج الألوان ما بين أزرق
سماوى وأخضر وذهبي وأحمر ، وأشكال الزهور والتكوينات التى تحاكي النبات ،
والمصابيح المتدلية من القبة . زار - فى الأيام التالية - ترافقه الدهشة - جوامع :
الحسين والسيدة زينب والأزهر والسلطان حسن وشيخون والإمام الشافعى والمشهد
الحسينى ومسجد كتحدا بالأزبكية ومسجد الملكة صفية ومسجد البردينى وجامع محمد
أبو الذهب وكسوة الكعبة ومستشفى قلاوون والقلعة والأهرام وأبو الهول والجيزة
والروضة والمقياس ومصر القديمة والأديرة ..

أطل القائد العام على القاهرة من فوق القلعة . الوادى أمامه حتى أهرامات الجيزة . يمتد الأفق بعده - إلى نهايته - فى الصحراء الليبية ..

أقام الفرنسيون فى الناصرية ، دار الأمير شركس ، مملوك محمد بك أبو الذهب اتخذوا من القلعة موضعاً لنصب مدافعهم ، وبثوا جنودهم فى الحصون والأبراج والمزاغل ، وأمروا سكانها بترك دورهم ، والنزول إلى المدينة للسكنى بها . غيَّروا ملامح القلعة ، وشوَّهوا معالمها ، ومحو ما كان بها من آثار الحكام السابقين . شددوا فى طلب الأسلحة ، والبعد عما يسيء إلى عسكر الفرنسيين . كل من يقاوم القائد العام فهو مقاوم حدود الله ، ولا بد من أن يدان . نادوا بذلك فى الميادين والأسواق ، وألصقوا منشورات على جدران الجوامع ومقارن الطرق . ونودى بوضع العلامات المعروفة بالوردة . دليل الطاعة والخضوع . ثمة من رفض ، وثمة من وجد فيها ما لا يخل بالدين . الموافقة بالإكراه تدخل فى إطار التقية ، اتقاء الضرر والأذى بلا مقابل يناله المرء .

خلع بونا برت على مشايخ قبائل العربان فاخر الخلع ، وأهداهم الجياد المسومة . قىض لكل منهم خراجاً يليق بمكانته ، ويغرى قبيلته بتقديم واجب الخضوع والاحترام .. وقع قانوناً يقضى بالقبض على جميع الناس الذين يسألون الناس فى الطريق ، ويطلبون الحسنة منهم ، وإحضارهم أمام ضابط مصر ، ثم ترحيلهم إلى سجن القلعة ، ما لم يكونوا من أصحاب العاهات كالعميان والعرجان والعاجزين عن العمل . كما يقضى القانون بأن تعمل كل ملة من الإسلام والنصارى ، أروام وقبط وشوام ، ومن اليهود أيضاً ، حانوتاً لقبول كافة العميان والعرجان والشحاذين والعاجزين عن الشغل ، يكون معداً لهم ، وأن يلتزم كل رئيس ملة بلوازم حانوته ، وكافة مصاريف الحانوت من نفقة الأكل والشرب وغيرها ، وأن يجمع كل كبير ملة فقراء ملته ، فيرضيهم ، ويعطيهم لوازم الأكل والشرب والسكن ، بما ينهى تدبير الحوانيت المذكورة ، واستكمالها ..

نظر أهل القاهرة بضيق إلى إقدام الفرنسيين على تدمير البوابات ، وفتح الأحياء . أراؤوا منع إغلاق الدروب ، وإيقاف المواصلات . وجد الناس فى ذلك انتهاكاً لما ألفوه من الجيرة المحددة والصداقة والتكافل .

قسمت القاهرة إلى ثمانية أقسام . ترأس كل قسم منها ضابط فرنسى ، يسمى القومندان ، أو حاكم الخط . أوكل لمشايخ الحارات حفظ الأمن فى مواقعهم .

أمر القائد العام ، فأنشئت لجنة لإدارة الشؤون الصحية فى القاهرة ومصر القديمة وبولاق ، ووضعت لوائح لنظافة المدينة ، فبدأوا الأهل على الكس والرش وتنظيف الطرق من الأوساخ . ونفذت الأوامر بدوام تنظيف الشوارع ، وإمالة الأذى عنها ، وإزالة العوائق منها ، وتحسينها ، والإكثار من بيوت الخلاء العامة فى الأحياء المختلفة ، حتى لا تتلوث الأسواق والشوارع والميادين . وجعل القائد العام فى كل حارة امرأة تغشى البيوت ، تفتش عن سكانها ، وما إذا كانوا يغسلون ثيابهم ، أم يتركونها على حالها ، فتزيد فرصة الأمراض والأوبئة . حظر على الناس رفع الملابس المنشورة على حبال الغسيل قبل ثلاثة أيام من غسلها ، وطولبوا بتطهير داخل البيوت وخارجها ، وتخيرها بالبخور الطارد لرائحة العفونة . أمر القائد بأن يدفن الأهل موتاهم فى المقابر البعيدة ، وينشروا الثياب والأمتعة فوق الأسطح أياماً متوالية ، وتخير البيوت بالمطهرات ، فتتطهر من أذى الطاعون . عينوا لكل حارة امرأة ورجلين ، يدخلون البيوت للكشف عن صحة نشر الثياب ، فتذهب العفونة الموجبة للطاعون . بدأ القواسمة من خدم الفرنسيين فى هدم المراقد والمزارات فى تربة الأزبكية . انطلق أهل الموتى كالجراد من حارات المدابغ وبياب اللوق وكوم الشيخ سلامة والفوالة والمناصرة وقنطرة الأمير حسين وقلعة الكلاب . تجمعوا - بالضجيج والصياح - تحت بيت القائد العام . نزل إليهم التراجمة . اعتذروا بأن القائد العام لا علم له بما حدث ، وأنه أمر بمنع الدفن فقط ، فعادوا إلى بيوتهم مطمئنين .

فصل

ظل أهل الإسكندرية ليلهم فوق الأسطح وخارج البيوت . يتابعون أضواء المعركة فى خليج أبو قير بين الفرنسيين والإنجليز . لم تهدأ أصوات دوى المدافع ولا الانفجارات إلا بعد ظهر اليوم التالى .

عندما لاح خليج أبو قير أمام الأسطول الإنجليزي ، كان الأسطول الفرنسي راسياً بأكمله فى الخليج ، وكان نابليون بونابرت فى القاهرة .

ارتفع دوى المدافع . حجب الدخان صفحة الماء ومرئيات البحر . تعالت النيران والصرخات والحشرجات . اختلطت السفن ، فلم يفتن البحارة أن كان ما وجهت إليه مدافعهم من سفنهم أم من سفن الأعداء .

دمر أسطول الإنجليز كل ما كان يضمه أسطول الفرنسيين من سفن . غاص فى أعماق البحر أربعة آلاف قتيل فرنسى ، ودمر أسطول الحملة عن آخره . حتى السفن العشر التى سلمت من الفرق ، رفعت الأعلام البيضاء مستسلمة . حتى الكتوز التى قدم بها الفرنسيون من مالطة ، ابتلعها المياه . وصل إلى الشاطئ أقل من ثلاثة آلاف بحار ، من أصل ثمانية آلاف . قتل الآخرون ، أو أسروا .

لم يعد بمقدور الفرنسيين أن يتحركوا خارج مصر خطوة واحدة . سدت السبل أمامهم تماماً ، حوصر أفراد الجيش البرى ، فهم أشبه بالأسرى ، أو المحاصرين ، فى داخل مصر . قطعت جميع الاتصالات مع بلادهم : البريد والتموين والنجدات العسكرية والأموال . ألغيت كل احتمالات العودة . بدت العودة إلى فرنسا - أمام الضباط والجنود - احتمالاً واهياً . لم يعد نابليون يملك توقعاً للحاضر ، ولا خططاً للمستقبل .

قال نابليون لضباطه فى نبرة مهوثة :

- لم يعد لدينا أسطول ؟... حسناً . فلنمت هنا ، أو نخرج عظماء مثل السابقين . ما حدث سيدفعنا إلى فعل أشياء لم نعد أنفسنا لها !

ووشى صوته بانفعال :

- ما حدث يحرضنا على أعمال مهمة . حلم إمبراطوريتنا العظيمة قائم ، علينا أن نقرّب يوم تحقيقه . نحن لم نعد سادة البحر ، ولم يعد البحر بالتالى يصلنا بالوطن .. لكن البحر لا يفصلنا عن آسيا وإفريقيا ، ولدينا من الرجال ما يشكل نواة جيش

الباب الثالث

فصل

نادى الشيخ خليل البكرى على الخادم فياض .

دلى الخادم الدلو فى البئر . عاد به إلى الشيخ لوضوء ما قبل صلاة الظهر . ثم قدم بإبريق الماء والطست الصغير والمنشفة .

- زينب .. متى عادت من الحمام أمس ؟

قال فياض وهو يغالب ارتباكاه :

- لم يكن أذان المغرب قد ارتفع فى جامع الشيخونية ..

- ألم تصحبك مع خدمها ؟

قال الخادم فى ارتباكاه :

- نعم .. كنت مع خدمها ..

ارتدى الفراجية ، جبة واسعة طويلة الأكمام ، أكمامها غير مشقوقة . وضع على رأسه عمامة ، فيها علامة خضراء بارزة للخاصة والعامّة ، دلالة على النسب الشريف لآل البيت . لأسرته مكانتها المتوارثة . تنحدر من فاطمة ، ابنة النبی ، وعلى وأبو بكر وعمر خلفاء رسول الله . البكرى والسادات هما رئاسة الأسر الشريفة فى مصر . فى ١٧٩٣ مات السيد محمد البكرى نقيب الأشراف ، وشيخ السادة البكرية . لم يخلف ذرية ، فورثه فى مشيخة البكرية خاله ، السيد خليل البكرى . نقابة الأشراف تولاهما السيد عمر مكرم أفندى الأسىوطى ..

أبلغه تلاميذه بما يتردد فى الأسواق من أن الناس يلجأون إليه لبعض المقتضيات والشفاعات ، فيخذلهم . وأنه استهوته لذائذ الدنيا ، ففاق مستوى معيشتة ما عليه

أمراء الممالك . يضخم من حجم عمته ، ويوسع كميته ، ويحمل الكتب بين يديه ليبدو في هيئة المعلم . يعشق - في الوقت نفسه - ملمس الحرير ، ويتجمل بالجواهر ، ويضع على مائدته أطيب الطعام وأجود الخمر ، ويضفى العز على آل بيته . ويضيف إلى حياة اللهو والبذخ الماء الفاتر ، والستائر المسدلة ، وضوء الشموع ، وضحكات الصبايا ، والبخور الزكي الرائحة ، ويعرف الفرق بين الأنوار والألحان والبشارف من عزف الفرقة الموسيقية التي ترافق نغماتها تناوله للطعام في بيت الأزيكية ، وقيل إنه يكثر من اقتناء الممالك والجواري البيض والسود والصفراء والأحباش ، ومن القوقاز والأهواز ، واقتناء العبيد والخدم ، وأنه هجر مجالس العلم ، وانشغل بسماع الملاحى والأغاني والقيان والآلات المطرية ، وشوهد - وقد استغرقتة نشوة الطرب - يردد الألحان ، ويتصايح ، وينقر بأصابعه على نغماتها . ربما شق جيوبه ، وألقى بعمته . وكان يديم التنزه - مع أصدقائه - في قارب بالخليج ، يصحبهم موسيقيون يعزفون ما يطرب .

استبعد من خلافة أخيه في خلافة مشيخة البكرية ، لاتهام بالرعونة ، وارتكاب أمور غير لائقة ، وأنه ليس أهلاً لمشيخة السجادة . حصل ابن عمه محمد على المنصب ، بينما حصل عمر مكرم على قيادة نقابة الأشراف . لم يحصل هو على قيادة المشيخة إلا عند موت ابن عمه .

من حقه أن يلحق زمنه .

لم يحقق ثروة كذلك التي حققها سلفه الشيخ محمد في أثناء توليه مشيخة البكرية ، وحصل المشايخ الآخرون - قبل مجيء الفرنسيين - على مكاسب يحتاج إلى تدبير سنوات ليقتررب منها . هو نفسه الأستاذ الإمام ، صاحب الأسرار ، وخاتمة سلسلة المختار ، الشيخ خليل البكرى شيخ سجادة السادة البكرية ، ونقيب الأشراف . من حقه الإشراف على جميع الطرق والتكايا والجوامع والمساجد والزوايا ومقامات الأولياء .

استعاد بيت الأزيكية بأكمله . قسم الأمراء البيت إلى نصفين ، أحدهما له ، والثانى لأحمد البكرى . أعاد عمارته وزخرفته ، وألحق به بستاناً فيه أشجار برتقال

وزينة وورود ورياحين . اقتنى الجوارى والخدم والخصيان والعبيد ، لأن ذلك ما كان يفعله سراة العصر ووجهاءه . لم يكتف البعض بما يقتنى من جوار ، لكنه انساق لرغبته فى استجلاب نساء لم تضمهن ، ولا مثلهن ، قصور العلماء والوجهاء الآخرين . يوصى بالجوارى البيض فى وكالة كشك وخان جعفر . يرفض التردد على وكالة الجلابة بالصنادقية ، أو وكالة الرقيق بالقرب من خان الخليلي . تقتصران على العبيد المجلوبين من إفريقية . يطيل التحديق إلى جسد الجارية . يدفعها إلى نزع ملابسها . يفتح فاهها ليشاهد أسنانها ، يتابع خطوطها متمهلة ، ليتعرف على تماسك صدرها .

إذا كان قد كتم خوفه على التزاماته : خمس قرى فى الشرقية والمنوفية والجيزة ، فإن ذلك ما فعله شيخ السادات فى خوفه على قراه العشرين ، والشيخ عبد الله الشرقاوى فى قراه الست ، والشيخ محمد المهدي فى قراه الإحدى عشر ، ومشايخ آخرون ، شغلتهم التزاماتهم فى امتداد القرى المصرية ، وحرصوا عليها ، وخشوا أفعال الحرافيش وما قد تثيره من غضب الفرنسيين ، فيمتد أذاهم إلى ما كان يصعب التصور أنه يصل إليه . إذا كان قد امتلك معملًا لتقطير صناعة الخل ، ودكانًا للزبيب ، وآخر لطحن البن ، ويضعة مخابز ومقاه ، ومتاجر لبيع الغلال ، وأجرى صفقاته المعلننة مع تجار الجملة والتجزئة .. إذا كان ذلك كذلك ، فإن الشيخ الشرقاوى ترك لزوجته أمواله ، تستثمرها له ، وتشتري عقارات وبيوتًا للتأجير ، والسكن ، ودكاكين ، ووكالات ، وحمامات . اتسعت عليه الدنيا ، وزاد طمعه فيها . واستثمر الشيخ المهدي أمواله فى تجارة القطن والأرز والكتان ، وورث الشيخ مصطفى الصاوى مهنة السقاء من أبيه فى السويس ، قبل أن يعمل بالتجارة . ثم تولى التدريس فى المدرسة الصلاحية ، وفى جامع الأزهر ، وجرت عليه الدنيا بما لم يكن يتوقعه من أموال وعقارات وأراض زراعية .

أهمل حتى ما نقل إليه من أن علماء الدين يأخذون الجعالات والهدايا من أصحابها ، ومن فلاحيههم ، تحت حمايتهم ، ونظير صيانتها ، واغتروا بذلك ، واعتقدوا

به ، وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين بدون القيمة ، واقتنوا بالدنيا ، وهجروا مذاكرة المسائل ، ومدارسة العلم ، إلا بمقدار حفظ التاموس ، مع ترك العمل بالكلية . وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد أمراء الممالك ، واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان ، وأجروا الحبس والتعذيب والضرب . اعتاد الخدم رؤيتهم فى الحمامات العامة أوقات منع الدخول ، وفى دور الجوارى وأجنحتهن . صار دينهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية ، والحصص ، والالتزام ، وحساب الميرى ، والفائض ، والمضاف ، والرماية ، والمرافعات ، والمراسلات ، زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور ، وحفظ الأنفس على الأشياء الواهية .

حتى الشيخ محمد أبو الأنوار ، شيخ السادات ، قلد أمراء الممالك فى أساليب حياتهم ، وفى إقباله على شراء الممالك والرقيق ، وقلدهم فى لباسهم ، وابتعد - بالتالى - عن زى المتعممين والفقهاء والقراء . يضح قصره المطل على بركة الفيل بالعز والأبهة . قاعة " أم الأفراح " الهائلة ، المزدانة بالنقوش الذهبية والقيشاني والرخام الملون . المكتبة الهائلة تضم أرففها مئات المجلدات والمخطوطات فى علوم الدين والأدب والتاريخ ، وأنواع المأكول والمشرب والملابس والعطور والمقويات ، والعشرات من الجوارى والعبيد والممالك والخدم والخصيان ، والعديد من الأسطبلات الواسعة ، تمتلئ جنباتها بالجياد العربية الأصلية ذات السروج المزينة بالذهب والفضة ، والحدائق الزاخرة بألوان الزهور والرياحين والثمار . وثمة مسجد ملحق بالقصر ، يؤدى فيه الشيخ صلواته مع المقربين إليه ، فلا يضطر إلى ترك أسوار القصر . يترفع على أقرانه من العلماء والوجهاء ، ويميز نفسه عليهم بقاووق بعمامة خضراء ، مشابهة للأمراء ، ومخالفة للمعممين والفقهاء والمقرئين . يؤدى دور مسئول الشرطة من حيث العفو والإدانة والقضاء بالضرب والجلد . كان أتباع الطرق الصوفية : الأحمدية ، السعدية ، الشيعية ، يتقاطرون تحت نوافذه فى أيام الأعياد والمناسبات الدينية . زاد ، فحضر خطباء الجمعة على مديحه ، والثناء عليه . لم يبق إلا أن يقول الخطيب بعد كل صلاة : اركعوا ، واسجدوا ، واعبدوا شيخ السادات !.

منحته دولة الخلافة إقطاعاً واسعاً فى زفتى ، وأعفته من كافة أنواع الضرائب .
عهد إليه بإدارة المشهد الحسينى ، وجامع السيدة نفيسة ، وجامع الإمام الشافعى .
جنى من صناديق النذور والصدقات والزكوات ثروات طائلة . حتى مولد الحسين - الذى
تولى مسئوليته - جنى منه أضعاف ما أنفق عليه . لم يكن يجد حرجاً فى ضرب كبار
موظفى الدولة إن أهملوا تنفيذ مطلب له . وكان يستدعى إلى بيته من تتغير عليه نفسه ،
أو يريد عقابه لأمر ما . يؤذيههم بالضرب والشتيم والإهانة . ربما فرض عليهم الحبس
والضرب بالكراييج ، أياماً متواصلة .

لم يحاول الشيخ محمد المهدى إدارة علاقته بالفرنسيين . يجتمع بهم فى العلن ،
ويواصلهم ، ويصادقهم ، ويساعدهم على أداء ما يطلبونه ، ولو على حساب الناس .
هو ابن قبلى ، تحول إلى اعتناق الإسلام ، بعد أن رياه الشيخ الحنفى الشهير - مع
أولاده - وسهر على تعليمه . تأكدت شهرته منذ بدأ التدريس فى الأزهر ، وتحققت له
فوائد كثيرة من رواتب الوظائف . زادت ثروته ، ورغبته ، وسعيه فى أسباب تحصيل
الدنيا ، وعاین الشركات والمتاجر فى كثير من الأشياء ، مثل الكتان والأرز وغير ذلك .
صرفه هذا الانهماك فى أطماع الدنيا عن التفرغ للعلم . ولم يكن يصبر على دروسه
بالجامع الأزهر . وكان يهمل فيها ، مع أنه لم يكن يدرّس إلا يومين كل أسبوع ..

مسح المكان بعينين متأملتين : الفرش الفاخرة ، والوسائد ، والطنافس ، وأنواع
الأحمال ، والقناديل ، والزينة ، والأرضية ذات الرخام الملون ، والشمعدانات ، والنجف
المطلى بالذهب والفضة ، والشموع ، والفوانيس ، ومجامر البخور ، ورائحة المسك .
والجدران المكسوة بالبلاط القيشانى والمعلقات : السيوف ، والخناجر المذهبة ، والآيات
القرآنية ، والمرايا الهائلة ..

أهمل كل شائعات الأسواق والجوامع والحمامات والحجرات المغلقة ، وإن داخله
توجس من مؤاخذة الناس على تداخله فى الفرنسيين ، واستقباله لهم فى بيته . حتى
أولاد الناس والعوام من أهل البلد لا يقابلون زوارهم فى البيوت . مقابلات أرباب
الطرق فى الحضرة ، أو فى حلقة الذكر ، أو عند مقام الولي . ثمة لقاءات فى الأعياد

والموالد ، هى المضى إلى ضواحي المدينة ، فى الخلاء والصحراء والقرى القريبة ..

الاتهام بأنه يعمل فى خدمة الفرنسيين ، يشحب فى ممالأة الشيخ الشرقاوى لهم .
نقم فى نفسه تفضيل الشرقاوى عليه لتولى مشيخة الأزهر ، لكنه ظل على علاقة طيبة
مع أمراء الممالك . رضى عنه الفرنسيون ، فجعلوه رئيساً للديوان ، وخصصوا له
المعلوم المرتب ، وقبلوا شفاعته - التى تقاضى عنها أجراً - لأفراد من الممالك ، وسكتوا
عن استيلائه على تركات وودائع ، تركها أصحابها ، وفروا من الفرنسيين . نشأ فى
بيئة فقيرة ، أقرب إلى الوضاعة . كان نادراً ما يطبخ فى بيته . تدنت نفسه ، فقبل
الهدايا والصلوات والزكوات . ثم ارتقى حاله حتى أصبح شيخاً للجامع الأزهر . انقلبت
حياته من يومها . أفاد من حق النظارة على الأوقاف المخصصة لأروقة الأزهر وجامعه ،
وتعددت رواتبه من موارد مختلفة ، مثل أوقاف مكة والمدينة ، والتزم ببيع بعض القرى فى
مديرية الشرقية ، حيث ولد ، ونشأ .

تواصلت رئاسته فى الديوان العمومى ، والديوان الخصوصى . أصبح - بفضل
الفرنسيين - متمولاً كبيراً . تخصصت زوجته فى إدارة أمواله واستثمارها . اشترت
عقارات وبيوت وحمامات للتأجير ، وبنيات للسكنى ، تدر عليه إيجاراتها دخولاً مهمة
كل شهر . أقبلت عليه الدنيا بما لم يكن يتصور هو نفسه . اشترى العقار والأموال
والحمامات والحوانيت . غلت عليه إيرادات شهرية ، أتاحت له العيش فى رغد . صار
يلبس أفخر الثياب ، ويأكل الطعام الساخن مما يعده الخدم فى بيته ، وينام على سرير
وثير ذى أعمدة ، ويمتلك من الأموال ما يفرض عليه الدين أن يدفع الزكاة عليها . داره
على بركة الأزبكية . مملوءة بالتحف النفيسة ، والكتب النادرة المجلدة . تحدد عالمه فى
القصور ومجالس القائد العام والجوارى والعبيد والأغوات والقماقم والمباخر والعز
والأبهة . خص نفسه بأعوان وأتباع وخدم من خواص الناس ، تمييزاً لمكانته بين
الآخرين . يسيرون من أمامه وحوله ، بأيديهم العصى يوسعون له الطريق . إذا كان
الناس يوقرونه لمواقفه ضد مظالم الممالك ، فإن صوته هو أيضاً قد ارتفع برفض ما
وجد فيه أذى للناس .

أفاد الشيخ المهدي من أيام الفرنسيين بما لم يتحقق لأحد سواه . برر للفرنسيين احتلالهم بأنهم لم يأتوا إلا لطرد المالك ، بعد أن نهبوا الأموال . لا يتعرضون للرعايا في شيء . تركوا له أمر الكثير من البلاد والعباد والأرزاق . يسروا حصوله على هدايا الفلاحين من الأغنام والماعز والجمال والخيول والعسل ، لقاء قبول الفرنسيين شفاعاتهم ، ورفع العقاب عنهم ، وتخفيف ما يفرض عليهم من الغرامات . حتى ممتلكات النازحين والموتى ضمها إلى ممتلكاته .

رفض القائد العام أن يسمى الجوردية باسم البكرية . هو الأولى بأن يطلق اسمه على الحارة بدلاً من جوذر خادم المهدي . جعل هذه الدار في الجوردية للزوجة والأبناء . داره بناحية الأزيكية موضع الاحتفالات التي يستضيف فيها القائد العام ، والاحتفالات المهمة . تطل على الخليج . القاعات الفسيحة ، كسيت جدرانها . أرضيتها من الرخام الملون والقيشاني . تطل على حديقة واسعة . ضاقت الدار والأماكن الملحقة ، بالهدايا والتقادم . بنى من المخازن والإسطبلات ما يسع المزيد .

ابتسم - بينه وبين نفسه - لتذكر تجربة كيميائية ، كأنها المعجزة ، أجراها أمامه العالم بيرتوليه .

قال للعالم الفرنسي :

- هل يتيح لك علمك أن تكون في مصر وفي المغرب في الوقت نفسه ؟

هز الكيميائي الفرنسي كتفيه دلالة النفي .

قال البكرى :

- أنت لست ساحراً حقيقياً !

فصل

لاح النور في أسفل السلم . رأت من موضعها على السرير الجارية زمردة تمد يدها بالقنديل في يد ، وبمجمرة البخور في اليد الثانية ، وتصعد بخطوات واهنة ،

وترنو بجانب عينها إلى الحجرة . ظلت زينب فى موضعها ، حتى دخلت زمردة . علقت القنديل على الجدار ، ودارت فى الحجرة بالمبخرة وهى تردد آيات قرآنية وأدعية ..
لصق الجدار سحارة هائلة للثياب من خشب الصندل ، ذات أدراج ، وتحيط بإطارها نقوش صغيرة ..

رفعت زينب كتفها على مسند السرير ذى القوائم المرتفعة ، أزاحت الناموسية الشفافة ، ونزلت على درجتين من الخشب ..

راحت زمردة تمرر المبخرة فوق رأسها ، فى حركة دائرية ، وهى تتلو بعض الأدعية . كانت الأجراس الذهبية الصغيرة التى تدلت من الخلخال الذهبى فى ساقها ، تصدر وسوسة فى أثناء حركاتها ، وكانت زينب ترنو إلى ما لم تتبينه المرأة ، ولا زينب نفسها ..

كانت زمردة على صلة بأهل العوالم السفلية . تراهم رؤية العين ، وإن اختفوا عن أعين الناس ، وتتحدث عما كان ، وتتوقع ما سيكون . كانت تفسر الرؤى المقبضة ، والأحلام المخيفة ، والكوابيس . وكانت تصادق الجان . تراهم ، وتحادثهم ، وتدخل معهم فى أسئلة وأجوبة . لا ترى الأعين فى الهمسات ولا ارتفاع الصوت ما يقلق . يدركون أنها قد استغرقت فى أحاديثها مع الجان . ربما صرخت ، وشوحت بيدها . يطمئن أهل البيت إلى أنها طردت الجان من البيت . يعودون بعد غياب ، أو يأتى جان آخرون ..

لم تكن الجارية تعرف غير أسرة البكرى ، منذ اشتراها الجد الكبير . أجادت - فى صباها - الغناء ، وضرب الدف ، والنفخ فى الناي ، وعزف العود ، والتأود ، وهز الخصر . حفظت ما لا نهاية له من أحاديث الخوارق والحكايات ، وحكايات البشر والحيوان والطير والزواحف وعرائس البحر . أعطاهما خليل البكرى حريتها ، لكن إحساس الجارية لم يزايلها ، أو أنها لم تعرف ماذا تفعل بحريتها . لم تعد مجرد جارية . أصبحت واحدة من الأسرة .

لجأت إليها زينب . علمتها أصول الرقص . تغنى وترقص على ما تصدره
الجوارى من إيقاعات بآلات الطرب .

فصل

قالت زينب :

- لماذا تقتصر التقاليد علينا ؟ معظم النسوة لم يعدن مجبرات على التقيد
بالحجاب .

زوجات الفرنسيين وصديقاتهم - عرفت أن الزواج ليس شرطاً للعلاقة فى حياتهم -
يسرن فى الشوارع سافرات ، يركبن الخيل والحمير ، يطرحن الحشمة والوقار والمبالاة .
يملن إلى التبرج والخلاعة ، ينزعن نقاب الحياء بالكلية . يقضين الأوقات فى بركة
الآ زيكية ، تصحبهن آلات الطرب . وشردت فى الفراغ : أنا لا أفعل هذا .. أخرج
منقبة ، ولا أترك العربى إلا أمام المكان الذى أقصده ..

لماذا بيوت العلماء والأشراف من طبقته مغلقة على النساء ، لا يحاولن تركها ،
بينما ابنته تترك البيت فى أى وقت ، وتعود متى تشاء ؟

تغيظه تصرفاتها ، تفتقر إلى الحشمة والأدب . تفعل ما يحلو لها ، تهمل
الملاحظات والتحذيرات .

قال خليل البكرى :

- لكك تكثرين من الخروج بلا داع ..

اتجهت إليه بلامح منفعلة :

- أذهب إلى الحمام أو لزيارة صديقاتى ..

الحمام هو الحجة التى لن يردها أبوها إذا أرادت الخروج من البيت ..

- قللى من هذا التصرف فتسكتى الألسنة ..

كتمت رؤيتها له - كل ليلة - وهو يتناول شرب الخمر حتى يشمل ، وقوله لأحد أصدقائه : بوسع المرء أن يشرب الخمر ويضمن الجنة ، إن كفر عن فعلته بخمس دخله بدلاً من العشر المالكوف !. رآته - فى ليال كثيرة - من زيق باب حجرته ، يخلط زجاجات الخمر ، يظل يعب منها حتى يغلبه النوم ..

قالت الأم :

- أنا على ثقة من أخلاق ابنتى ، وإن كنت أوافقك على أنها إما أن تصحبنى أو تؤنسنى فى البيت ..

هدد البكرى بأن يأتى للخصى ، فيؤذيها بالضرب . هو يدرك أن المرأة من جهة العقل أخط درجة من الرجل .

اعترضت الأم على الفكرة :

- هل ترضى لابنتك أن يؤذيها خصى ؟

اختلج صوته بنبرة غضب :

- هل ترضين لمكانتى أن تؤذيها ابنتك ؟!

قالت الأم وهى تعدل على رأسها عمامة من الحرير ، مطعمة بخيوط من الذهب :

- لا ترهق البنت . إنها تعيش فى حجرة لا تطل على الجودية

كانت الأم أميل إلى الانزواء ، وإن أشاعت فى البيت حضورها القوى . لعينيتها بريق يشى بقوة شخصيتها . لم تكن تشكو علة أبداً . تظهر إحساسها بالمرض ، حين تخلط الأعشاب بالماء العادى ، أو ماء الورد ، وتدهن مواضع فى جسدها ..

لاحظت الأم - فى طفولة زينب - أنها تميل إلى الأفعال الغريبة التى ربما لا تتفق مع جنسها ولا سننها ، ومحاكاة الأولاد فى ألعابهم مثل المصارعة واللكم ، وتميل إلى العراك مع الأولاد والبنتات ، تحتفى بخوفهم من مكانة أبيها . تضربهم بما تصل إليه

يدها ، وتصرخ إن حاولوا الدفاع عن أنفسهم . تحرص على أن تلتفت الأنظار إليها . تركب الخيل ، وتتسلق الأشجار ، ربما أخذت ما بداخل الأعشاش من البيض ، أو فراخ الطير . حتى النخلة العالية في بيت الأزبكية ، كانت تصعد إليها مثل الأولاد ، وتنط ، وتقفز . تهمل نداءات أمها والأغا بأن تنزل من النخلة . تواصل التسلق حتى تبلغ أعلى النخلة ، ثم تبدأ في الهبوط . تظل الأم تحت النخلة حتى تهبط زينب ، فتربطها في النخلة نفسها كي لا تعود إلى ما فعلت . وكانت البنت تصر على أن تصحب أبيها أو أمها أو أحد أخوتها ، لا تطبيق البقاء في البيت . وتلعب مع الخدم والعبيد نط الحبل والقفز والاستغماية ، والحجلة . أهملت تخويف زمردة من سكان الأقبية ومخلوقات الليل والأعين الملتمة بالشر والمتاهات وأفعال السحر .

رفض الشيخ البكرى أن تذهب إلى الكتاب ، حتى لو اقتصر تلاميذه على أبناء العلماء والأعيان والسراة . جعل تعليمها على أيدي مدرسات خصوصيات ، شيخات . اطمأنت الأم إلى أن ما تفعله البنت من أفعال الشقاوة يصدر عن طفولتها ، وأنها ستتهجر ما تفعله في سن البلوغ .. نصحت زمردة بأن تذبح ضحية على عتبة باب البيت الخارجي ، حماية لأهله من العكوسات ..

فصل

استقبلت الكاتب - للمرة الأولى - في حجرة الطواشى . وقف في الغرفة المجاورة ، لا يطالعه إلا صوتها . يتاح للطواشى ما لا يتاح له من التردد على غرف الحريم . أصاخ سمعه من انفراجة الباب بين الغرفتين . أمرت له بقهوة ، لم يكن من المائنون له أن يدخل حجرتها . يصعد من حجرته أسفل مسكن الحريم . يقف في الحجرة المجاورة . يتكلمان من خلال الحاجز الخشبي

الفاصل بين بابى الحجرتين . تملى أوامرهما ، ويسجل ما تطلبه . التقاليد ترفض أن يحرق فى المرأة رجل إلا إذا كان طيباً ..

دفعت الحاجز ، وواجهته بعينين محدقتين :

- أنت تنزل إلى الأسواق ، وتخاطب الناس .. لماذا يرفضون عضوية أبى فى الديوان ؟

وشى صوته الأذن بالارتباك . أشفقت من ارتعاشة أنفه ، وتهدل وجنتيه المتهدلتين ، وشحوب وجهه ، وفمه المفتوح ، وعينيه المشروطتين ، الخاليتين من الرموش ، يعلوهما حاجبان رفيعان . سرت الرعشة حتى فى سرواله الأبيض الفصفاض ، الضيق عند الكاحلين ، وتلفيفة الصوف الملتفة حول رقبته ..

قالت :

- لا تخف شيئاً . صارحنى بكل شئ ..

نكس وجهه إلى الأرض فلا يواجه نظراتها :

- لبعض الناس اعتراضاتهم على الديوان ..

وهى تسند يدها إلى ردفها :

- من وافقوا عليه لم يعترضوا إلا على عضوية أبى ..

وداخل صوتها استياء :

- لماذا ؟

- هذا ليس صحيحاً ..

- إما أنك تخشى أبى ، أو أنك نائم على روحك !

وثقبتة بعينين مشتعلتين :

- حتى النسوة فى الحمام يتحدثن عن استثناء الفرنسيين لأبى بالاحتفاظ بجواده !

ومضت إلى حجرتها .

أهملت ملاحظة أمها أنها تحرص على الخروج سافرة ، وتعرض للرجال ،
وتتحدث إليهم دون حرج . ذلك فعل بعض الفتيات اللاتي يردن تقليد نساء الفرنسيين
في ارتداء الملابس السافرة ، ومبالغتهن في الخروج إلى الطرقات ، بمناسبة وبلا
مناسبة . للفرنسيين حياتهم ، معتقداتهم ، ولهم عاداتهم وتقاليدهم ، وهم يخالفون -
في ذلك كله - ما يجري عليه أهل مصر .

ترامى وقع حوافر الجياد ، وصيحة الحوذي : هس !

ارتدت التوب الفضفاض ، السماوى اللون ، والنقاب من الحرير الموصلى ،
الكثيف ، يحجب الوجه ، ما عدا العينين وأعلى الأنف ، وتهيأت للخروج ..
ما كادت تستقر داخل العربة ، حتى نزعَتْ نقابها . أصرت على الخروج - سافرة -
فى عز النهار . تطل - بعينين مكحولتين - من شق فى الستائر المسدلة على نافذة
العربة المواربة . لا تعنى بآراء الناس ولا ملاحظاتهم ..

فصل

ارتدت ثيابها ، وتأهبت لمغادرة البيت . قميص واسع طويل ، تصل أطرافه إلى
الأرض . له أكمام واسعة . فوق القميص سبلة ، إزار ، يغطى الجسد . على الوجه
حبرة بيضاء ، وتضع على الرأس غطاءً خاصاً من الشاش . وزينت جيدها وساعديها
بالمجوهرات والحقى . رفضت نصيحة زمردة بعدم التردد على الحمام . صاحبه يأذن
بدخوله للبرصاء والمجنومين . الحمام هو المكان الأنسب لتبادل الزيارات . يتبادل
النسوة القهوة والشربات والفظاثر . يستمعن إلى الألحان من فرقة العميان . تبلغ
الحمامية بموعد قدومها . تخلقى الحمام إلا لمن أبلغتهن بموعداها . تهمل إلحاح أبيها
بأن يقتصر استحمامها على حمام البيت . وتهمل ملاحظته بميلها إلى البذخ والإسراف ،

فهى تزين جسدها وثيابها بكل ما تقتنيه من اللؤلؤ والماس والمرجان والمصنوعات الذهبية والقلاند والتيجان والأقراط والأساور والخلاخيل والنقود الذهبية والفضية .

تدخل الحمام من الباب الخلفى فى درب المبيضة . ضيق ، مغلق ، تسبقها الخادمة إلى طرقة ، فينفتح بتوقع الانتظار . تستقبلها الحمامية فى مدخل الحمام . الرسوم النباتية تحيط بالباب ، والأرض مبلطة بالرخام المضلع ، والجدران مغطاة برخام متداخل الألوان والتشكيلات ، والأسقف - إلى القاعات والردهات والمقاصير - مزينة بزخارف ، وعبارات ترحب بالزائرين ، وتتدلى من منتصفها سلاسل المشكاوات والقناديل . زجاج النوافذ تتداخل فيه ألوان زاهية ، والزجاج المعشق يأتى بدخول الشمس ، فى تكوينات ، تضوى بألق ، وتتراقص على السقف والجدران . تتوسط المكان نافورات على هيئة أسود ، ينبثق الماء من أفواهها ، والمصاطب مفروشة بالرياش والأرائك والمساند الوثيرة ، والخزائن مجللة بالمناشف المزركشة والمقصبة .

تسقط الحجاب فور دخولها ..

قالت الحمامية :

- تأتين إلى الحمام ، فتنزعين كل ما عليك .. لا تضعين على الجسد الجميل سوى الماء الساخن .

وأومات برأسها :

- تتعبين نفسك بلا ضرورة .

كانت تحرص أن تضع على جيدها ، وفى ساعديها ، قلاند العنبر والأساور المرصعة بالأحجار الكريمة ، ولقت خلخالاً من الذهب حول ساقها .

أطلقت ضحكة ملونة :

- هل أظل عارية بعد حمامك ؟

تنسى الوقت فى تبادل الحكايات مع فتيات فى مثل سنها ، ونساء من بنات طبقتها . تتسلم منها ملابسها ، وتغطى جسدها بغطاء ، فلا يبين إلا الرأس والوجه

والرقبة وأعلى الكتفين والأطراف . دسّت قدميها فى قيقاب رصّع بالأحجار الكريمة .
حكّت لصديقاتها ما روى عن نساء رشيد . رفعن عريضة إلى السلطان ، يطلبن
المساواة بزييدة ، بنت السيد محمد البواب ، التاجر وصاحب الحمامات فى رشيد .
تزوجت ضابطاً فرنسياً كبيراً ، اسمه مونو . قدمها على نفسه فى الطعام والسير
والجلوس . لماذا لا يكون ذلك هو حال كل النساء ؟!

دلفت إلى المغطس . بخار المياه الساخنة يغلف المكان بضبابية خافتة .
مضت إلى طرقة تعلو فيها الحرارة . الحجرات على الجانبين تعلو فيها
السخونة بدرجات متباينة . بدا الجو ساخناً عند الاقتراب من الحجرة الثانية .
لطمها البخار الساخن المعطر ، اخترق مسام البشرة . أنامتها الحمامية على مصطبة
من الرخام . من حولها أربعة مغاطس ذات أحواض مطلية بالملاط ، ينبثق من
داخلها الماء .

بدأت المرأة فى تدليك جسدها بقطعة صوف ، مبللة بالصابون والماء ، وطرقة
الأطراف ، وحك كعبي الرجلين بالحجر الخفاف . تسرف فى استعمال المسك والعود
وماء الورد وزيت الزيتون . مضت إلى حجرة مجاورة ، فاغتسلت بمياه عين ماء ساخنة
وباردة . ارتدت بشكيراً . مضت إلى الحجرة الأولى . تقدم لها الخادمة - وهى ممددة
على الأريكة - مشروباً ساخناً ، أو فنجاناً من القهوة . أغمضت عينيها ، وهى تنصت -
فى نشوة - إلى عزف فرقة العميان - فى الطرف الآخر من الحجرة - تعزف بشارف
عثمانية وتقاسيم ..

نادت " الحمامية " على البالانة " نعاة . تنتقل بين القاعة الخارجية والمغطس .
تحمل العسل المعقود والصابون والمنشفة .

أزال نعاة الشعر الزائد من جسد زينب ، وصفت شعرها ، وزججت حاجبيها .
أسلمت ساقها للمرأة . أزال الشعر منهما ، ودلكت القدمين بالحجر الخفاف ، ثم
بقشر الخيار ، ينظف وينعم ..

تختار لها البلانة من سوق العطارين أفضل أنواع الحناء لصيغ شعرها ، وطلاء
أظافر يديها وقدميها ..

تنهت - فى جلستها - على أصابع تربت كتفها ..

استدارت ..

- السيدة بولين ..

كانت فى حوالى الخامسة والعشرين . أميل إلى السمعة . شعر كستنائى . عيان
زرقاوان ، تومضان بلمعة المكر ، وترمقان ما حولهما بنظرات متوجسة . أنفها أقنى
صغير . تتدلى من عنقها سلسلة ذهبية ، تنتهى بصليب ذهبى صغير . ترتدى فستاناً
أبيض ، طرزت حواشيه بالدانتيل الأبيض ، وأحاطت وسطه بحزام عريض ، أخضر ،
وغطت كتفيها وصدرها بشال من القطيفة الزرقاء . فوق شفتيها شعرات صفراء ،
خفيفة ، وفى صوتها لدغة واضحة . تثق فى نفسها إلى حد الجراءة ، وربما التعالى على
الآخرين ..

قالت بولين نوريس :

- لك عندى رسالة ..

- رسالة ؟

- ليست رسالة مكتوبة .. القائد العام يريد أن يلتقى بك ..

- نابليون ؟ .. أنا ؟ .. هل يعرفنى ؟

وداخل همسها خوف واضح :

- هل رأتى فى الحمام ؟

ضربت المرأة صدرها :

- حمام تدخله بنت البكرى لا يؤذن لرجل - حتى لو كان القائد العام - بالتطلع إلى
ما بداخله ..

ومالت على أذنها :
- لحك عند زيارتك وأمك لى ..
ولكرتها بأصابع مترفقة :
- سحرته عيناك من وراء النقاب ، أذهلته عن مكانته ، وما يجب أن يتخذ نفسه به
من وقار ..
- لكننى لم أره عندك ..
- ربما أنت .. لكنه قائد عسكري يلمح كل شىء ..
- ولماذا يزورك ؟
- إنى صديقتة ، وأجيد خياطة ثيابه كما أجيد خياطة ثياب أسرة البكرى ..
نسى هيبة مركزه . ظل يتردد على مشغل بولين . يحدثها فيما لا شأن لها به .
يفتح - فجأة - الباب الواصل بالحجرة المجاورة . يسترد نظراته المتفحصة بلامح خاب
توقعها .
لم تكن تملك إلا أن تنصت ، وتبدى رأيها - أحياناً - لمجرد توصيل الإحساس
بالمشاركة .
حدثها عن زينب فى لحظة غير متوقعة . عن ظروف رؤيتها له ، وعن رغبته فى أن
يلتقى بها ..
أسكت التساؤل فى عينيها بهزة من يده ..
القائد العام ؟ قائد كل الفرنسيين والمصريين - يتحدث عنه أبوها بإعجاب وخوف -
يريد أن يلتقى بها .
وهى تخطو إلى العربية الواقفة أمام باب الحمام ، منحت الحمامية نقوداً من
الذهب ، بدلاً من البارات الفضية .

فصل

قدمت بولين نوريس فى الموعد . ألفت المكان لكثرة ترددها عليه :

- موعدا الليلة ..

فى خوف :

- أين ؟

- فى بيت القائد العام ..

- أخشى أن يرانى أحد ..

- حين تسدلين النقاب على وجهك .. لن يظن أحد إذا كنت فتاة أم رجلاً ..

- إذا عرف أبى .. قتلنى ..

- أبوك صديقنا ..

- ليس إلى حد السكوت عن تصرفات ابنته ..

ترامى صوت جرس من الطريق . أدركت أن القائد العام أرسل العربية التى ستقلها . لم تعد الأم تستطيع منعها من مغادرة البيت . ولم تكن تستطيع إبلاغ البكرى بخروج زينب عن حدود المسموح فى حياتها . لا تضمن رد الفعل من الرجل ، أو من البنت نفسها ..

ركبت العربية المسدلة الستائر ، يجرها جوادان . اطمأن الحوذى إلى انسداد ستائر نوافذ العربية ، قبل أن يصعد إلى كرسيه ، ويفرقع بسوطه فى الهواء ، ليبدأ الجوادان فى التحرك . يتبعهما عبدان فى يد كل منهما شومة ، بخطوات مهرولة .

حاولت أن تطرد الخوف من نفسها . لو أن أبويها أدركا ما هى مقبلة عليه . تترك البيت إلى الحمام ، لا تعود إلى البيت مباشرة ، لكنها تسرق وقتاً لا يعلم به إلا الفرنسية والقائد العام . أزمعت أن تظل تصرفاتها فى حدود الحذر . أهملت العبادة

التي ألفت ارتدائها . أسدلت على جسدها - بدلاً منها - ثوب خادمة . وضعت البرقع والقصبة في هيئة بنات البلد . اطمأنت إلى أن التعرف عليها - من النظرات المتسللة - لن يكون متاحاً . تخرج إلى الحمام ، وإلى حيث تشاء ، دون أن يلحظها ، أو يتابعها ، أحد .

قصر الألفى يتميز عن دار أبيها في الجودية والأزيكية بفخامة تفوقه ، فهو يتضمن ما لم يعن المشايخ بأن تحتويه قصورهم . أضاف إليه الفرنسيون ما يبهر من النقوش والزينات والطنافس والمرايا ، والشمعدانات الفضية ، والثريات الهائلة ، ومعلقات الجدران .

الصحن تتوسطه نافورة من تداخل الرخام والحجر ، تنبثق منها المياه . تعلوه " شخشيخة " هائلة يتسرب منها الضوء والهواء

الواجهة مزينة بالمقرنصات والتيجان والقبب . الأرض مبلطة بالرخام المتداخل البياض والسواد . الشرفات بارزة من الخشب المخروط . الأسقف والزوايا مجففة بالنقوش المذهبة . الجدران من الخشب المنقوش برسوم الزيت والزخارف الهندسية والنباتية . قطع الأثاث مطعمة بالذهب والفضة .

سبقها الحارس الشخصي إلى داخل القاعة الواسعة . ظلت محتفظة بالنقاب على وجهها ، ويقميص التافتان الذي غطى كل ملابسها إلى أسفل القدمين ، وإن تضوع منها عطر شرقي غامض لم يتبينه ..
قال بونايرت وهو يمد ذراعيه :

- أهلا يا زينب ..

أهمل ما أشارت به بولين نوريس . لا يذكر اسم زينب . من العيب أن ينطق اسم سيدة في بلد يلزم النساء بالحياة في الحريم ..
فاجأها بأن ضم خاصرتها بذراعه ، وهو يشير باليد الأخرى إلى المقعد في ركن القاعة .

لم تكن تعرف القائد العام إلا من حكايات أبيها . تصورت القامة العملاقة ، والصوت الأجش ، والتظرة الآمرة ، والشخصية التي تطول حكايات أبيها عنه بالإعجاب والخوف . ما تصورته يختلف عن الرجل الجالس إلى جانبها : القامة الضئيلة ، والبشرة الطفولية ، والصوت الهامس . هذا هو نابليون بونابرت ..

اقتحمها شعور بأنها فى بيت القائد العام للفرنسيين . هذا القصير بعينه الحادثين ، وبشرته البيضاء الشاحبة ، والأنف الأتني . يظل أبوها والمشايخ واقفين أمامه حتى يدعوهم إلى الجلوس . يتحدث أبوها عن التفاصيل المهمة ، والتي لا لزوم لها ، فى لقاءات القائد العام والمشايخ . يسأل ويجيبون . يسألون ويجيب . يتبادلون نظرات الحيرة من ملاحظاته ، أو يشفقون على أنفسهم من سخطه وغضبه . ملامح الرجل أمامها تفيض بالود والانبساط ، والحرص على كسب ودها ..

حين لمحها فى بيت البكرى ، أثارتها العبادة الملتفة حول القامة الطويلة ، المشوكة ، والعينان الصافيتان ، الواسعتان ، المكحولتان ، من وراء النقاب ، والرقعة البادية فى ظاهرها . شرد فى الخيال والسحر ، وتجسّد ما يقصر عنه التصور .

قال وهو يتأمل ارتباك ملامحها :

- لم أكن أظن أن هذا الجمال تخفيه خيمة سوداء ..

واحتوى وجهها بين راحتيه :

- كنت أظن أن الجمال وطنه فرنسا ..

ووشى صوته بملق :

- عرفت هنا أن الجمال وطنه مصر .

وهى تعاني ارتباكها :

- لست أجمل المصريات ، لكننا لا نظهر إلا لرجالنا ..

فاجأها بالسؤال :

- لك صديق ؟
- لا أعرف هذا الأمر ..
- هل تقبلين أن تكونى صديقتى ؟
- هذه أول مرة أجلس فيها إلى رجل ليس أبى ..
لاحظ صعوبة نطقها بالفرنسية :
- لفتك لا بأس بها ..
نكست رأسها لتخفى خجلها من كلمات الإطراء :
- تعلمتها من فرنسى صديق لأبى ..
- أثق أنك ستحسنين النطق بها فى الأيام القادمة ..
ماذا لو رآها أبوها فى هذه اللحظة ؟ لو أنه عرف بمجيئها إلى بيت الألفى ،
يستقبلها القائد العام . يعرض عليها صداقته . يستميلها بلفته ، وبالإشارة . ترد بما
تعلمته من الفرنسية ، وتلجأ - مثله - إلى التعبير باليدين والرأس وملامح الوجه ؟ ..
لو أن العلاقة بينهما انتهت إلى أفق تصورها : هل يوافق أبوها على زواجها من
القائد العام ، مثلما تزوجت المرأة من رشيد بالجنرال مينو ؟ وهل يدخل دين الإسلام ،
أو يظل على دينه ؟ وهل يأخذها إلى بلاده لو أنه لم يترك ملته ؟ وإذا أظهر أبوها
التردد أو الرفض : هل يجبره القائد العام على ابتلاع ما يعجز عن مضغه ؟
مد يده ، وجذبها . أدار صدرها ناحيته ، وضمها إليه ..
لم تبد ممانعة حين أحاط خصرها بساعديه ..
أغمض عينيه . استغرق فى ملمس البشرة الناعمة ، وانطلاقات التصور ،
وارتعاشة الرغبة . يكره البدينات ، والرائحة المنفرة . تذكر المثل التركى الذى قالته
بولين : خذ المرأة البيضاء لعيونها ، والمصرية للمتعة . عيون المصرية جميلة أيضاً .
شرد فى رؤى كونتها الشائعات والهمسات والرسائل الباريسية .

مارى روز جوزفين تخونه !

المجد الذى صنعه فى القاهرة ، داسته جوزفين فى خيانتها لمن تزوجها بعد أعو
ترمل ، عن زوج أعدم بالمقصلة . أضاف - فى عقد الزواج - عامين إلى عمره ليختص
السنوات الست التى تكبره بها . يقهره الغيظ والرغبة فى الثأر . يدرك أن جوزف
تبادلته الخيانة ، سبقته إلى الخيانة . تمنى أن يسافر بعيداً ، ليحصل على ما تشتتر
به قصر " لاماليزون " ، وتخلو فيه إلى عشيقها . لم يكن يعرف مدى خيانتها ، حذ
قدم إلى مصر .

هى تخونه . لماذا ؟ ومع من ؟ وكيف ؟

ذلك ما أبلغه به أرصاده عند قدومهم إلى مصر . اسمه شارل ، لا قيمة له - مثله
فى حياة الفرنسيين . هل تنتظر غنائم الحب ؟ . لو أنه فى باريس ، هل كان يسدد
فواتير المتاجر التى تشتترى منها ثيابها ، وحليها ، وما لا يتوقعه من طيشها وتقلباتها
المزاجية ؟ هل كان يقوى على السداد ؟

كتب إلى أخيه جوزيف : أنا أعانى فى بيتى الكثير من خيبة الأمل . انكشف لى
ما كان مستوراً ، ولم يبق لى فى الدنيا من أخصه بما أعانيه سواك أيها العزيز .
وكتب : أثق أنها ما أحببتنى فقط . وكتب : لم تعد بينى وبينها رابطة من أى نوع ! ما
أستطيع أن أؤكد أنه لن تدخل بيتى ! . وكتب : من المؤكد أنى سأطلق جوزفين ،
ولعلك تبحث لى عن بيت ريفى بالقرب من باريس ، أو فى بورجونيا ، أعتكف فيه . أنا
أريد قضاء الشتاء هناك ، والخلو إلى نفسى . إننى متبرم من طبائع البشر ، وفى
حاجة إلى الوحدة والعزلة ، والانتصارات تصيبنى بالضجر ، وينابيع الحماسة تجف ،
والمجد بلا طعم فى التاسعة والعشرين . لقد استنفدت كل شىء ، ولم يعد أمامى إلا أن
أصبح متوحداً بالفعل .

قال للمملوك رستم وهو يشير إلى حجرة مغلقة :

- هذه حجرة نومي . أريدك أن تنام بالقرب من بابها . لا تترك أحداً يدخلها .

فاجأ المملوك بتخليه - هذه الليلة - عن أمره . اقض وقتاً ممتعاً خارج البيت .
حرص على أن تدخل زينب البيت ، فلا يراها أحد . تغيب الأعين والأذان والأفواه التي
قد تنقل ما تسمعه أو تراه . يدرك خطورة ما يحدث ، عليه ، وعلى الفتاة . لا صلة
لمكانته برد الفعل القاسى ، المتوقع .

الباب الرابع

فصل

- اجلسى ..

فاجأتها دعوته . اعتادت الوقوف عند الباب ، حتى يتناول مختار طعامه . عيناها مثبتتان على عينيه تحاول التقاط ما ينوى طلبه ، لتبادر بإحضاره . لا تجلس لتناول طعامها قبل أن تدلق ماء الإبريق على يديه فوق الطست ، ويجففهما بالفوطة . ربما يظهر عطفه لأن أباها يقاسمه الطعام ..

لم يعد مختار - منذ انتقاله إلى بيت المعلم شيخة - زوجاً لتغريد فقط . هو الابن الأكبر للعجوز ، والرأى الذى يلى ما يقضى به العجوز . لا تقتصر ملاحظاته على الحجرة المطلة على حارة الزير المعلق ، لكنه يتحرك فى مساحة البيت ، يلاحظ ، ويطلب ، ويلتقى بالضيوف جلست . تنقلت نظراتها بينهما ، وإن أطالت تأمل مختار ببشرته السمراء ، وابتهامته الطفولية ، وأسنانه المفلجة ، ولحيته القصيرة المدببة ، والقميص ذى التيل الأزرق ، والكمين الطويلين ..

قال مختار :

- هل تعرفين بيت الشيخ البكرى ؟

- له بيوت كثيرة .. بيت البارودى بباب الخلق .. بيت عبد الرحمن كتحدا القازنوغللى بحارة عابدين ..

قاطعها :

- بيت الجودرية ..

- الذى تقيم فيه أم زينب ؟
- زينب هى التى تهمنى ..
- فى دهشة :
- ما شألك بها ؟.. هل أزعجت العين أن تعلق على الحاجب ؟
- أى عين وأى حاجب يا تعيسة . البنت على صلة بالفرنسيين ..
- بصقت فى عبها :
- يا لهوى !
- ضعى لسانك فى فمك ، ولا تقولى هذا الكلام لنفسك ..
- ماذا يعنينى إن كانت تعرف الفرنسيين أو لا تعرفهم ..
- فى نقاد صبر :
- وماذا يعنك من أى شىء ؟!
- ثم فى لهجة باترة :
- أريد أن تترددى على بيت الجودرية ولو كدلالة .. انقلى كل شىء إلى عينيك وعودى به ..
- لمن ؟
- لى طبعاً ..
- إذا كانت تعرف الفرنسيين .. ماذا تفعلون لها ؟
- ما نفعله مع أصدقاء الكفرة ..
- تدخل أبوها لأول مرة :
- نفذى ما يطلبه زوجك يا تغريد ..

كشف انفراج شفثيه عن خلو فمه من الأسنان ، ما عدا سنتين فى
مقدمة الفم .

ظل أبوها فى أيامها ، حتى بعد أن تزوجت . سبقها إخوة - ثلاثة ذكور ، وثلاث
إناث - إلى بيوت مستقلة . لما أنقذه مختار الرمادى من طعنة خنجر غادرة ، زوجه
تفريد ، وأخلى لهما الطابق الثانى . تصعد وتهبط بين طابقى البيت . لا تبدى الضيق ،
ولا تتذمر . تكنس ، وتمسح ، وتطهو الطعام ، وتغسل الثياب ، وتمرض أباهما ،
وتساعده على تناول طعامه ، وتبديل ملابسه ..

كانت تناقش زوجها فيما يطلبه ، لكنها لا تقوى على مناقشة أبيها . الأخذ والرد
وإبداء الملاحظات . ما يقرره لا تستطيع أن تبدى فيه رأيها . قوله أمر لا تملك إلا تليته .
إذا اتجه بعينيه ناحية تفريد ، أدركت أنه يطلب فنجان القهوة السادة . لا يحصى - ولا
تحصى - ما يرتشفه من فناجين القهوة السادة .

لم تكن تفريد تكلمه قبل أن يبادرها بالكلام . أملى احترامه على الجميع . مختار
وحده كان يقوى على مناقشته . لا أحد يرد له أمراً . ما يعترض عليه لا يطرح ثانية ،
وما يقضى به ينفذه الجميع دون مناقشة ، أو حتى السؤال عما يشوب المعنى من
غموض . يتقبلون انبساطه فى الكلام بحذر . ربما غلبه الانفعال . نسى ما أخذ به
نفسه من الهدوء .

الباب الخارجى يفضى إلى المندرة الواسعة ، تشى بالقدم . فى وسطها فسقية
مياه لا تعمل . من حولها أرائك خشبية عريضة ، تهرأ فرشها . يجلس فيها أبوها
ومختار إلى زوارهما . السلم الجانبى المفضى إلى الطابق العلوى تاكلت أحجاره ، وفى
أسفله خزانة خشبية وصندوق . النشع يشكل تكوينات على السقف والجدران . النافذة
الوحيدة ، المطللة على المنور ، تصدر ضوءاً شاحباً .

اعتادت - وهى ترقب ما يدور فى الحجرة المطللة على الخرابة الخلفية - إنصات
الرجال إلى ملاحظات مختار . يلبون مطالبه بلا مناقشة . هى أوامر لابد من تنفيذها .

حتى أبوها يرفض أن يناقش الرجال أوامر مختار . من حاكم أن تختلفوا معه ، ومن
واجبكم أن تخضعوا أفعالكم لتصوره .
أحست أن الموضوع خطير ، ولا يحتمل نقاشاً . سكنت ، واستعدت للمغامرة .

فصل

دخلت تغريد بيت الجودرية .
نزعت الملاء والبرقع الشبيكة ذى القصبية الذهبية اللون . بدا أثره على أرنبة
الأنف واضحاً .
رسأها مختار على ما يجب أن تفعله .
فضلت أن تدخل البيت تابعة ، فلا تواجه سوء الظن . عرضت على حسنية الدلالة
بضاعة تسوقها لها مختار من أسواق العصر وخان الخليلى والأزهر والحمزاوى وتحت
الربع . وافقت حسنية أن ترافقها - صبية لا دلالة - إلى بيت البكرى ..
دخلت زينب ..
تأملتها : القامة الطويلة ، المشوقة ، والشعر الفاحم ، صفرتة فى جديلة عقدتها
فوق رأسها ، والعينين الصافيتين ، الواسعتين ، المكحولتين ، يعلوهما حاجبان خفيفان ،
والشففتين الرقيقتين ، المكتنرتين ، والبشرة المضخمة بالطيب . ترتدى قميص نوم
واسعاً من القطن الأبيض ، أزواره مقفولة حتى الرقبة ، وتدس قدميها فى مداس
مغربى أصفر فاقع اللون .
وضعت البقجة الصغيرة على الأرض . قلبت زينب ما تناثر على المفروش : عقود
من الزجاج ، مناديل حريرية ، خمارات ، أثواب ، سراويل ، مشغولات من الذهب
والفضة ، أنية فخار ، صناديق مطعمة بالصدف .
- هذه أشياء من أسواق القاهرة ..

- لا أقبل إلا ما يخصني به التجار ..

وهي تومي برأسها :

- إن كان عندك بضاعة من خارج البلاد هاتها لى ..

قارنت بين ما ارتسم في ذهنها عن الحياة في بيت البكرى ، وما شاهدته .
الستائر القטיפية تغطي التوافذ المطلة على الباحة الداخلية ، والأبسطة والسجاجيد
الأرمنية تكسو الأرض ، وجلود الحيوان من أعماق إفريقيا ، وحوامل القرآن من خشب
الساج الهندي ، والمرآة الهائلة تشغل معظم مساحة الجدار ، والأرائك المزينة بالصدف ،
والخزائن ، والصناديق المطعمة بالعاج ، والدمقس الدمشقي ، والحشايا اليمينية ،
والمسائد ، والموسلين الموصلي . وثمة سيدات البيت ، والجوارى ، والخصيان ، والخدم ،
والوان الأطعمة والمشارب والعباءات البغدادية ، وأقمشة الفسطاط ، والأقمشة المطرزة
بالقصب ، والتحف والجواهر ، واللآلىء الخليجية ، وآلات الذهب والفضة ..

قالت لأمها :

- لبس البوصة تبقى عروسة ..

ومصممت شفقتها :

- جمالهن بأثوات الزينة والملابس الأبهة ..

قالت الأم :

- قولى هذا أمام أبيك فيقطع رقبتك !

استطردت نون أن تلتفت إلى ملاحظة أمها :

- لكن الست زينب - يشهد الله - جميلة ولا جميل إلا سيدنا النبی ..

أعادت الحوار - بين زينب وبينها - على مختار الرمادى .

كان أبوها فى جلسته على الكنبه ، ينصت ، ويكتفى بهز رأسه ..

قال مختار :

- تريد أن تزغل عين القائد العام ببضائع أجنبية ..

قالت تغريد :

- هل هى على صلة بالقائد العام ؟

- مصيبتك كثرة الأسئلة ..

تدخل أبوها :

- نفذى كلام زوجك !

فصل

أعفاها مختار من انتقاء ما ترضى به زينب . عاد من أسواق القاهرة

ببضائع مجلوبة من دمشق وحلب وطرابلس وبيروت وكريت ورودى وأزمير
والبنديقية ولشبونة وتريستا . اشترى لها أقمشة حريرية من سوق المغاربة وسوق
الموسكى وخان الحمزاوى . حتى البقجة التى وضع فيها البضاعة اختارها
مغايرة لما تحمله الدلالات ..

عرضت على زينب بضائع راقية ، تناسب ذوقها ومكانتها . اقتناها مختار من
الموسكى . منسوجات قطنية وحريرية وكتانية وشيلان وجوخ . فردت بيديها
أنواعاً نادرة من الحرير والموسلين والمخمل والعباءات المرصعة بالترتر والحلى ،
وقوارير العطور النادرة ، والأحقاق المطعمة بالصدف والعاج والأحجار الكريمة ،
وبضائع أخرى من الهند الشرقية وأوروبا والقسطنطينية . عرضت أمامها بضائع
لم تحسن ترديد أسمائها بعد نطق مختار : جوخ نوفينيه ، حرائر ليون ،
منسوجات بروفانس ..

فصل

قالت تغريد :

- تستطيع أن تدخل بيت البكرى ..

قال مختار الرمادى :

- أنا ؟

ورمقها بنظرة متوجسة :

- كيف ؟

- أوصت الست الكبيرة على صندوق لحاجياتها ..

- هل ترضى بصناعتنا ؟

ربتت صدره بيدها :

- أنت معلم قد الدنيا ..

- السادة يريدون خشب الأرز ، وبضاعتنا تختلف ..

- من يعرف ؟

- العين الخبيثة تتبين نوع قطعة الخشب إذا كانت فى حجم عقلة الصباغ ..

عرف عنه أنه يجيد التفرقة بين خشب الزان والأبنوس والسنط والنبق والنخيل واللبخ والجميز والتوت والكافور والساج . مجرد تقلبيه قطعة خشب صغيرة ، تدله على نوع الشجرة التى اقتطعت منها . كان يصنع الأسرّة والخزائن والصناديق . ثم فرغ لصنع الصناديق ، مزينة بالفضة والصدف لحفظ الملابس والمجوهرات والأشياء الثمينة . دكانه تحت الربيع . يلاصق الدكان نجارون وصنادقية . ربما صنع قباقيب الحمام من الخشب الثمين المنقوش بالصدف ، المحلى بالفضة . يبيعه لتجار خان الخليلى ..

أنست إليها زينب .

لم تعد تفاصلها ، ولا تحاسبها . تدفع لها أكثر مما تطلبه . تأتي لها بما تشتريه من الثياب والأقمشة والعطور وأدوات الزينة . لا تلحظ - أو تهمل الملاحظة - أن الأشياء الجميلة يشتريها مختار من أسواق القاهرة ..

أطالت التفكير . اختلطت في داخلها مشاعر التوقع والقلق والخوف والإشفاق ..

نفضت رأسها من السؤال : هل ينوى مختار أذية زينب البكرية ؟

فصل

مضى مختار الرمادى من طولون على ظهر حماره . سار فى سكة المصلى ، من قنطرة السباع إلى يمين بركة الفيل ، حتى ميدان الرميّة .

قبل أن يمضى إلى البرادعى فى شارع تحت الربع ، المتفرع من ميدان باب الخلق ، لمح المكارى خليل نفاذى أمام باب العزب ، أسفل قلعة الجبل . جعل الباعة الجائلون من الصخور - وسط الميدان - دعائم لعرباتهم . يبيعون التبغ وقصب السكر والحديد الخردة .

قال المكارى خليل :

- لولا العباءة التى تغطى بها وجهك لظننتك خليل الرمادى !

ثم وهو يفسح الطريق لحمار يواصل صاحبه لكزه بساقيه :

- جئت لاقتناء ركوبة من سوق الحمير .

واتجه إليه بنظرة متسائلة :

- هل تبحث عن بردة لحمارك ؟

لاذا بظل القلعة .

قال خليل :

- أقايضك .. حمارك بحمارى .. وتدفع الفرق .

- من يدفع الفرق ؟

استطرد دون أن ينتظر إجابة منه :

- حمارك يعانى الهزال ، بينما حمارى صحته جيدة .

- لماذا تريد الاستغناء عنه ؟

فى تصعب :

- ضعفت حركته .

- لماذا لا تجعله حمار جر ؟

- أنت المكارى لا أنا .

- لن يقوى على جر العربة إذا كانت الحمولة ثقيلة .

- المشاوير لا تنتهى منذ قدوم الفرنسيين داخل البلد وخارجها .

وأوماً برأسه ناحية ثلاثة جنود فرنسيين على ناصية الميدان :

- إنهم يزاحموننا على ركوب الحمير .

واغتصب ضحكة :

- يركبون الحمير لغير سبب إلا الجرى بها فى الشوارع .

قال مختار الرمادى :

- تأخذ ثلاثمائة يارة ..

أردف لظرة الاستياء فى عيني المكارى :

- أن تبيعنى حمارك بالثمن الذى ترضاه أفضل من أن تبيعه بالثمن الذى يعرض عليك ، أو لا تحصل على شىء بالمرّة !
ثم بلهجة محرّضة :

- الفرنسيون ينزلون الناس من على حميرهم ، ويبيعونها فى الأسواق !
استجاب معظم المكارية لنداءات الفرنسيين . كل من كان عنده بغلة يذهب بها إلى قائم مقام ببركة الفيل ، ويأخذ ثمنها . رافق النداءات تخويف من أن الذى يتقاعس عن تسليم دابته ، تؤخذ منه غصباً ، يزيد عليها ثلاثمائة ريال فرنسى ، ولا يحصل على شىء بالمرّة .

استطرد الرمادى بنبرة فاهمة :

- إنهم لا يكتفون بالنزّهة . ينقلون بريدهم على ظهورها ..

قال المكارى :

- يضاعفون الأجر .. والبطر حرام ..

قال مختار :

- نحن فى حاجة إلى ما تسميه بطراً . نريد وقتك ..

- خيراً ..

مال برأسه ناحيته ، وتحدث بكلمات هامسة ..

وعلا صوته :

- يهمنى ألا يخذلك الحمار فى المواقف الصعبة ..

أعاد العبارة :

- المواقف الصعبة ؟

غمز بعينه :

- ألا تواجه - أحياناً - مواقف صعبة ؟

تناول خليل نفاذى من جيب السيالة علبة صفيح مثثة . فتحها ، وأخذ منها قطعة سوداء صغيرة . وضعها بين أضراسه ، وأغلق فمه .

قال المعلم شبيحة :

- لو أن صحتى تطاوعنى ، ما تركت هؤلاء الكلاب يؤذون الناس .

أزمع - فى اللحظة التالية - أن يفعل ما يمليه حبه للمعلم ، وواجبه نحو الغلبة والمنكسرين . تضايقه وجوههم التى تطالع فى كل الأماكن . حتى الأسواق علت فيها أصواتهم باللغة التى لا يعرفها . حتى المقاهى جلسوا فوقها يرتشفون القهوة . صار الرمادى - بذكائه وشخصيته - معلماً لزملائه ، ينصتون إلى أوامره ، لا يوافقونه ، ولا يخالفونه ، أو يعترضونه . يقومون على إنفاذ ما يلقيه إليهم من الخطط ، الأوامر كما يطلبها ، ويبدون الحب والموافقة وعدم المخالفة . يوزعهم ، يحدد لكل منهم المكان الذى يقف - أو يختبئ - فيه . يترصدون لجنود الفرنسيين ، ومن يناصرهم ، فى الدروب والعطوف والخلاء ، تعددت عملياتهم . تهاجم مخافر الجيش الفرنسى ، وتقتل جنوده ، وتدمر البيوت التى يقطن فيها قادته ، وبيوت المتعاونين من المصريين والمماليك ..

فكر فى أن يتردد على خان أبو طاقية . يشتري لتغريد حلية ذهبية : قلادة ، أو خلخال ، أو سلسلة . له صداقات مع صاغة الخان . تذكر موعداً فى جامع محمد بك أبو الذهب ، فاتجه إليه .

صعد السلم - مستنداً على درابزين الخرط - إلى الجامع ، من الناحية المقابلة لجامع الأزهر . المثذنة ذات الطوابق الثلاثة ، والشكل المربع ، يعلوها خمسة رعوں تشبه الزلعة ..

مضى إلى داخل الصحن المربع ذى الشبائيك الجصية ، والمصنوعة من النحاس المتشابك ، والزجاج الملون ، والقبة المزينة بنقوش مذهبة ، والمحراب المكسو بالرخام الملون والفسيفساء ، والخردة المطعمة بالصدف ، والقباب المحمولة على دعائم الحجر ،

والقبة الهائلة بنوافذها الحجرية ، والأروقة المغطاة بالقباب الصغيرة ، وأعمدة الرخام ،
والجدران المكسوة بالقيشاني المزخرف ، وبلاطات الرخام والخزف ..

كانوا عشرة يرتدون زى المجاورين . صنعوا ما يشبه الحدوة . تلاغطت أصواتهم
بتلاوة القرآن . تبيينوا مختار الرمادى . ردوا السلام ، وعادوا إلى التلاوة ..

تلقت - بتلقائية - فيما حوله . ثم سأل عن أبو المجد الهوارى ..

قال الشيخ المعتز بالله :

- إذا أردت أن تجده فهو فى الكتبية ..

وضم أطراف عباة :

- إنه بودة كتب .. معظم وقته يقضيه فى القراءة ..

قال مختار :

- نحن فى حاجة إلى قوة العقل مثلما نحتاج إلى القوة الجسدية ..

ولاح فى عينيه أمل :

- أثق أنه سيدلنا على ما لم نفطن إليه .

وقال فى تنبه :

- هل نلتقى فى الأزهر ؟

قال الشيخ :

- أنت هنا كائنك فى الأزهر تماماً . بنى المسجد ليستوعب ما يزيد عن استيعاب

مساحة الأزهر من المصلين ..

مضى بجوار الأزهر . خلف وراءه جامع محمد أبو الذهب والوكالات التجارية
والدكاكين الصغيرة ، المتلاصقة ، غالبيتها لنساخين وباعة مخطوطات . مال من اليسار
إلى شارع الأزهر . مضى من ناحية شارع البيطار ، وبيت جمال الدين الذهبى ، وحوض

السلطان قايتباى ، إلى وكالة قايتباى . بناية هائلة ، مقامة حول فناء واسع مربع ، فى وسطه حوض ماء ، ومن حوله مخازن مسقوفة بالحجر ، فلا تتعرض للحريق . الشبايك والمشربيات من الخشب المخروط تغطى الواجهة . مساقط الهواء موزعة على الفناء والزوايا والأركان . فى الطوابق العليا يمضى التجار أوقاتاً من أيامهم ، أو يستضيفون الغرباء والوافدين .

تطلع من النفق الضخم أسفل الوكالة إلى المئذنة القصيرة الصاعدة من أعلى الأزهر ، ثم عبر مسافة الشارع إلى داخل الجامع ..

اختلط بمجاورى الأزهر من السوريين والأكرد والفرس وعرب الحجاز واليمن والهنود والقادمين من إفريقية . شاركهم تناول جراياتهم . تردد على أروقة الحرمين ، الدكارة ، الشوام ، الجازة ، السليمانية ، المغاربة ، السنارية ، الأتراك ، البرقية ، الجبرتية ، اليمنية ، الأكرد ، الهنود ، البغدادية ، البرابرة . حتى رواق العميان تردد عليه ، وكون صداقات مع مجاوريه . يستند إلى الأعمدة . يطيل المكوث فى بواق الصعايدة . عرف عنهم غلبة التعاطف والتكافل والمعاندة ، وميلهم إلى الثأر ، ورفض الذل والمهانة . إذا أدركه التعب ، تمدد لصق الجدار ، أو تحت أحد الأعمدة الهائلة فى أركان الصحن ، يضع البلغة تحت رأسه ، وينام . يتفياً ظلال الأنوار المبهرة ، المتدلية من الأسقف ، والمبثوثة فى الأركان ..

صار دائم التردد على سوق السلاح . تعددت زيارته للخلاء والصحراء ، ولقاءاته بأرباب سيف وعمامة وحرفيين . وطد صلاته بالأغوات الطواشية الذين استبقاهم الضباط الفرنسيون فى خدمتهم . ينقلون له ما تراه أعينهم ، وما يتناهى إلى أسماعهم . لا يقلتون شاردة ولا واردة ، قد تفيده فى رسم التصوير الذى يبنى عليه توقعاته ، ويخطط لما ينبغى عمله ..

كان يلجأ إلى الظلام والعطوف والأزقة . يتجه بنظره إلى الأمام لا يتلفت حتى لا يثير الريبة ، يمشى لصق الجدران ، يتجنب الشوارع الواسعة والميادين ، يتوقع العين الراصدة والمطاردة والأذى . يتوقف عند أية وسوسة . ينصت لوقع أقدام تتبعه . يدرك

أن الأعين تراقب الأماكن التي يتردد عليها . ليس كل المصريين المعلم شيحة ، وليسوا
كلهم خليل البكرى ..

* * *

طالعه السقا حميدة أبو قطة أمام سبيل أبو الذهب ، عند وكالة
الغورى . اتجه ناحيته بما لا يشئ أنه يعرفه . همس بكلمات قليلة ، ثم
واصل السير ..

خاف الناس على ما يملكون من الحمير . أخفوها داخل الدور . فضل السقاءون
أن يحملوا الماء على ظهورهم ، بدلاً من أن تنقلها الحمير ، فلا يصادرها
جنود الفرنسيين ..

السقا له دوره فيما يفعل . يتجول بالقرب المحمولة على ظهره فى الشوارع التى
لا تستطيع الجمال دخولها ، أو السير فيها . ينقل الأخبار من جولاته فى البيوت ،
ويوزع التعليمات على المتعاملين مع جماعة الرمادى . يخبره الرمادى بنص ما يردده
فى أذان الناس ، يهمس به كئنه الدعاء ، أو التمتمة . يمضى فى داخل العطوف
والدروب والشوارع الضيقة . تبطن خطواته فى المواضع التى يشتد فيها الزحام .
يقترب من الناس ، أو يقتربون منه . يتلقون منه الرسالة ، ويعدون أنفسهم
للحدث المرتقب . لم يكن ما يخطه بالطباشير على جدران البيوت - كما يبدو - بعدد
المرات التى حمل فيها قرب الماء إلى كل بيت . كان يحدد ساعة للقاء ، أو موعد الخروج
لعملية ما . ربما جعل من دابته علامة التهيو لما سيجرى . رنين جرس يضعه فى عنق
الدابة . يقترب الناس منه ، أو ينادون عليه بما يبدو كئنه العفوية . يكتفون بملء
الأزيار ، ما يقتصر على الشبر الواحد ، أو أقل ، أو يتظاهرون بطلب الشرب فى كوب
أو كوز . يكتفى السقا بذكر مكان اللقاء المرتقب ، وموعده ، ويمضى مخترقاً الأسواق
والشوارع والأزقة .

فصل

قالت تغريد :

- زينب لا تذهب إلى بونايرت بمفردها . تصحبها امرأة فرنسية من حمام يلتقيان فيه ..

قال مختار :

- ما اسمه ؟ .. فى القاهرة خمسة وأربعون حماماً ..

قال المعلم شيجة :

- حمامات الوجهاء قليلة ..

قالت تغريد :

- لعل اسمه رزاق ، أو عبد الرزاق ..

قال مختار :

- أظن أنه حمام مرزوق .. حمام يقتصر على نساء الأغنياء ..

وهى تهز إصبعها :

- هو ذاك .

فصل

لمح خليل البكرى أمارات الفزع فى عينيها :

- ماذا حدث ؟

وهى تنفخ بقمها :

- أف ! . البيوت بقع فى مساحات الخلاء .. لكن الشوارع ضيقة ، فلا تفى بمجرد

مرور عربة يجرها جواد ..

وهزت أصابعها فى الفراغ :

- معظم الشوارع خصصت لسير البشر والبهائم .. لا تكاد توجد شوارع لعربا
تجرها الجياد ..

روت لأمها - فى الليلة نفسها - عن الرجال الذين اعترضوا العربية أمام جاء
بيبرس الخياط ، القريب من البيت ..

العربية مغطاة بالستائر الداكنة اللون . لا يرى المارة من بداخلها ، وإن استطا
من بالداخل رؤية الطريق من زيق الستارة ..

أطل شاب يحيط رأسه بتلفيفة من الصوف . لا تبين إلا عن عينيْن أيقنت أن
رأتها من قبل ..

واجه خوفها بلهجة صارمة :

- كما ترين .. نستطيع أن نعيد العربية إلى أبيك فارغة أو بها جثة ..

قرب الخنجر من وجهها :

- لولا أنك امرأة لما ترددت فى قتلك ..

وأعاد الخنجر إلى غمده :

- سيكون القتل هو المتاح الوحيد لو أنك واصلت غيك !

أردف كالمتذكر :

- قولى لأبيك إنه ليس بريئاً من أفعالك ..

ثم وهو يضغط على أسنانه :

- لا أحد فى بيت الجودرية سيضمن حياته ..

قالت الأم فى فزعها :

- هل رأيت الرجل من قبل ؟

- لم أر إلا عينيه . كئنى رأيتهما من قبل ..
- لماذا لم تخبرى أباك ؟ .. الخطر يهدده هو أيضاً .. يهددنا كلنا ..
- لو قلت له فسيطلب أن ألزم البيت .. وهو ما لا أقوى عليه ..
- لماذا ؟

هزت كتفها :

- لا أطيق حبسة البيت !

ألفت الحياة خارج بيت الجودرية ، يتبعها ثلاثة أو أربعة من الطواشين . لم تتصور أن آخرين يتبعونها . يعرفون متى تخرج ، وإلى أين .

ظلت الأم حبيسة هواجسها . حديث جلسة العشاء أمس ، ما حدث للتاجر بشر العجيلي . هجم الحرافيش على داره ، ونهبوها . أخذوا ما فى الدار من النقود وحلى النساء والأشياء الثمينة . قنبوا الرجل ، وحملوه بعيداً عن الدار .

ظهرت جثته - بعد أربعة أيام - فى النيل ، بالقرب من روض الفرج ، منتفخة ، ومتغيرة اللون ، فهى أقرب إلى الخضرة . أما الملامح فقد تشوهت تماماً .

سرت شائعات بأن الرجل دفع حياته ثمناً للتعاون مع الفرنسيين . وتحدثت البلانة شفاعات عن رجل فاجأ صبرى فكيه مزملاتى سبيل الست بنبه ببركة الفيل ، وهو يمضى فى ظلمة قبو قرمز . نَحَه إلى الأرض كما ينخ الجمل . جرى على رقبتة بخنجر ، فانبتق الدم ، وعلت حشرجة الموت . قالت إنه كان يتخفى وراء عمله ليتجسس على المصريين ، على ما يعدة أهل القاهرة من تدبيرات وأفعال لمقاومة الفرنسيين لتتغيب عيشتهم ، ودفعهم للعودة إلى بلادهم .

الباب الخامس

فصل

شدد القائد العام على قادة جنده ، فلايد من تأديب العصاة ، والأخذ على أيديهم . يقدمون على أفعال الشر ، ثم يلونون - كعادة الأشقياء - بالزوايا والأركان . من يعود ، ويندم ، ويرجع عن غيه فإنه يلقى العفو عما فعل .

تعددت المعارك ، واتسعت ، ضد الإنجليز والعثمانيين والمماليك وأهل القاهرة والفلاحين والبدو . ما خطه على الأوراق اختلف عما التقى به فى الواقع . مبعوث الإدارة " دتوت " ذكر فى تقريره أن احتلال مصر سيكون سلمياً لبلد أعزل . أكد على مزايا الاحتلال ، ونفى احتمالات الخطر . تحدث التقرير عن المحاصيل الجديدة التى يمكن زراعتها ، تشجير المقطم لتصبح القاهرة مدينة نظيفة ، شق قناة من السويس إلى البحر المتوسط ، سهولة استيطان آلاف الفرنسيين للزراعة والتجارة . الشائعات عن الطاعون والرمد مبالغه ، ولعلها كاذبة . لم يحتمل القرار المناقشة ولا التأجيل ، حين كتب الكونت دشوازيل - جوفيه " إن مصر على عتبة البيت ، ولم تعد ملكاً للعثمانيين . الباشا لا شىء ، ومصر ليست ملكاً لأحد " .

أمر بونابرت بفرض النظام فى كل الحارات ، ولا يتجول أى شخص فى شوارع القاهرة وهو يحمل السلاح . صادر الجنود ما وصل إليه أيديهم من الجياد . اقتحموا بيت رضوان كاشف بياض الشعرية ، يصحبهم ترجمان ومهندس . أظهرت زوجة الكاشف انزعاجها . كانت - قبل أيام - قد صالحت على نفسها وبيتها بألف وثلاثمائة ريال . حصلت منهم على ورقة ألصقتها على باب البيت ، وردت ما كانت وزعته من المال والمتاع عند معارفها ، واطمأنت .

قال قائد الجنود :

- بلغ القائد العام أن عندك أسلحة وملابس للممالك ..

أهمل الضابط إنكار المرأة ، وأمر جنوده بالتفتيش . طلعوا إلى مكان ، وفتحوا مخبأة . وجدوا فيها ثياباً داخلية وفرشاً وأمتعة ودرهم ودينارين وحجاباً من الذهب نهبوا جميعاً . ووجدوا في أسفلها مخبأة أخرى ، بها عدة كثيرة من الأسلحة والبنادق والطبنجات وصناديق البارود . أنزلوا المرأة ومعها جارية بيضاء وجماعة من الجوارى السود . احتجزن في قلعة الجبل ، لم يرجعن إلى البيت إلا بعد أن دفع أهل المرأة عنها أربعة آلاف ريال أخرى ..

التفت الضابط بالذهول إلى قول الجندي :

- أعرف أن ما فعلناه حيلة على نهب البيت ..

أردف في لهجة هامسة :

- لماذا نفعل كل هذا ؟

قال الضابط :

- نحن ننفذ الأوامر ..

وبدون أن يلتفت ناحيته :

- ليس من حق الجندي أن يناقش أوامر قاداته ..

فصل

فاجأ القائد العام الشيخ خليل البكري بالسؤال :

- لماذا يرفضنا المصريون ؟

وارتسمت الحيرة على ملامحه :

- نحن لا نفعل إلا ما يفيدهم ..

التف الناس حول موكب القائد العام فى أثناء عودته من بيت شيخ السادات .
تعالّت أصواتهم بكلمات لم يفهمها ، وإن داخله خوف حقيقى . لم يكن فى كلمات
الناس ما يخيف ، ولا ما يحمل معنى الرفض . كانوا يقرءون الفاتحة ، ثم يعيدون
قراءتها بأصوات متألّفة ، عالية ..

بهرت الشيخ البكرى شروح آلات علماء الفرنسيين وأدواتهم الفلكية وعلمهم
الدينوى وتنظيم الديوان . هن رأسه ، وأهمل ما قرأه للشيخ عبد الرحمن الجبرتى ،
حين دخل الفرنسيون القاهرة : " وهى أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ،
والوقائع النازلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ،
وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد
التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب ، وما كان ربك يهلك
القرى بظلم وأهلها مصلحون " .. تداخل فى الفرنسيين ، بينما فر النقيب عمر مكرم
إلى بلاد الشام . اقتنع القائد العام بأن النقابة كانت لأسرته ، وأنها اغتصبت منه .
أمر القائد العام ، فقلدت له النقابة ، وحصل على وقفها وإيرادها ، وانفرد بسكن البيت .
صار له قبول عند الفرنسيين ، وجعلوه من أعظم رؤساء الديوان الذى كانوا نظّموه لإجراء
الأحكام بين المسلمين . أمسى وافر الحرمة ، مسموع الكلمة ، مقبول الشفاعة عندهم ..

فصل

مضى فى الشوارع الضيقة الملتوية ، القصيرة . تتقارب فيها شرفات الدور
المتقابلة ، وتزدحم بالمارة والدواب ..

المسافر خانة ، لها ثلاثة أبواب : اثنان فى درب المسط ، أحدهما الباب العام ،
والثالث فى درب الطبلوى . الباب العام يؤدى إلى ردهة تفضى إلى صحن كبير ،
مكشوف . على اليمين قاعة تضم إيوانين ودرقاعة ، صفت فيها النارجيلات والطسوت
والأباريق . فى الجهة الغربية باب يفضى إلى سلم ، بجواره باب آخر يؤدى إلى فضاء

تحتل الحديقة جزءاً منه ، تحيط به أربعة أروقة ، كل رواق يضم خمس حجرات ، وفى الزاوية حجرة مستقلة ، منزوعة الباب ، ومفروشة بالحصير لآداء الصلاة جماعة ..

تلقت المعلم شيخة وراءه ، يطمئن إلى غياب المتابعة ، ثم دخل من الباب الجانبى ، الصغير ، المفضى إلى الحديقة .

قال الشيخ فضل بعروى مبلّغ جامع الحاكم بلهجة متشككة :

- هل هناك مهدى آخر غير شيخ السادات ؟

قال نصر السباعى التاجر بالموسكى :

- لو أن أحدهما كما يزعم ، عليه أن يطرد الفرنسيين من بلادنا ..

قال الشيخ بعروى :

- لكن العلماء يرون أن شيخ السادات هو المهدى المنتظر !

تقابل الرجال فى جلساتهم على الأرض ، بينما توسط الشيخ المهدى الغرفة الواسعة ، المغلفة ..

كان يرتدى أخضر فى أخضر : العمامة والعباءة والخف . حتى الشال على كتفه أخضر اللون .

فتح الشيخ غطاء الحلة الكبيرة . تصاعد بخار يشى بماء مغلى ، ملئ بخليط من الأعشاب . طقطقت الأعشاب ، وومضت ببروق صغيرة .

طلب الشيخ من المريدين أن يقفوا فوق البخار منفرجى الساقين ، وهو يغمغم بأدعية ، ومجموعة من الرقى ، تجبر القوى الخفية على طاعة الإنسان .

كان المعلم شيخة يتردد على مسجد النقيب بالحسينية . بناه الشيخ بدر المقدسى . يقضى أطول الأوقات فى حضرة شيخ الصوفية . يسأل ، ويناقش ، وينهل من علمه .

أولاه الشيخ ثقته ، ومنحه بركته ، وقربه إلى نفسه ، وأعطاه خاتماً من الجشمت الأزرق يضعه فى إصبعه ، فيشفيه من إدمان السكر ..
اعتقد الناس فى الشيخ الولاية والسلوك والجذب . تنافسوا فى الاتصال به ، والظفر بمرضاته ، والإفادة من بركاته ومدده ..

عرف عن الشيخ استغراق العبادة ، والبعد عن الدنيا ، وصدق التنبؤات ، وقراءة الطالع ، والرجم بالغيب ، وتوقع أحوال الجو . بالنظر إلى الشمس ، أو القمر ، أو حتى ارتفاع ضوء المصباح العادى أو انخفاضه فى داخل البيت . إذا ألحت البومة فى نعيقها عند حلول المساء ، تتغير نفسه إن اختفت النجوم وراء سحب فى السماء الصافية . يجاوز - فى تخوفه - معتقد الناس من اختناق القمر بأيدي بنات الحور . قد يمتد الخطر ، ويتسع . يصبح كيوم القيامة . نسب إليه من الأمور العظيمة ما لا يقوى عليه إلا أقطاب الأقطاب من مشايخ الصوفية . وكان يخالف - بأفعاله - نواميس الكون ، ويعلم الغيب ، ويأتى بما لا يتصوره إدراك البشر من الكرامات والمعجزات والخوارق . يحرك الجمادات ، ويخاطب الجن ، ويظهرهم لمن يريد أن يراهم ، ويتصرف فى الكون بالحياة والموت . إذا لمس أى شىء ، حلت عليه البركة . يجد الجائع طعاماً ، والمريض شفاء ، فإذا تحسس ما بين فخذي امرأة عاقر ، جاءها الحمل بإذن الله . أكدت الروايات على أن الشيخ يمتلك سر استخلاص الذهب من أى شىء تلمسه يده ، ويقدر على إبطال الرصاصات عندما تنطلق من الغدازات والبنادق ، وإبطال القنابل وهى فى الهواء . لم يكن له عمل ولا إيراد ولا يمد يده لأحد . عرف الناس أنه ينفق مما تجود به السماء ، ما تخصصه به السماء وتقصره عليه ، فهو ينفق فى هيئة من لا يخشى الفقر . يرتب للفقراء والعميان أكسية الصوف عند دخول الشتاء فى كل سنة ، ويولم لهم أسمطة القصاع الكبار المملوءة بالثرديد المسقى بمرق اللحم والسمن .

أكثر المعلم شبيحة من التردد على الجوامع فى أوقات الصلاة ، وزيارة الأضرحة ، والمقامات ، والمشاركة فى مجالس الحضرة وحلقات الذكر . مال إلى تضوع البخور ،

والابتهالات والأدعية ، والوجد ، والأناشيد المفعمة بالحنين ، والشوق للإبحار إلى مدن
السحر ، والإنصات لأصداء الأغنيات البعيدة .

المعرفة هي المنارة الهادية إلى طريق الله . فتح القلوب هو سبيل الاستضاءة بنور
الله يمضى المتصوفة - غالب أوقاتهم - فى تلاوة القرآن الكريم ، والأوراد المنيفة ،
والأذكار ، والتسابيح ، والأدعية . يتخلل تلاوتهم أدعية بنصرة المسلمين
على قوات الكفار .

للمصوفية تأثيرها الغلاب ، من خلال الطوائف الحرفية . ساعد انخراطها فى
الطرق الصوفية على الاشتراك فى الانتفاضة التى بدأت تسرى فى أحياء القاهرة .
طائفة الجزارين فى حى الحسينية ارتبطت بالطريقة البيومية ، تجار الفاكهة والحبوب
فى باب الشعرية ارتبطوا بالطريقة الشعرانية ، تجار الخضر من القلعة إلى الخليج
ارتبطوا بالطريقة الرفاعية ، وهكذا . يتخاطبون بالرموز والأحاجى وكلمات السر ..

يشترى - ولو بالتظاهر - بعد صلاة العشاء - أنواع الفاكهة والتوابل ، وألوان
السكر والحلوى . تنتظر الزوجة صوت عصاه وهى تصطدم بدرجات السلم عند قدومه
إلى البيت . ترنو إلى باب الحجرة ، تتوقع قامته الطويلة ، الممتلئة ، ورأسه التى
أطل شعرها الأبيض من تحت الطربوش الأحمر ، المحاط بطيات القماش الأبيض ،
ووجهه الأسمر ، وشاربه المتهدل على جانبيه فمه ، والسحجة فى زاوية الجبهة
اليمنى إلى ما وراء الأذن ، والقفطان المتدلى إلى كاحل القدمين ، ودائرة البياض حول
الوجه ، والعباءة الملقاة على الكتف بدلاً من وضعها على الرأس ، والخف المغربى دس
فيه قدميه ..

كان مختار الرمادى يختلف مع المعلم شيخة فى النظرة إلى الشيخ المهدى ، قطب
الصوفية . يثق المعلم شيخة فى الشيخ ، ويؤمن ببركاته ، بينما مختار الرمادى سئئ
الاعتقاد بالشيخ ، والمتصوفة ، وأهل الحال والطريق . لم يصدق أن الشيخ عدل عن
انشغاله بأمور لا تتصل بواقع الناس ، ولا أمور حياتهم . اكتفى - لأعوام طويلة -
بالتأليف فى الطهارة والنجاسة والتفنن فى الأوراد والأذكار التى تفقد الإنسان وعيه .

كان رأى مختار الرمادى أن القوة وسيلة طرد الفرنسيين ، وليس رفع الأعلام والبيارق والدعوات وحلقات الذكر ..

أيقن أهل الحى - ذات يوم - أنه لا أحد يقف فى وجه المعلم شيحة ، وأنه يستطيع أن يفعل كل شىء .

اكتفى من التعلم بسنوات الكتاب . تردد - فى صباه - على حرافيش الخلاء والمناطق البعيدة . أخضعوه - بإرادته - لدروس فى خوض المعارك ، واستخدام العصا المطواة والشومة والبلطة ، وتفادى الضربات ، وإجادة التصويب دون أن يقتل خصمه . أجاد ركوب الجواد بدون لجام ولا سرج . عرف الطريق إلى البوظ والخمارات وبيوت الليل . تحدى فتوات الأحياء والسراة والرياح والصواعق والأمطار والشمس الحارقة والخلاء والأفاق الغامضة . أغار على أحياء القاهرة الثمانية . خاض معارك مع الفتوات والحرافيش والزعر دون أن يستطيع أحدهم هزيمته ، أو الوقوف أمام ضربياته . يتحول إلى عفریت من الجن ، يتقافز ، يطير ، تتوالى ضربياته بما لا يقوى على رده أحد أخضع الجميع لسطوته . لم يعد يقدر على منازلته ، أو التصدى له إنس ولا جان ، ولا يستطيع مخلوق أن يجاهر بعداوته له . حتى جنود الوالى العثمانى ترصد لهم ، ونالهم بأذاه ، وإن لم يغادر بيته القريب من جامع طولون . تفاخر به أبناء طولون وقلعة الكبش وحارة الروم وسوق السلاح وعطفة نافع وحارة الشماشرجى .

جعل مختار الرمادى أقرب معاونيه ، وأنصت إلى ملاحظاته ونصائحه . علمه فنون القتال ، والصبر على الأذى ، وحيل اصطياد الخصوم . وإجادة استخدام الشومة ، والمطواة ، والسكين ، وضرب الروسية : فاجئ خصمك قبل أن يفاجئك . إذا شككت فى نيته ، فلا تدعه يشغلك بالكلام . هو يرخى الحبل قبل أن يلفه حول عنقك . اقذف بحبلك دون تردد . اضرب ، واضرب . لا تترك له فرصة التفكير ولا التدبير ، ولا حتى التقاط الأنفاس . من يهزم فإنه يقتل ، أو يلزم بيته .

حين أعلن المعلم السبيلى فتوة بركة الفيل تحديه - فى أيام رقاد المعلم شيحة بالمرض - مضى إليه مختار الرمادى . اشتبكا فى معركة بالجنائزير والمطاوى ، حتى

سقط السبيلى غارقاً فى دمه . وعاد الرمادى إلى طولون دون أن يصيبه خدش ..
أزعجت المعلم شيخة فكرة أنه سيموت يوماً . يفلح فتوة فى قتله ، يتام فلا يصحو ،
يعانى الحشرجات التى تسبق طلوع الروح .

انضمام المعلم شيخة إلى الطريقة الرفاعية بدّل حياته : مال إلى الدعة والاطمئنان
والركون . تخلى عن كل ما يؤذى الناس ، واقتصرت حياته ما بين البيت والمساجد
والزوايا ومقامات أولياء الله الصالحين . عالمه المآذن والقباب والمقامات والأضرحة
وحلقات الذكر والأروقة والخانات والتكايا والزوايا ، وقراءة الأوراد والتعاويذ والصلوات .
يحرص على زيارة المشهد الحسينى ، ومقام رئيسة الديوان ، وأضرحة الإمام الشافعى
وعمر بن الفارض ومحمد الحنفى والشعرانى ، وسائر المزارات المباركة . يقرأ الفاتحة ،
ويلامس المقصورة ، ينشغل بالمدارات والمقامات والأحوال ، وينشد روح الله ، ويطلب
النصفة والمدد . صارح زوجته بأنه - لولا حاجتها إليه - كان يحقق أمنية تشغله بالذهاب
إلى الحجاز ، والمجاورة قرب الكعبة ، فلا يعود . بلغ إشفاقه على المرأة حد تمنيه أن
تموت قبله ، فلا تحزن على موته .

صار - منذ دخل الفرنسيون القاهرة - يمضى جزءاً من يومه فى سوق السلاح ،
ويقضى الفترة ، من صلاة العصر إلى صلاة العشاء ، فى جامع السيدة فاطمة النبوية ،
ويشارك فى حضرة الرفاعية بالسيدة نفيسة ، حتى مطلع الفجر ، وإن ظل على عشقه
للتحطيب ، ورقص الخيل ، وسماع عازف الربابة .

هل يطيل الله فى عمره ليشهد خروج الفرنسيين ؟

الباب السادس

فصل

سأل القائد العام عن المولد النبوي : لماذا لا يحتفل به العلماء ؟

حاول أن يترسم خطى الإسكندر المقدوني بالإفادة من النوازع الدينية لدى المصريين . أعد - قبل نزول الحملة إلى الأرض المصرية - منشوراً باللغة العربية ، أمن فيه المصريين على دينهم . وعمل على النفاذ إلى المشاعر الدينية ، ومحاولة استمالتها ، أعلن أنه - وجيشه - يحترمون الإسلام والمسلمين ، وكرم الفقهاء والعلماء ، واستضافهم ، وحضر مجالسهم ، وغيرها من المظاهر التي تسعى إلى استمالة مشاعر المصريين الدينية . أوصى رواته - صار له رواة ينتشرون في الأسواق والمقاهى والخلوات - أن يتحدثوا عن ظهور النبی للسلطان الكبير - يقصدون بونابرت - وقوله له : اجهر بإيمانك في انتظار هذه العلامة ، وسأخضع أسيا كلها لسلطانك . التمس السلطان الكبير من الرسول - في الرواية - مهلة سنة يعد فيها جيشه ، فمنحها له النبي . تعهد بونابرت بأن يبني جامعاً أكبر من الأزهر ، وأن يحرض ضباطه وجنوده على اعتناق الإسلام . وقال رواته إنه يخلو إلى تلاوة القرآن معظم الليل ، يطهر به نفسه ، ويمسح عنها أدران ما سبق .

قال نابليون لكبار قواده : لقد حقق الإسكندر بعبوره الصحراء في زحف لم يستغرق غير أسبوعين من الإسكندرية إلى معبد آمون بسيوة ، واستقبال الكهنة له بوصفه ابن جوبيتر ، من حيث تثبيت دعائم فتحه للبلاد ، أكثر مما كان يحققه لو بنى عشرين حصناً ، وعزز جيشه بمائة ألف من المقاتلين المقدونيين . وقال نابليون : ليس الذي يعجبني في الإسكندر الأكبر حملاته الحربية ، بل أساليبه السياسية . كان محققاً حين أمر بقتل بارمينون الذي عارض - بحماقته - تخلي الإسكندر عن التقاليد

الإغريقية . وكان منتهى حسن السياسة منه أن يذهب لزيارة معبد أمون فهو بهذا فتح مصر . ولو أنني مكثت في الشرق فسأقيم على الأرجح دولة تفوق دولة الإسكندر بذهابى إلى مكة للحج . فتح مصر معناه إقامة مملكة شرقية عظيمة ، يسكنها أربعون أو خمسون ألف بيت من الأوروبيين ، يدخلون إليها صنائعهم وشرائعهم وإداراتهم . يصبح من الميسور القضاء على سلطة الإنكليز في الهند . قال :

- لكي ندمر إنجلترا ، فلا بد أن نستولى على مصر .

أشار عليه الكيماوى برتوله باصطحاب جماعة من العلماء :

- أنت تريد مملكة أوروبية ، فانتقل إليها تقدم الأوروبيين ..

أحضر معه اثنين من علماء الفلك : وأربعة من علماء الهندسة ، وعالمًا في الجيولوجيا ، وعالمًا في الكيمياء ، وثلاثة من علماء الطبيعة ، وستة من المهندسين المدنيين . نزع - في طولون - زيه المدنى ، وارتدى زى القائد العام .

بدأت الرحلة طويلة من طولون إلى الإسكندرية . شغلها مع أركان حربه من الضباط ، ومع العلماء ، في أحاديث متشابكة وممتدة ، في السياسة والاقتصاد والحكم والدين والخطط الحربية والكيمياء والفيزياء . سأل عن الأرض : هل هي الكوكب الوحيد الذى تسكنه الكائنات ؟ وكم عمر الأرض ؟ وهل يعد حلم يوسف فى التوراة تأكيداً لتفسير الأحلام ؟ وما الحدود التى ينبغى أن توضع بين حق الملكية ، وممارسات السرقة والاعتصاب ؟..

اتجه إلى العلماء بأسئلة عن البلد الذى تتجه إليه الحملة : هل توجد طريقة لتتقية مياه النيل من الأوساخ ؟ هل من الأفضل إقامة طواحين ماء فى مصر ؟ ما هى المواد المحلية التى تصلح لتصنيع البارود ؟ ما وسائل تحسين النظام القضائى والتعليمى ؟ هل يمكن زراعة العنب ؟ ما إمكانية حفر آبار فى الصحراء ؟ هل يمكن تزويد قلعة

الجبل بالمياه ؟ ما مدى إمكانية الإفادة من كومات القمامة المحيطة بالقاهرة ؟
ما إمكانية بناء مرصد ، ومقياس على النيل أكثر ملاءمة من مقياس الروضة ؟ ..
ربما علت الحناجر بالأغنيات العاطفية ، والحماسية ، والمعبرة عن الحنين ..

اعتذر الشيخ البكرى بتوقف الأحوال ، وتعطل الأمور ، وعدم المصروف . طرّق
إصبعيه بما يعنى افتقار المال . لم يشر إلى رفض أهل البلد أن يقيموا احتفالاتهم فى
وجود الفرنسيين ..

قال القائد العام :

- لابد من ذلك ..

وضع فى يد الشيخ ثلاثمائة ريال فرنسى ، لتغطية احتياجات المولد من المصابيح
والمشاعل والفوانيس ، وقال :

- لابد من الاحتفال بهذه المناسبة !

أمر القائد العام بتعليق وأحبال وقناديل . اجتمع الفرنسيون يوم المولد . لعبوا
الميادين ، وضربوا الطبول والدياب ، وضربوا الطبخانة الكبيرة أمام بيت البكرى .
تواصل ضربها طول النهار والليل بالبركة تحت البيت . ثم عملوا حراقة نفوط مختلفة
وصواريخ ، تصعد فى الجو ..

طاف الخدم باكواب القهوة وماء الورد والشربات والزنجبيل ..

وثق خليل البكرى مصيره بالفرنسيين منذ اجتمعوا يوم المولد . ارتدى الفروية
بتأنيدهم ، وتقلد نقابة الأشراف فى حضور أعضاء الديوان . نودى فى المدينة بأن كل
من كان له دعوى على شريف ، فليرفعها إلى النقيب . ظل على حبه للامسة الأشياء
الجميلة ، والجوارى ، والفلمان ، والطعام ، والأغنيات ، والموسيقا ، وإنشاد الشعر ،
ورائحة البخور ، وبريق الرخام ، والأثاث الفاخر ، والزهور ، والحكايات المنسقة ، وبكل
ما يدخل المتعة إلى النفس . حرص - فى أثناء زيارات القائد العام إلى بيته - أن يحدث
فى نفسه انطباعاً جديداً . يقدم الأبهة ، والمأكولات الفاخرة والأطباق المزينة بالأحجار

الكرامة والنقوش المحفورة والنقوش البارزة ، والأكواب الذهبية والفضية ، وستائر الجدران والشرفات المطرزة بالذهب والأرجوان ، والموسيقا ، والغناء ورقصات الدراويش وأولاد عبد السلام . خصص لبونابرت أريكة فى صدر القاعة الكبيرة ، واستقبله - مرة - وهو يرتدى عباءة مزدانة بالأحجار الكريمة .

تقدم علماء الأزهر وشيوخ الصوفية والمريدون والمسلحون بالشوم إلى قصر القائد العام . يملأون - فى نجمة الفجر - ساحة ميدان الأزبكية . يؤدى الجند التحية ، بأمر من القائد العام . يستقبلهم الخدم بالتوقير والتجلة . يقدمون الشربات والقهوة . يدخل القائد العام ، فيتوسط مجلس العلماء . يسأل ، ويجيب ، ويبذل الود . ربما سأل عن معنى عبارة ، أو آية ، فى القرآن الكريم . يظهر تقديره للإسلام وللرسول الكريم . أهمل بونابرت قول ديبوى - يدرك نفوره من المصريين ، وأنهم لا أكثر من مخبولين : - نحن بهذا الاحتفال نخدع المصريين بتعلقنا المزعوم بديانتهم التى لا يؤمن بها سيدى الجنرال ولا أحد من ضباطه أو جنوده .

قال القائد العام :

- هذا الشعب تسيطر عليه الأفكار الدينية منذ أقدم عصوره .

وجرى بسيفه على الأرض فى دوائر :

- لما جعل الإسكندر كاهنة معبد آمون تستقبله بوصفه ابن جوبيتر .. كان يعى عقلية المصريين .

استمال المشايخ البكرى والشرقاوى والمهدى والصاوى والسادات . ضمهم إلى الديوان ، فيقودون الناس إلى ما يريده . أعلن أن سلوك المشايخ جاء على خير ما كان ينبغى . تطلع إلى استمالة بقية العلماء .

ظل القائد العام فى وقفته على باب الردهة الواسعة ، حتى انصرف آخر العلماء . يتوقع أنهم ينصرفون إلى الجوامع والمساجد والزوايا وأماكن التجمعات ، وأنهم جاءوا ليقبوا . العكس ما كان يحدث . تهمس التحذيرات والأوامر بأن تظل النفوس صاحبة ،

حتى يحين أجل من فرضوا أنفسهم على المصريين . ينضحون بما ينبغي فعله . تمتد
الهمسات إلى أحياء القاهرة ، فتزيد النار اشتعالاً ..

خالف البكرى - للمرة الأولى - أفعال العلماء . أذن للفرنسيين فأضاعوا منزله
بالأنوار الساطعة ، مثلما أضاعوا بيت القائد العام وبيت الجنرال دييوى . تقدم مواكب
الصوفية ، تحمل البيارق والأعلام . تنشد المدائح والابتهالات والأدعية . توسط حلقة
الذكر إلى صلاة العشاء . تقدم - بعد الصلاة - إلى الجودرية ، ضباط الفرنسيين وحملة
المشاعل وفرقة الموسيقى . أحرق النفط ، وأطلقت الصواريخ ، وأطلقت المدافع طلقاتها
أمام البيت . ودعا قائد الفرنسيين إلى طعام العشاء . حيا القائد نقيب الأشراف ،
وأهداه عبادة من الفراء . شجعه على قبولها حضور أعضاء الديوان والمشايخ المصرية
من الثغور والبلاد والمجاهقات ونصارى القبط والشوام ومدبرو الديوان من الفرنسيين .
حتى العلماء الذين ضمهم سارى عسكر فى الديوان الخصوصى وكبار رجال الحرف
وأعيان التجار فى الديوان العمومى . حركتهم المسائرة ، فلا تطأ أقدام الجند - ثانية -
ساحة الأزهر ..

ارتفعت البيارق - ذات اللونين الأحمر والأخضر - فوق السوارى فى ميدان
الأزبكية ، وأقيمت السرايدات فى أرجاء الميدان ، وسارت مواكب الصوفية ومنشدى
المدائح النبوية والأدعية والابتهالات ، وحلقات الذكر ، وحملة المشاعل والبيارق ، وعازفى
الآلات ، ونافخى الأبواق ، وركب ضاربو الطبول الجمال ، واعتلى بقية العازفين ظهور
الحمير . تقدمت الموكب فرق الموسيقى التركية والفرنسية . جرى التوسع فى الأضواء .
أضيئت البيوت والجوامع والشوارع والأسواق ، وواجهات البيوت والمحال . تأخذ
المصاييح المعلقة هيئة أشجار صنوبر ضخمة ، أو شكل أهرامات متتالية . ازدانت
القوارب الشراعية بالأعلام ، وانطلقت الشهب والألعاب النارية والصواريخ والمفرقات .
حتى الباعة زينوا عرباتهم بالأوراق الملونة ، احتفل الناس فى الطرقات . نثر الآلاف من
قطع المدينى ، تنافس على التقاطها الفقراء من أهل القاهرة ، وألقى التاجر أحمد
بسطاويسى للناس صرة مليئة بالذهب ، نذراً لشفاء أصغر أبنائه من مرض تهدده

بالمسوت . مدت الأسمطة الزاخرة بأشهى أنواع المأكولات ، وأنواع الحلوى ،
وتعالت أصوات الآلات الموسيقية ، وتكلمت أحاديث المقاهى والخلوات عن
خضوع القائد العام لعملية الختان ، واستبدال العمامة بالقبعة ، وإعلان اتباعه
دين الإسلام ، وتلاوة سور - أو آيات - من القرآن كل يوم ..

مع ذلك ، فإنه لم يحضر الاحتفال سوى عدد قليل من المتسكعين بقلوب منكسرة ،
ونفوس ضعيفة ، واعتكف أغلب الناس فى بيوتهم ، فى نوع من الاحتجاج والرفض .
احتفلوا داخل البيوت ، والإحسان بالصدقات ، وتلاوة القرآن فى الجوامع والمساجد
والزوايا ، حتى مطلع الفجر .

عاد الشيخ الشرقاوى إلى بيته يعانى الحيرة لارتداء نابليون العمامة والجبّة
والقفطان ، تردد - من قبل - على بيوت كبار المشايخ ، جلس القرفصاء ، تناول الطعام
بيديه ، مثل المشايخ تماماً ..

فصل

مد المعلم شيحة قدمه ، تتحسس البلغة أسفل الكتبة . قال وهو ينقر الأرض
بعصاه فى توتر واضح :

- مختار يغطس ويقب ولا يخبرنى أين ذهب ..

ووشى تساؤله رنة غضب :

- هل أصبح يملك من الأسرار ما يخفيه عنى ؟!

سكت المعلم شيحة . أصاخ سمعه لما يدور فى الخارج وهو يشير بالصمت .
تنهد ، وأسند رأسه إلى الكتبة .

التقط من العلبة الصفيح الصغيرة بطرف إصبعه . قرّب الإصبعين من فتحتى
أنفه . شم بقوة ، وعطس :

- نوبات الفرنسيين كثيرة هذه الأيام ..

قالت الأم :

- ضررنا تنحسر على أيام الممالك ..

وتنهدت :

- ما نعانى على أيدي الفرنسيين أشد ظلماً وقسوة !

قال المعلم شيخة :

- لا أسوأ من الفرنسيين إلا الممالك ..

تؤذيه سيرة الممالك ، يحملهم كل ما يعانىه المصريون . عانى - مثلاً عانى أبناء القاهرة - من معارك الممالك . يتطاير الرصاص ، ويتعالى قصف المدافع ، وترتطم الشوم والعصى ، وتنقب البيوت ، ويحصل القتل والحرق والنهب على أبناء البلد من المصريين . يمتد الضرب إلى الحارات والعطوف والدروب والأزقة .

شغلوا بفرض الإتاوات والضرائب ، وبالعز ، والأبهة ، والقصور الهائلة ، والعبيد ، والخصيان ، واقتناء الجوارى ، والجياذ ، والذهب ، والجواهر ، والثياب الفخمة ، والسيوف المذهبة لا تخرج من أغمدها إلا لتطيح برقاب أبناء البلد . يركضون بجيادهم فى الطرقات ، يصدمون الرجل والمرأة ، ويدوسون على الصبى . لا يعبأون بالتحذيرات ولا الصرخات ، ويواصلون شق الزحام بسنابك خيلهم .

زادت الأعوام التى أمضيها فى حكم مصر على العشرين عاماً . عانى فيها المصريون صراعاتهم واقتتالهم . أثمرت عداواتهما عداوة المصريين لهما ، عداوة ترفض ، وتسخط ، وتأمل فى تغير الحال . اضطربت الأمور ، وتعددت وسائل العداء . أهمل المعلم شيخة معاركه مع فترات الأحياء . قادمهم إلى عراك الممالك . تدافعوا لإنهاء دولة الأمراء ..

دخل فى خناقة مع العدائين المسلحين بالشوم فى اندفاعهم لإخلاء الطريق أمام المملوك التركى . أملت الضربة كتفه ، فاخطفها ، وأعادها إلى جسد الرجل ضربة فى

صدره . أطاح - بمهارة جعلت زعامته لفتوات القاهرة موضع اطمئنان - بكل الشوم والهراوات التى تدافعت لأذيته . أقبل على صيحاته من الشوارع الجانبية والعطوف والأزقة ، عشرات الرجال يحملون العصى والجريد والهراوات . لكن المملوك جواده ، ففر بحياته . تبعه من لم تلحقه ضربات الرجال !

حين نهب ممالك حسين بك شفت بيوتاً فى الحسينية ، شارك أهل القاهرة احتجاجهم وهياجهم على أمراء الممالك . اتجهوا إلى الجامع الأزهر ، يتبعهم أعداد كبيرة من العامة والجعيدية ، بأيديهم نيابيت ومساق . أغلقوا أبواب الجوامع ، وطالبوا بضرورة إقرار العدل ، والشرع ، ورفع الظلم والجور ، وإبطال الحوادث والمكوسات المبتدعة . صعد منهم طائفة أعلى المنارات ، يصيحون ، ويدقون الطبول .

قال الشيخ الدردير لمن لجأوا إليه فى الأزهر :

- فى غد نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم ، وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء ، أو ينصرنا الله عليهم .
والتمعت عيناه بالغضب :

- قدم الممالك إلى بلادنا خدماً .. ثم تحولوا - بضعف الحكام - إلى سلطة أقوى من سلطة الحكم ..

أدرك الممالك خطورة الأمر ، وأن الإمساك بطرف الخيط لابد أن يؤدى إلى نهايته ، نهاية ليست مأمونة بحال . تعهدوا بإحضار كل ما أخذه أعوان حسين بك شفت من منهوبات . كان واحداً من الناس الذين تجمعوا حول الأمراء الثلاثة : حسين بك الشفت ، ومراد بك ، وإبراهيم بك .

قال الشفت لإبراهيم أمام الجميع :

- أنت تنهب ، ومراد بك ينهب .. وأنا أنهب كذلك !

تعددت مرات صعوده إلى مآذن الأزهر للدعاء على الأمراء ، ودفع المصريين للتمرد عليهم . لو أن أمراء الممالك عنوا بالتحري عن قوات الفرنسيين ، ببصاصيهم

الذين ينكون على الناس أيامهم ؟ من أين تأتي ؟ وإلى أين تتجه ؟ وما عددها ؟ وماذا تحمل من سلاح ؟ وهل يمكن تعويقها ؟ .. لو أن ذلك حدث ، ربما تغير الحال ، وما صارت القاهرة ثمرة ناضجة سقطت - بسهولة - فى يد الفرنسيين ..

لم تداخله شفقة لرؤية أسرى المماليك ، بعد أن أطلق بونابرت سراحهم . دخل الكثير منهم إلى الجامع الأزهر ، وعليهم أسمال رثة . أكلوا من صدقات الفقراء المجاورين ، وتكففوا المارة . روح التثييط امتدت منهم إلى أهل مصر ، منذ بدأ المماليك - عقب نزول الفرنسيين إلى الإسكندرية - فى نقل حريمهم وأولادهم وثرواتهم فى بيوت الأتباع والخدم خارج القاهرة . تملكته فورة من الانفجالات وهو يصرخ فى المماليك الفارين : يا ظالمين . أنتم سبب هذه الداهية !

تنبه الفرنسيون إلى السراييب والأنفاق التى شققها المصريون تحت الدور والشوارع والميادين - حفر الرجال سراييب تربط قلعة الجبل بالشوارع والأزقة التى تطل عليها ، وبين الميادين والشوارع والخلاء فى داخل القاهرة . يتخفى فيها المسلحون . يصعدون فى الموضع المحدد ، فى الوقت المحدد . يباغتون جنود الفرنسيين بالغدارات والشوم والسكاكين . لحظات ، ويختفون ، كأنما تحيا تحت الأرض مدينة أخرى ، لا شأن لها بالغزو الذى يحتل القاهرة .

حفر الرجال سرداباً من البيت المطل على النيل . ينتهى على بعد أمتار فى عمق النهر . يقيدون الجندى الفرنسى المقتول ، مع أثقال . يظل فى موضعه تحت الماء حتى يتهراً ، أو ياكله السمك ..

أبلغ الارصاد بونابرت بشخص المخطط ، والمدير ، لكل ما يجرى من عمليات ضد الفرنسيين ..

قال القائد العام للجنرال مينو :

- يبدو أن المصريين يحسنون لغة العثمانيين وحدها .

وشاعت فى صوته نبرة غضب :

- عليك أن تقطع كل يوم خمس أو ست رويس فى شوارع القاهرة .

فصل

لاحظ تحديقها المتأمل من خصائص المشربية المطلة على الجودرية . أطل من فوق كتفها . التف المستند إلى البناية المقابلة فى الظلمة الشفيفة . لم يميز ملامحه ، وإن فطن إلى معنى الوقفة . شهق للعينين الخضراوين والشعر الأشقر .

- لكلك ابنة شيخ ..

واجهته بعينين متحدثتين :

- لم تعد الأمور كما كانت ..

وأومات بلهجة متواطئة :

- الفرنسيون الآن منا ، ولم تعد الصداقة جريمة ..

ألزمها القعود فى حجرتها ، لا تتركها - ثلاث ساعات - حتى لقضاء الحاجة . لا ترى أحداً ، ولا يراها أحد . ركبها جنى أو شيطان . لا نجاة لها إلا فى شم البخور الذى أجادت زمردة إعدادة ، وضوّعت به مساحة الحجرة .

كأنه أطلق شرارة تصرفاتها التالية . لم تعد تكتفى بالوقفة وراء خصائص المشربية . تهز كتفها ، وتنزل إلى الطريق . رأت الفرنسيين فى الطرقات ، يصحبهم نساؤهم ، حاسرات الوجوه ، يرتدين الفساتين والمناديل الملونة ، ويركبن الخيل - وبخها أبوها على ركوبها ! - والحمير ، ويضحكن على السجية ، ويداعبن المكارية . تفضل ساعة قدوم الليل . تساعدها الظلمة والثوب الذى يخفى الوجه والجسد ، تترك البيت من الباب المطل على الشارع الخلفى . يسبقها الطواشى ، وتتبعها الخادمة ..

سئمت التنقل بين السرير فى حجرة النوم ، والتمدد على السرير مقابل المرأة التى توسطت الجدار ، وامتدت من الأرض إلى قرب المنتصف ، والانتكاء على الوسادة

فى القاعة المظلة على الغناء . تلبى الجوارى والخادما ما تطلبه . لا تعرف عما يدور فى العالم الخارجى إلا ما يتناهى إلى سمعها من مناقشات زوار أبيها . جعل أبوها فى بيت الأزيكية أنواع الولائم والعزائم والضيافات والسماعات والآلات وجميعيات الحظ والفرجة . تترامى إليها أصداء ذلك كله - من خلال روايات الأغوات والخدم والعبيد - فى حجرتها العلوية المظلة على الحديقة الخلفية ، يترامى الأفق من ورائها فى الأرض الفضاء ..

القائد العام يحبها ، وهى تحب القائد العام . القائد العام رجل ، وهى فتاة ، أنثى . التقطت أذناها - وهى تدخل الحمام - حديثاً عن علاقة أبيها بـ غلام ، دخل خصومة ليحتفظ به . تهاومت الأفواه عن الخصومة بين أبيها وأغا الانكشارية على غلام من الممالك . له حسن - فى الهمسات الضاحكة - يفوق ما لدى النساء . لجأ أبوها إلى المسئول الفرنسى بوسليج . قضى له أن يحتفظ بالـ غلام لقاء تنازله للأغا عن عقار قيم ..
ما الصح ؟ وما الخطأ ؟ ..

لاحظت الأم كثرة خروجها للحمام ، أو لزيارة صديقة لها . خمنت أنها تخرج لسبب لا تصارحها به ، وتخفيه . توقعت - من يوم أبلغتها زينب بمفاجأة الرجل بالقرب من جامع بيبرس الخياط ، أن يقدم الزعر على أذى ابنتها ، يقتلونها ، أو يخطفونها لا بتزآن أبيها ، أو حتى يؤنونها بالضرب .

فصل

أذهله اقتحام زينب مجلس زواره . عدد كبير من أولاد الكتاتيب والفقهاء والعميان والمؤذنين وأرباب الوظائف والمستحقين من أوقاف عبد الرحمن كتحدا والمرضى بالمارستان المنصورى . الأحاديث تشرق وتغرب ، وإن لم تجاوز ما ألفته المجالس . علت الشكوى - فجأة - من توقف تسليم الرواتب والجرايات من الخبز ، لتوقف إيرادات الأوقاف ..

قال شاب يهز عمامته بيده :

- نحن نلجأ إلى أهل الشرع للتوسط عند الفرنسيين كي يزيلوا ما نزل بنا من إجحاف .

قال رجل تشى نظرتة الثابتة بغياب بصره :

- قطعت رواتبنا وخبزنا لأن الأوقاف تعطل إيرادها ، واستولى على إيرادها الغير ..

قال البكرى :

- أعددكم بأن أتحدث عن مشكلتكم فى اجتماع الديوان ..

وأشار ناحية الباب :

- عودوا الآن إلى بيوتكم !

قال الشاب :

- نحن نعتب على بعض أعضاء الديوان أن أولاد البلد خدم عند الفرنسيين ؟

غاضبا وهي تنظر - من خلال الباب الموارب - إلى الرجال المجتمعين فى القاعة ، تعلق أصواتهم بالأسئلة والأجوبة والمناقشات والشكوى . تمنى لو أنها نصحتهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويحكموا العقل ، ويرعوا مصلحة الناس ..

تركت تفريد فى جلستها على الأرض ، أمامها بضائع تنتظر انتقائها : حلى وأساور وأحجار نفيسة وماسات وعقود لؤلؤ وتيجان وصناديق صغيرة مطعمة بالصدف والعاج ، ومفارش ، وروائع عنبر ولبان وجاوى ومر ويخور وعود وصندل .

سحبت عقداً من الفيروز . لفته حول عنقها . تأملته فى المرأة الهائلة أوسط الحجرة . نزع البرقع والملاءة ، وأخلت قدميها من القبقاب ، وتربعت . توأم لون حبات العقد مع بشرتها السمراء ، وشعرها الأسود الطويل ، وأنفها الصغير ، وشفتيها الرقيقتين .

تنهدت ، وأعادت العقد إلى موضعه .

أنست لها زينب . قالت لها وهى تغادر البيت ذات عصر :

- لماذا لا تقيمين هنا ؟

غالبت ارتباكها :

- أنا أزورك دائماً !

- أقصد أن تقيمي فى الجودرية ..

- وببتي ؟

- هنا بيتك .

- وزوجى .. وأبى .. وأمى ؟

- تستطيعون التزاور ..

- أردفت :

- ماذا يعمل زوجك ؟

- نجار ..

- وأبوك ؟

- أقعدته الشيخوخة ..

- سأعطيك ما ينفق على أسرته ..

- مختار يرفض ..

- من مختار ؟

- زوجى ..

- سأكلم أبى ليلحقه بالعمل فى بيت الأزيكية

اكتفت - دلالة الشكر - بإيماءة خفيفة من رأسها :

اتجهت زينب إلى الرجال بملامح غاضبة :
- الفرنسيون لا يمارسون السخرة .. إنهم يعطون لكل واحد زيادة عن أجرته ..
وأزاحت خصلة شعر متهدلة على جبهتها :
- لا تنسوا أن الممالك كانوا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجون إليه
دون ثمن ..
تدخل خليل البكرى بالقول مهوئاً :
- العدو الذي لا نستطيع رده ، علينا أن نكسب صداقته !
قال الشاب :
- هل أكسب صداقة عدوى ؟!
- هذه هي الطريقة الوحيدة لالتقاء أذاه .
هل تؤدي تصرفات زينب إلى أن يفقد استعادته لمشيخة البكرية ، بعد أن فقدوها -
قبل مجيء - لما فيه من الرعونة ، وارتكابه أموراً غير لائقة ..
هذا هو الاتهام الذي دفع المشيخة ثمناً له ..
هل يتكرر الفقد ؟!

فصل

أعاد النظر ليستوثق من المرأة الواقعة . لم يجد فيها ذلك الشيء الذي اجتذبه
إليها ، حين رآها للمرة الأولى .
كانت ترتدي ثوباً مفتوح الصدر والظهر ، كما ترتدى الفرنسيات . رصنعت
باللؤلؤ والذهب . أسدلت شعرها الأسود ، الطويل ، على كتفها ، ورسمت
شفتيها بعناية .

النقاب الذى غطت به وجهها ، لا تبين منه إلا العينان ، هو الذى اجتذبه إليها ،
هو الذى فتته ..

العينان !.

لو أنهما كانتا بلا نقاب ، ربما لم تتحرك مشاعره ، فيطلب لقاعها .

قال :

- لماذا استبدلت بملابسك هذه الملابس ؟

قالت زينب وهى تمسح ثوبها :

- هذه ملابس باريسية .

أردفت لخيبة الأمل فى ملامحه :

- خياطتى هى ست السلطان الكبير .

- من ؟

- ست السلطان الكبير .

ثم وهى تتفادى اتجاه عينيه :

- الآنسة بولين نوريس .

اغتصب ضحكة :

- مسكينة !.. إنها منافستك عندى .

لمح المرأة وابنتها قبل أن تدفعه إلى حيث يجلس فى الحجرة الملاصقة . لم يكن
الفضول - وحده - هو الدافع لأن يحاول التعرف على من فى ضيافتها . فى بيتها المطل
على شارع بين القصرين . اصطنع السؤال عما لم يتحدد فى ذهنه . مجرد أن يوارب
الباب . يردفه بنطق اسمها . تركزت نظرتة فى الفتاة الصغيرة . رفعت النقاب إلى ما
فوق جبينها ، تتابع الحديث بين بولين والمرأة الجالسة إلى جوارها . أسدلت المرأة
العباءة السوداء والنقاب . بدت كخيمة صغيرة . خمن أنها أم الفتاة . انطبعت الصورة

فى ذهنه : الشعر الفاحم ، العينان الصافيتان ، المكحولتان ، الأنف الصغير ، الشفتان
الرقيقتان كورقتى وردة ..

اتجه إليها بنظرة غاضبة :

- هل كلمتك عما يلائمنى ؟

وعلا صوته :

- لماذا تتشبهين بالفرنسيات ؟

زمت شفيتها المرتجفتين ، تغالب البكاء :

- أردت أن أرضيك ..

وهو يشير إلى الباب :

- ما يرضينى أن تعودى إلى بيتك .

أضاف إلى تغير مشاعره ، وما يطلبه ، رؤيته لبولين فوريه وهو يشهد - مع أركان
حربه - احتفال تطير البالون . قبل العصر ، تجمع الناس ، والكثير من الفرنسيين ،
وغيرهم من أبناء الجاليات الأجنبية ، يتطلعون لرؤية تلك العجيبة . عبارة عن قماش
على هيئة " الأوبة " على عمود قائم ، ملون أبيض وأحمر وأزرق . عمودها مركب على
مثل دائرة الفريسال ، وفى وسطه فتيل . السكرجة مصلوبة بأسلاك حديد منها إلى
الدائرة ، ومشدودة ببيكر وحيال . أطراف الحبال فى أيدى رجال يقفون على أسطح
البيوت القريبة . بعد العصر بساعة ، أوقدوا الفتيلة . صعد دخانها إلى القماش ، وملاه .
انتفخ . صار مثل الكرة التى ارتفعت ، بينما الحبال تجذبها . ثم قطعت الحبال ،
فصعدت إلى الجو مع الهواء . طارت لحظات ، ثم سقطت على الأرض . انكسف طبع
الفرنسيين لسقوطها . لم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب يجلس فيها
من يقصدون السفر إلى البلاد البعيدة . ظهر أنها مثل الطيارات التى يعملها الفراشون
فى المواسم والأفراح ..

ما حدث لم يشغله عن إعادة التحديق فى الشعر الذهبى الناعم ، ينسدل على كتفها كعباءة ، والعينين الزرقاوين تحت الأهداب السود الطويلة . فى مساء اليوم نفسه ، زار بونايرت مطعم " التيفولى " بالأزيكية . رأها هناك . ظل يرنو إليها بنظرة ثابتة ، دون أن تشغله ربود الأفعال المحتملة .

عرف - من سؤاله عن أحوالها - أنها الابنة غير الشرعية لأب مجهول وطاهية اسمها " بليل " . يناديها أصدقائها " بيليلوت " . تعمل بائعة للقبعات . سماها " كليوباترة " . زوجها الملازم فوريه من ضباط الحملة . لم يأذن لخاصة أصدقائه - ممن أدركوا السر - أن يناقشوا قراره بإعادة المواطن فوريه الملازم بفرقة الفرسان الثانية والعشرين إلى باريس .

قال هنرى برتران :

- أنت لم تحاول حتى أن تبعث معه رسائل ذات قيمة .

قال نابليون :

- أنا القائد الأعلى ، ومن حقى أن أصدر أوامرى ، وعلى ضباطى تنفيذ الأوامر . وهو صغير ، أنكرت عليه أمه تعجله . ادعت أنه لم ينتظر حتى تصل إلى فراشها ، فولدته فوق سجادة . أهمل حتى عودة الملازم فوريه المفاجئ إلى القاهرة ، دون أن يستكمل مأموريته فى باريس . وقعت سفينة البريد " شاسير " فى أسر السفينة البريطانية " ليون " . اكتفى القبطان الإنجليزى بقسم الملازم فوريه ألا يقاتل ضد البريطانيين تحت أى ظرف .

فصل

هل حاولته خيانة جوزفين إلى سلطان شرقى ، يجد اللذة فى مضاجعة النساء وإيذاهن ؟ هل أصبح السلطان الكبير بالفعل ؟

يدين لها بتجاوز أسوار الخجل ، والقسوة التي كانت تقابلها بها أمه . امتدحت صفاته العسكرية . أومأت بالمعنى ، فغابت المعاناة لما صارحها بحبه . تزوجا . كانت تكبره بسبعة أعوام . لم يتردد في أن يضيف إلى عمره سنة ونصف السنة ، ولا أن يخصم من عمرها أربعة أعوام ، وأن تتولى حضانة ابنها أيوجين وأورتنس من زوجها الجنرال دى هارنيه . أعدته الثورة الفرنسية في العام تسعة وأربعين وسبعمائة وألف .

من بين ثلاثمائة زوجة استطعن التسلل إلى الناقلات ، والقُدوم إلى مصر مع أزواجهن ، وجد في السيدة فوريه ما يلبي احتياجات ذكوره . زوجها ملازم صغير السن والمكانة ، لا أهمية له ، لم يملك إلا الندم على أنه ساعدها على المجيء إلى الإسكندرية .

سكت عن عرض بيليلوت أن يطلق جوزفين ، وتطلب الطلاق من زوجها ، ويتزوجان ، ربما تنجب له الطفل الذي عجزت جوزفين عن إنجابه . جوزفين هي المرأة الوحيدة التي أحبها في حياته . حتى مدام فوريه علاقته بها أقرب إلى النزوة العابرة . اطمأن إلى التعبير الذي قاله بأن الحب ضار بالمجتمع ويسعادة الفرد ، لكن التوق إلى لحظات الانتشاء يemor في داخله ، فلا يقوى على احتماله . كأن ملامحه الظاهرة غطاء لقدر يغلي . ليس لديه وقت أضيعة . كلمات أعاد ترديدها لنفسه ، وتوهم أنه صدقها ، لكن الرغبات المشتعلة تصاعدت ، وعلا - في داخله - قرع الطبول . لم يعد الحب - كما قال هو ذات يوم - شغل العاقل ، وراحة المحارب ، ومهلكة الحاكم .

فصل

منذ أقام الصلات مع الفرنسيين وهو يحاذر في سيره ، وفي ركوبه وتحركاته ولقاءاته . حتى الزيارات التي يقوم بها إلى مشيخة البكرية ، تباعدت ، ثم دعا أتباعه إلى التردد على بيته ، يعرفهم بالسحنة والاسم ، فلن يتسلسل من يخشى أذاه .

يمضى إلى بيت الجودرية راكباً ، أو سائراً على قدميه . يخترق الشوارع الضيقة ، والمتقاطعة ، والمتشابكة . يسلم يده بألية لمن يريدون تقبيلها . يلمح وجوهاً لم يسبق له رؤيتها ، ولا تعرف إليها . يغيب الود عن نظراتها ، ويلوح الشر ، وترهقه بالمطاردة . تطارده أشباح تملأ الشوارع والدروب . تقف على الأبواب وداخل البيوت المهجورة والخرائب ، تطل من الأسطح والنوافذ ، ومن وراء المشربيات . ينتفض لعطسة ، أو نحنة ، أو وقع أقدام من خلفه . يواصل السير دون أن يتلفت ، وإن توقع - والخوف يقتله - من يتبعه . يتوقع - فى لحظة ما - ضربة مفاجئة ، أو نداء باسمه ، أو ما لا يدره ، أو يحدد قسماته . تترامى إليه فى غرفة نومه المغلقة داخل البيت ترددات الأنفاس ، شهيقها وزفيرها . يصحو - منتفضاً - على بنادق صوبت بين عينيه . يستعيز بالله من الشيطان الرجيم ..

هل كان يتصور أن زينب فى بيت أمها ، وهى - فى غفلة منه - تنزل إلى الطريق الخالية من أهل البلاد ؟

كتم ضيقه لهمسة المعلم مروان عكاشة أنه رأى زينب مع ضابط فرنسى فى الأزبكية ، معهما نساء يرتدين الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة . لم يتصور أن زينب تقدم على ذلك الفعل . ربما كانت امرأة تشبهها ..

زينب ؟ ..

تنزل إلى الطريق . لا تتكلم عن وجهتها ، ولا أين كانت حين تعود . تكتفى - عند السؤال - بالغمغة التى تعنى السخط ، ثم تمضى إلى حجرتها ، أو إلى بيته فى أول الجودرية . أحبت الآفاق المنطلقة ، ومصادقة الضباط الفرنسيين . تهمل وقوع بيت أبيها فى قلب الأزبكية ، حيث تمضى أوقات غيابها عن الجودرية . لا تعبأ حتى إن رآها أحد من أخوتها ، أو أزواج أخواتها ، أو الأقارب والمعارف ..

خرج عن نفسه حين غابت عن الجودرية يوماً وليلة . مالت وهى تنظر فى ثقب المشربية إلى من لم يتبينه فى الجودرية :

- شاهدت احتفالات الفرنسيين بعيد قيام الجمهور في بلادهم ..

- ما شأنك بأعياد الفرنسيين ؟

- إنهم يحتفلون بأعيادنا ..

- استطردت في نبذة تلميز :

- وأنت تشاركهم الاحتفالات ..

- ورفعت على شفيتها ابتسامة غامضة :

- لن نخاصم من جاؤا ليقوا !..

أفنى العمر في تحصيل الدنيا ، وتنظيم العز ، وشراء الممالك والجوارى
والخصيان والعبيد ، واقتناء كل ما يضيف إلى وجاهة حياته .. هل تضع هذه الحمقاء
كل ما جنى ؟

قال وهو يربت رأسه :

- هذه العمامة الخضراء لها ثمنها .. وثمانها هو أن يحترمها من يضعها فوق

رأسه !

ثم هو يرمقها بنظرة استياء :

- الانتساب إلى الأشراف قيمة في ذاته فلا تضعي كل شيء !

الباب السابع

فصل

قدم الشيخ المهدي إلى القاهرة ، تسبقه دعوته وهزيمته للفرنسيين في أكثر من معركة .
كان للمهدي هيبه واضحة . يضع على رأسه عمامة ناصعة البياض ، ويرتدي
جبة من اللون نفسه . زينت حوافها بالذهب ، وتدلّت على الكتفين شراريب من الدمقس
الأحمر ، ويركب جواداً عربياً يسر النظر . وكان طعامه يقتصر على لبن في قصعة ،
يغمس فيها أصابعه ، ويمررها على شفثيه ..

قليل إنه ليس من أهل مصر ، وأن اسمه ليس المهدي . هو أحد أمراء المغرب
الأقصى ، واسمه مولاي محمد . قدم إلى مصر ، ضمن جماعة من أهل المغرب ،
للحضر على الجهاد ، ومحاربة الفرنسيين . دافعهم الغيرة الدينية . بث أعوانه ومريديه
في المدن والقرى ، ينتظرون الإشارة لتليتها .

عرف عنه الصلاح والورع وسعة العلم في أمور الدين ، والعمل بأوامر الله
ونواهيه . لجأ إليه الناس في قضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم . يقضى
بينهم ، ويفتي في الدعاوى التي يضعونها بين يديه . وكان يتحرى أحوال الفقراء
والمعوزين ، وتطيب خواطرهم وإسعادهم . شمل الكثير من المحتاجين بعطفه وبره .
وكان يصف للمرضى ما يهديه علمه من الأعشاب الجبلية ، والمراهم التركيب ،
والعنبر الهندي .

أظهر الزهد عما في أيدي مريديه ومحبيه . تستغرقه رياضاته ومجاهداته ، ويقبل
على النوافل والسنن كأنها فرائض ، ويتجنب المكروهات كأنها محرمات ، ويحرص على
الاجتماع بأتباعه ومريديه ، والاتصال بسائر الناس ، مهما تتفاوت ظروفهم
ومكانتهم ..

اعتقد الكثير من الناس في كراماته ، وأحسن رؤساء الطوائف الظن بولايته . نفى ما أشيع عن قدرته على إجادة لغات الملائكة والجن والطير والوحوش والأسماك والحشرات والهوام ، وتسخير الجان ، وممارسة السحر ، وكتابة الوصفات والأحجية ، وإن انتشر بين الناس أنه عمر وقته كله بالذكر ، وترجل في مراتب الأسماء الإلهية . بدأ بالكشف ، وإحصاء علوم الشريعة وعلوم الحقيقة ، وانتهى بمرتبة التجليات الإلهية . لا يأكل ولا يشرب ، ويحصل على قوته من السماء ، وراجت الأقوال والروايات عن كراماته ومعجزاته وخوارقه : فالنظرة الرافضة إلى الفرنسيين تحيلهم تراباً ، وقذائف المدافع ترتد إلى من يطلقها ، وطلقات الرصاص لا تخترق أجساد من يشملهم بدعواته وعنايته ..

لم يعد من ملجأ إلا القوة والثورة ..

التف عليه أهل البلاد ، وطائفة من المغاربة ، وجماعة من الحجازيين . قتلوا - في دمنهور - ستين جندياً فرنسياً من الفيلق الملاحى . غنموا مدفعاً ، وضعوه على مركبة تجرها الثيران ، وتمكنوا - بواسطته - من إلحاق الخسائر الفادحة بالفرنسيين ، حتى ردهم إلى الرحمانية . انتقم الفرنسيون من أهل دمنهور لاتباعهم أوامر المهدي ، وتمردهم على جند القائد العام . ألقى أعوان المهدي بأنفسهم أمام مدافع الفرنسيين . يقينهم أن إلقاء المهدي للتراب على قتابل الفرنسيين يبطل مفعولها . حصدت المدافع المئات ، لكنهم - باليقين الذي سيطر عليهم - شكلوا ما يشبه الموجات . زاد عدد القتلى على الألف من مريدي المهدي وأعوانه . أخضع عسكر الفرنسيين المدينة للقتل والنهب والسلب والتدمير ، حتى احترقت عن آخرها . اختفت من الوجود تماماً . هي مجرد أطلال ، وبقايا حرائق ، وبشر ميتون . غاب الرجل في الصحراء ، يتبعه عدد من مريديه ، يرافقهم الإيمان بكرامات المهدي ، وقدرته العجيبة على فعل ما يشبه السحر ..

تخلّى مختار الرمادى عن حذره . عرض أن يكون - ومن أقنعهم بالخروج على الفرنسيين - ضمن الرجال الذين يعدهم للثورة ضد الفرنسيين . عهد بهم الشيخ

المهدى إلى معلم مغربى ، تعلموا على يديه أساليب مراقبة الفرنسيين ، ومتابعتهم ، ونصب الكمائن ، والإغارات ، والانقضاض ، والطنن بالمدى ، والسكاكين ، والخنق ..

عرض المعلم عيد حنكش التاجر بالغورية ، أن يحصل أهل المناطق حول القلعة على ما يحتاجون إليه من قطع الحجارة . يقذفون بها قوات الفرنسيين . تشغلهم عن هجوم أهل القاهرة بالبنادق والطینجات والسيوف والرماح والبلط والهاويات والعصى . عمله فى المحجر خلف القلعة . يدق الحجارة البيضاء بالأزميل والقادوم ، يحيل قطعها الهائلة إلى قطع مستطيلة ، صغيرة ، يصقلها ، يعدها للبناء .

قال الشيخ المهدى :

- هل يضربوننا بالبمب والرصاص ، فنرد عليهم بالحجارة ؟

قال عيد حنكش :

- مجرد وسيلة لإلهاثهم ، فيتمكن الرجال من مهاجمتهم .

- إن كان هذا فلا بأس !

فصل

خرج مختار الرمادى - للمرة الأولى - وراء السيدین المهدى وبدر المقدسى - مع فتوات الحسينية ، وأعداد من المغاربة ، وخلق من العامة ، فى نيتهم الجهاد ضد الفرنسيين . ردوا الهتاف " نصر الله دين الإسلام ، ولعن الكفرة الناثم " .

لم تكن المعركة - هذه المرة - بين الممالیک ، فيفلق الرمادى دكانه لأنها لا تعنيه . الأمر اختلف . لا ممالیک فى المعركة ، ولا زعيم حقيقى لقيادة الثورة . ثمة أولاد ناس وتجار وزعر وحرافيش وجعيدية وأوباش ، خرجوا للثورة ضد الفرنسيين . جاءت الأخبار بأن الممالیک انكسروا على البر الغربى ، وأن العثمانية هربوا على البر الشرقى . لم يصدق الناس أن الممالیک والعثمانية يهزمون بهذه السهولة . غلبت الحيرة الناس

لساعات . ثم تناثرت الهمسات بأنه على أهل القاهرة أن يحاربوا الفرنسيين ، وإن لم يعد يرافقهم ممالك ولا عثمانية ..

ابتدع الفرنسيون ديواناً جديداً ، وشرعوا فى وضع قانون جديد لأمر البيع والشراء والمعاملات والموايرث والزواج وغيرها من الأمور الشرعية والفقهية . توفروا على دراسة كيفية إدارة المقاطعات والأراضى والعقارات والبيوت والخانات والدكاكين والطواحين والوكالات والربط . طالبوا الناس بتقديم ما يثبت امتلاكهم لما بحوزتهم من دور وأراض . فرضوا الضرائب على الدور والعقارات والدكاكين والخانات والربط حتى الأضرحة والمقابر لم تسلم من الضرائب الباهظة . أوشكت الضرائب أن تشمل ترددات الأنفاس . سبق ذلك قرارات أخرى ، مست الناس فى صميم حياتهم : إزالة البوابات التى تفصل أحياء المدينة عن بعضها البعض ، إلزام أصحاب الدكاكين بإضاءة مصابيح الشوارع - أمام دكاكينهم - طيلة الليل ، هدم الكثير من البيوت ومسجد لتسهيل استحكامات القلعة ، وضع المزيد من المدافع أعلى القلعة وتصويب اتجاهاتها نحو المدينة ..

تحدث الناس عن خيانة أعضاء الديوان ، وأنهم لا يستحقون المكانة التى خصهم الناس بها ..

اشتد الأمر على أهل القاهرة مما وقع عليهم من ألوان الظلم والقهر والإذلال فجمعوا أمرهم على محاربة الفرنسيين . ضج الناس لكثرة الضرائب والمكوس والأحكام التى يصعب قبولها . التقت أعداد منهم ، وتناجوا فيما آلت إليه الأحوال وافقهم على ما ينتويه مشايخ المساجد والزوايا . انشغل الناس بتدبر ما يجرى ، وما يبين فى الأفق من توقعات قاسية . نزل شيخ صغير السن من الأزهر . راح ينادى فى الشوارع والعطوف والدروب المحيطة : كل مؤمن موحد بالله ، عليه بجامع الأزهر اليوم لابد لنا من أن نغازى مع الكفار !

علت الصيحات : لقد آن أوان القيام على هؤلاء اللئام ، فهذا وقت الانتصار للإسلام . دعا المؤننون الناس - فى أوقات الصلاة الخمس - إلى الثورة على الفرنسيين !

طاف بالشوارع مجاور يكرر النداء : كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر . اليوم
يجب أن نغازي في الكفار !

تجمع الناس في الطرقات والميادين ، وعلى أبواب الجوامع والمساجد . التحم
العلماء والمجاورين وأئمة المساجد والمؤذنين والصوفية وال دراويش وأرباب الحرف
والطوائف . شارك أوساط الناس وميسورو الحال . انضم إليهم الحرافيش والأويش
والجعيدية والزعر والغوغاء والهباشة . حملوا السيوف والمساوق والبيارق الخضراء
والنبايت وعصى الحديد . حمل بعض أفراد طوائف الحرفيين ما يتصل بحرفهم من
أدوات : الفؤوس والمطارق والبلط والمعاول والقواديم .

حضر السيد بدر المقدسى وصحبته فتوات الحسينية ، وأهل العتوف البرانية
ومغاربة الفحاميين وباب الوزير والحطابة والحباله والرميلة وعرب اليسار وابن طولون
ووكالة قاضى البهار .

مضوا إلى أحياء وسط البلد : البندقانيين وباب زويلة والحمزاوى وباب الشعرية
وباب الفتوح وباب النصر والبرقية والرميلة . نصبوا الخيام ، ولانوا بالجوامع والمساجد
والزوايا ، وجمعوا النقود التى ينفقون منها على أمور حياتهم . أغلق أبواب دكاكينه
تجار الطرابيش واللبد والأبسطة والأكلمة وقلوع المراكب وتطريز الحرير والجوخ
والموسلين والأوانى الزجاجية والأحذية وسروج الخيل وصناعة الحصر والقفف وتبييض
النحاس والحدادة والخراطة وأعمال العاج والكهرمان ، وأغلقت المقاهى أبوابها .
اعتزموا الجهاد ، وانطلقوا إليه متحزبين .

تفرقوا فى معظم أخطاط القاهرة ، من باب الفتوح وباب النصر والبرقية ، إلى
باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وما جاورها . وضعوا حصوناً خشبية
ومتاريس على نواصى الشوارع وتقاطعاتها . حفروا الخنادق . كوموا أكياس التراب
وقطع الحجارة فبدت كالجدران الصلدة . أقدموا على فك المصاطب أمام البيوت
والدكاكين . جعلوا منها متاريس فى مداخل الشوارع والحوارى والأزقة ، لإعاقة جند
الفرنسيين عند تحريك مدافعهم فى داخل المدينة .

وقف خلف كل متراس عدد من الرجال ، يحملون كل ما استطاعوا تخزينه من السلاح وآلات الحرب . نبشوا الأرض ، وطلّعوا بمدافع مدفونة فيها . صنعوا المدافع فى موضع أقامه عثمان كتحدا فى بيت قائد أغا بخط الخرنفش ، وصنعوا البنادق والمسدسات . خلّعوا أسوار المساجد والجوامع . صهروها فى المسابك ، وأنشأوا معامل للبارود . خلت القاهرة من كل صنف جديد . عنى أرباب الحرف بإقامة المتاريس ، وصنع الحدادون القنابل ، وعملوا على تشغيل المدافع . صنعوا من كل ما وصلت إليه أيديهم من قطع الحديد ، خناجر وفؤوس وبلط ومطارق وغدارات وسيوف ودبابيس وخناجر وقطع حديد وأحجار . ثبتوا الأرصاد فى النوافذ ، وأعلى الأسطح ، وداخل الدكاكين والمقاهى ، وفوق المآذن ، وأعلى تلال الدراسة .

تهينوا للمقاومة . انضم إليهم فتوات الحسينية والمئات من التجار وأرباب الحرف . اختلطت أصوات المؤننين بهتافات الناس ، تدعو إلى الجهاد . قدم الأهالى من طريق الأهرام وبلبليس . نفذوا من أبواب زويلة والفتوح والنصر والبرقية والقنطرة والفرج وسعادة والباب المحروق والباب الجديد وباب الشعيرة . تزايدوا فبلغوا أكثر من خمسة عشر ألفاً ، تجمعوا فى داخل الأزهر ، وفى المناطق المحيطة . تكونت لجنة لإدارة الثورة ، اتخذت الجامع الأزهر مقراً لها ، واختارت من الشيخ السادات قائداً للثورة .. دفع كبار المياسير والتجار نفقات الأكل والشرب . قدمت جماعات من المغاربة والشوام بالسلاح والمؤن . تتقدمهم الصيحة : نصر الله دين الإسلام .

مضوا إلى بيوت وجهاء وقضاة وأعضاء فى الديوان . رجموا الواجهاة بالحجارة والطوب . هاجموا دار مصطفى الكاشف بالدرب الأحمر . كان يسكنها الجنرال المهندس كافارلى قائد الوحدة الهندسية ، والبعثة العلمية الفرنسية . حطموا ما كان يستعمله من أدوات ومعدات وأجهزة علمية . نهبوا ما فى الدار ، وقتلوا المهندسين ترفينون وبوقال .

حاصروا بيت قاضى العسكر ، ولم يمكنوه من الهروب . خاف القاضى العاقبة ، وأغلق أبواب البيت ، وأوقف حجابيه . انهال الرجال عليه بالحجارة والطوب حتى قضى .

امتد الهرج والمرج إلى باب الفتوح وباب النصر والبرقية وباب زويلة وباب النصر والبنديقيين . اتجهت الجموع ناحية بيت القاضي . هو المكان الذى يلتقى فيه من يريدون التعبير عن أحوالهم ، ويجأرون بمطالبهم . أجبروا القاضي على ركوب جواده ليسبقهم إلى مقر الأركان العامة . أشفق القاضي على نفسه من الزحام الشديد . هم بالعودة إلى بيته ، لكن المتمردين أسقطوه عن الجواد ، بعد أن ضربوه بالحجارة والعصى .

واصلوا السير إلى الأزهر والمشهد الحسيني . موضع آخر اعتادت المسيرات الغاضبة أن تلتقى فيه . علت الأصوات بتلاوة الفاتحة ، وبالقسم أن ينصر الله دين الإسلام .

قتل المتمررون من وقع فى أيديهم من عملاء الفرنسيين ، أو من عملوا فى خدمتهم . هجم على بيت البكرى بالأزيكية أعداد من أهل القاهرة . نهبوا البيت ، وعروا خليل البكرى عن ثيابه ، واقتادوه مكشوف الرأس مع عياله ، سائرين على الأقدام من الأزيكية إلى وكالة نو الفقار بالجمالية . ثم وضعوا على رأسه طرطوراً من الورق ، وأركبوه حماراً بالمقلوب ، وشيعوه بأغنيات التشنييع ومواويل الهجاء ، ونادوا فى الشوارع والأسواق : هذا جزاء من يتعامل مع الفرنسيين .

رفض المعلم شريحة أمر مختار الرمادى بأن يجز الرجال عنق الشيخ . مكانته الدينية تحميه من الإعدام . حين مثل الشيخ فى مجلس عثمان كتحدا ، أظهر كتحدا انزعاجه ، وقيل شفاعة الوجهاء والعلماء ، وأطلقه بعد أن أشرف على الهلاك . أخذه التاجر أحمد محرم إلى داره . أسكن روعه ، وألبسه ثياباً ، وأكرمه ، وألزم نفسه بتدبير ما يحتاجه .

أكد جودة نحنوح صمت الشيخ البكرى عما كانت تفعله ابنته ، وأنه رأى قرنى الشيخ البكرى فى جانبى رأسه وهو فوق الحمار ..

قال جودة نحنوح :

- لو كانت المرأة تطلب العز فأبوها غنى .. ولو كانت تطلب المتعة ..

وأشار إلى صدره :

- نحن أولى بالمعروف !

مضى الجنرال الفرنسى ديبوى على رأس عدد من جنوده إلى دار الشيخ الشرقاوى للاستفسار عما يجرى . لم يجد الشيخ فى بيته . واصل سيره إلى بيت القاضى . التقى بالمتظاهرين فى شارع الغورية . لم يحب القاهرة منذ لحظات لقائه الأولى بها . رأى فيها مدينة قذرة ، وفقيرة ، وسيئة البناء . بيوتها أشبه بأكوخ كريمة ، يحيا فيها سكان يؤساء ، والشوارع تتنفس الطاعون ، والأغنياء وحدهم هم الذين يتمتعون ببعض أسباب الراحة . وكان لا يخفى شوقه للعودة إلى فرنسا .

لولا أن ديبوى أطلق - دون تدبر - رصاص طبنجته الكبيرة ، ربما ما اشتعلت الثورة . خرج الناس لدعوة الديوان إلى إلغاء الضرائب ، لم يوسعوا حدود التصور إلى أبعد من إظهار الغضب . لم يكتف ديبوى بما فعل . شهر سيفه ، واندفع - مهدداً - ناحية المتظاهرين . دفعه شيخ بعضا فى صدره . مد فخرى المطيعى حارس كنيسة مار جرجس يده . مزق سترة الجنرال ديبوى العسكرية . عضته امرأة من عطفة الفقوسة فى ساعده . اتجهت إلى صدر الجنرال طعنة خنجر نافذة ، فقتلته . تذوق العامة طعم الدماء . بادروا إلى جند الفرنسيين ، ضربوهم ، اختلط رجم الحجارة وضرب العصى والسيوف ورشق السهام والطعن بالسكاكين . قتلوا أغلب الطائفة ، أو أنخنوا جراحاتهم .

فى فجر اليوم التالى ، كان معظم أبواب القاهرة فى أيدي الثوار . فتحوها لأهالى الضواحي والمدن والقرى القريبة والبعيدة . دخلوا المدينة يحملون البنادق والرماح والعصى . أقام الثائرون الحواجز فى مفارق الطرق المؤدية إلى جامع الأزهر . تسلحوا وراءها بالبنادق والبلط والهراوات والسيوف والرماح . امتدت سيطرة المصريين إلى كل أحياء القاهرة ، فيما عدا القلعة ، وميدان الأزبكية ، وثكنات الكتائب الفرنسية ، ومبانى المجمع العلمى ، كل منها يبعد - بمسافة - عن المواضع الأخرى .

امتد الهياج إلى رشيد والمنزلة وأسوان ومدن أخرى . وترددت أسماء عمر مكرم والشرقاوى والمحرقى والخضرى والبشتلى والصاوى ومحرم والفيومى والعريشى والأمير السرسى . ظلت أحياء القاهرة الخارجية - وحدها - على هدوئها ..

انضم مختار الرمادى والذين معه إلى المتمردين دون أن يعنوا بالسؤال عن الرئيس الذى يخطط ، والقائد الذى يأمر ، ما إذا كان السيد عمر مكرم ، أم السيد بدر المقدسى ، أم شخصية أخرى لا يعرفونها ، ذابوا فى جموع البشر من أولاد الناس وطوائف الحرف والزعر والرافيش . غاب التدبير والتنسيق . أظهرت العفوية ملامحها ، لكنها بدت عكس ذلك تماماً . تساءل الفرنسيون عن القائد والمدير لكل ما يحدث ..

قدمت أعداد هائلة من عسكر الفرنسيين ، فاضطرتها آلات الحرب فى أيدي المصريين إلى التراجع .

قال الكابتن جوزيف مارى مواريه :

- يبدو أن مصر كلها تحارب ضدنا !

اتخذ الفرنسيون أوضاع الاستعداد للقتال . عزلوا أحياء القاهرة ، كل حى عن بقية الأحياء . أزالوا أبواب الشوارع والحارات ، كى لا يتحصن بها المتمردون . وضعوا على النواصى متاريس وجند يمنعون الدخول والخروج إلا بإذن . نصبوا المدافع والقناير والبمبات على تلال البرقية والقلعة . وفى القلاع والأبراج ، وعلى نواصى الطرقات . اتجهت فوهاتنا إلى الأحياء الثائرة ، وانتظروا أمر قائدهم العام ..

فى العصر ، أصدر بونابرت أمره . انطلقت قذائف المدفعية والبنادق من القلعة وأبراجها ومغازلها على المدينة فى أسفل ، تصيب البشر والدور بلا تدقيق . يثق القائد العام أن نجاح الثورة كان بداية اشتعال النيران فى كل المدن المصرية . بدا العنف وسيلة وحيدة ، صارمة ، لدرء الأخطار المحتملة ..

تتابع الرمى من الجانبين : آلات الفرنسيين من فوق تلال البرقية والقلعة ، المدافع والقناير والبمبات . ومن الجهة الثانية قطع الحجارة والطوب ..

لاذ الناس بالجامع الأزهر ، يدعون الله ليدرأ الخطر عن القاهرة .

انهالت القنابر والبمبات على الجماعات والبيوت والحارات . لم تميز القذائف بين الجوامع والدور والأسواق . اشتد الضرب - كأعنف ما يكون - ضد جامع الأزهر وما جاوره من أماكن المحاربين كالغورية وسوق الفحامين والصناديقية والحمزاوى ودرج المبيضة وزقاق المسك . التصق الفزع بأجساد العامة من هذه الحرب التى لم يروا مثلها من قبل . رأوا ما لم يروه فى حياتهم ، فنادوا : يا سلام من هذه الآلام .. يا خفى الألفاظ نجنا مما نخاف !!

اشتد الرجف والزلازل ، وتزعزعت الأركان ، وأصمّت البنايات الأذان بصوتها الهائل ، وهدمت جدران البيوت والوكائل . انتظر الناس توقف القذائف ، أو الموت .

لما طال الضرب ، خشيت الأم على دجاجاتها . صعدت إلى السطح بطبق الذرة . أعادها إلى السلم صوت انفجار بدا كأنه هدم البيت القريب .

كان الشيخ المقدسى يتنقل بين المصابين فى المعارك ، فى يده كتاب الله ، يقرأ منه عليهم ، ويتلو الأدعية ، ويواسيهم ، ويصف لهم من الطب النبوى ما يواجهون به ما يعالج جراحهم .

حاول المشايخ البكرى والسرسى والمهدى - يرافقهم جنود - أن يقنعوا المتمردين بالعودة من حيث أتوا ، لكن الناس واجهوهم بالصياح والتسخيف والشتائم ، ورفعوا ما بأيديهم يريدون تأديبهم .

لاذ المشايخ بمسجد إسكندر باشا القريب .

أمر القائد العام بقطع رؤوس من يسقطون فى الأسر وبأيديهم أسلحة ، وإلقاء جثثهم فى النيل ، ما لا يقل عن ثلاثين مصرى فى كل ليلة ، ويحرق البيوت التى تلقى منها الحجارة . وأمر بأن يدخل الجنود الأزهر تحت حماية المدافع : أبيدوا كل من فى الجامع !! أمرهم أن يقتلوا كل من يجده داخل الجامع ، ويحرقوا الدور التى تلقى منها الحجارة على جنوده .

دخل الفرنسيون المدينة كالسيل . توزعوا فى الشوارع والطرقات والدروب والأزقة ، كأنهم الشياطين أو جند إبليس . هدموا ما وضعه أهل البلد من المتاريس ، واخترقت جماعة منهم باب البرقية إلى الغورية ، ثم اقتحموا الجامع الأزهر مشاة ، وعلى ظهور الخيل . تفرقوا بصحنه ومقصوراته ، وربطوا خيولهم بقبلة ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا المصابيح والقناديل والسيهارات ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبات بالدواليب والخزائن ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وطرحوها على الأرض ، وداسوها بأرجلهم ونعالهم ، وأحدثوا فيه ، وتغوطوا ، وبالوا ، وتمخطوا ، وشربوا الشراب ، وكسروا أوانيهم ، وألقوها بصحنه وجوانبه ، وكل من صادفوه به عرّوه ، وأخرجوه من ثيابه . وأصبح يوم الثلاثاء ، فاصطف منهم عدد أمام باب الجامع . كل من حضر إلى الصلاة يراهم ، فيعود . تفرقت جماعات الجند فى أرجاء المكان . اتخذوا السعى والطواف به منهجاً ، وأحاطوا به إحاطة السوار ، ونهبوا بعض البيوت بدعوى التفتيش على المسروقات والأسلحة وأنوات الضرب . وأخرج سكان الناحية ، من بيوتهم ، ولانوا بالفرار إلى غير مكان .

صمتت الثورة ..

استشهد من المصريين بضعة آلاف ، وقتل من قوات الفرنسيين نحو ثلاثمائة جندي . انتهكت ساحة الأزهر بعد أن كانت أشرف البقاع التى يرغب الناس فى سكناها ، ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الفقد ، ولم يكن الفرنسيون يملكون بها إلا فى النادر ، ويحترمون عنها عن غيرها فى الباطن والظاهر ، ثم تغيرت الأحوال . اقتحموا الأسواق ، ووقفوا صفوفاً متتالية . فإن مر بهم أحد فتشوه ، واخذوا ما معه ، وربما قتلوه ، ورفعوا القتلى والجرحى من الإفرنج والمسلمين ، ووقف جماعة من الفرنسيين ، ونظفوا مراكز المتاريس ، وأزالوا ما بها من الأتربة والأحجار المتراكمة ، ووضعوها فى ناحية لإفساح الطريق . وتوجه إلى القائد العام جماعة من نصارى الشام ، وجماعة من الأروام الذين انتهت بيوتهم بالحارة الجوانية . شكوا إليه ما لحقهم

من الأذى . وأرسل القائد العام برطلمين للعسس على من حمل السلاح أو نهب ، وبث أعوانه فى الطرقات ، يفتشون المارة . يلقون القبض على من يشكون فيه ، أو يقتلونه ..

أمر القائد العام بالقبض على رويس الفتنة . شدد على إهمال المكانة . ألقى القبض - فى اليوم نفسه - على الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ إسماعيل البراوى ، والشيخ أبو شعير ، والشيخ عبد القاسم . حبسهم فى بيت البكرى ، ثم نقلوا إلى قلعة الجبل . أودع الفرنسيون جماعات أخرى من المحبوسين فى بيت البكرى . ظلوا بها حتى أخذهم الجنود إلى بيت قائمقام بدر الجمامين ، ثم إلى قلعة الجبل . قتلهم ، وألقوا جثثهم خلف أسوار الجامعة . تردد المشايخ لتخليص الجماعة المعوقين ، فغولطوا . اتهم الفرنسيون إبراهيم أفندى كاتب البهار بإيواء جماعة من المماليك فى داره ، وأعطاهم الكثير من الأسلحة والمساوق والعصى . قبض عليه ، وسجن فى بيت الأغا ، ثم نقل - مع آخرين - إلى سجن قلعة الجبل . لم تقبل فيهم شفاعاة . قتلوا ، وأغرقت جثثهم فى النيل ، أو دفنوا بمعرفة الفرنسيين حتى لا يعرف لهم مكان . نالوا من الشيخ سليمان الشواربى ، قتلوه ، ونقلوه إلى قليوب . دفن فى مقابر عائلته . انتشرت الأخبار بأن عمر مكرم والمحرقى فرا - مع الجيش العثمانى - إلى بلاد الشام ..

سحب القائد العام ريشته ، وعدل عن التوقيع على قرار تقديم الشيخ محمد أبو الأنوار ، شيخ السادات ، للمحاكمة . هو يعلم ، يثق ، أنه المتزعم لثورة أهل القاهرة . لكن المحاكمة تجعل الرجل فى موضع الشهادة أمام المصريين . تولى خلافة آل السادات ومشيخة سجادتهم فى عهد على بك الكبير . جمع بين العلم وشرف النسب . لما قدم الفرنسيون إلى مصر لم يتعرضوا له ، ولا حاولوا مضايقته أو أذيته ، واعتبروه شخصاً على المقام . زاره القائد العام ، وقبل شفاعته ..

قال الجنرال كليبر :

- كيف لا نقضى بإعدامه وهو زعيم الثورة ؟

أدرك القائد العام أن منزلة الشيخ بين المصريين دافعه لرفع راية الرفض ضد وجود الفرنسيين ..

قال نابليون :

- إن إعدام مثل هذا الشيخ لا يفيد الفرنسيين ، بل يؤدي إلى عواقب وخيمة ..

سحب جنود الفرنسيين المئات من أهل البلد موثوقين بالحبال في أيديهم ، ومضوا بهم إلى السجون . طالبوهم بالمنهوبات ، وسألوهم عن السلاح وآلات الحرب ، وقرروهم بالعقاب والضرب . وكان المسجون - من شدة الألم - يدل على غيره حتى لو لم يكن فعل شيئاً ، ولا خرج فيما حدث . وذبح الكثير من الناس ، والقوا بهم في النيل ، ومات في يومين أعداد لا تحصى ، وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ، ونالوا من المسلمين فوق ما أراؤا . وفي يوم الأربعاء ركب المشايخ والعلماء جيادهم ، وذهبوا إلى بيت القائد العام . خاطبوه في العفو ، والتمسوا منه أماناً كافياً وعفوا ينادى به باللغتين العربية والفرنسية لتطمئن قلوب الناس ..

انتهرهم بونايرت ، وويخهم ، وعنفهم على تأخرهم ، واتهمهم بالتقصير . لم يعد يطمئن إلى تصرفاتهم الدمثة ، وعباراتهم المتوددة . أذهله تحول المصريين من الهدوء إلى العنف في معارك الطرقات . إنهم خاضعون في العلن ، وأبعد ما يكونون - في الحقيقة - عن الخضوع

قال :

- يهمني أن أعرف من وقف وراء إثارة العوام ..

قال الشيخ البكرى للمترجم :

- هي فورة وليدة وقتها ..

نقل نابليون نظرتة بين البكرى والمترجم :

- نحن نعرفهم بالواحد ..

قال الشيخ الصاوى :

- الناس ترجو إخراج الجند من داخل الأزهر ..

اختلجت شفتاه :

- لا تعوزكم الوقاحة أيها الأوغاد الجبناء !

وشب بصدره إلى الوراء :

- إن المتهمين فى إثارة الفتنة لابد أن يحاسبوا ..

وغلبه الانفعال ، فعلا صوته :

- لابد من إرشادنا عن المتهمين الذين أضرّموا نار هذه الفتنة ..

قال الشيخ الشرقاوى :

- إن عفوتّم فلا تسألوا عما فات ..

قال بونابرت فى انفعاله :

- إن لم تذكروهم لى الساعة فإنى لا أعفو عنهم أبداً ..

واتجه إليهم بعينين تومضان بال غضب :

- اعلموا أنى أقدر على إظهار ما فى نفس كل منكم ، لأننى أعرف أحوال

الشخص ، وما انطوى عليه بمجرد رؤيتى له ، وإن كنت لا أتكم عما يضره ..

ثم فى نبرة متوعدة :

- سيأتى وقت يظهر لكم فيه - بالمعاينة - أن كل ما فعلته ، وحكمت به ، هو حكم

إلهى لا يرد !

قال الشيخ الشرقاوى ليخرج القائد العام من غضبته :

- هل تأمرون بإخراج العسكر من الجامع ؟

وهو يشيح بيده :

- فليخرجوا !

أمر القائد العام ، فأعلن عن منح الأمان للأهالى . كف الجند عن الضرب ، لكن أهالى الحسينية والعطوف أصروا على القتال ، لا يستهدفون مجرد الدفاع عن أنفسهم ولا نوبيهم ، وإنما يستهدفون دحر الفرنسيين إلى خارج البلاد . ظل السيد بدر المقدسى وأهل الحسينية وراء المتاريس ، يواصلون إطلاق الرصاص حتى فرغ البارود ، فكفوا عن القتال .

دانت الغلبة للفرنساوية . هجموا بقضهم وقضيتهم . استخدموا كل ما بحوزتهم من أسلحة ، وأعملوا القتل والنهب ..

لم يعد إلا بنايات محترقة ، وبور قوضها التدمير . مات الآلاف من سكان الأحياء القريبة من الأزهر تحت الأنقاض ، وامتألت الشوارع والدروب والعطوف بالأوصال المقطعة ، والرؤس المجتة ، والدماء المتناثرة ..

قال الشيخ عبد الله الشرقاوى :

- نهب الفرنسيون من الجامع الأزهر أموالاً كثيرة . ظن أهل البلد أن العسكر لا يدخلونه ، فحولوا فيه أمتعة بيوتهم !

أصدر المشايخ بياناً يدعو أهل القاهرة للهدوء ، ويعتبر الثورة من فعل الجعيدية وأشرار الناس ..

هل لأن المصريين أرادوا خروج الفرنسيين ، أصبحوا - فى زعم المشايخ - من الأشرار ؟ وهل وصفوا القائد العام بأنه رجل كامل ، عنده رحمة وشفقة على المسلمين ، ومحبة للفقراء والمساكين ، لأنهم يتمنون البقاء فى وظائفهم ، وأن يظلوا فى عضوية الديوان ؟

حتى الدين ، استثمروه بالقول إن الله تعالى يؤتى ملكه من يشاء ، ويحكم من يريد ، وعلى أهل البلاد أن يحفظوا أوطانهم ، ويطمئنوا على عيالهم وأديانهم !

فرض الحذر نفسه . كل جانب يخشى الجانب الآخر ، ويتوقع أذاه . لم يعد جنود الفرنسيين يتركون أسلحتهم . يعطون انتباههم لكل تصرف مهما يبدو عفويًا ، أو بريئًا . غاب الناس عن الأسواق - من أنفسهم - بين غروب الشمس وشروقها . لم تفلح حيلة الفرنسيين حين عاودوا التظاهر باللف والطف والمودة . أيقن الأهالى أن الأفعى لا يمكن أن تبث إلا سماً . نظر الأهالى للفرنسيين بعين الاحتقار . أنزلوهم عن درجة الاعتبار . كشفوا عن نقاب الحياء معهم بالكلية . تناولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية . لم يتركوا معهم للصلح مكانًا ، حتى فقهاء المكاتب كانوا يجمعون الأطفال ، ويمشون بهم فرقًا وطوائف حسبة ، وهم يجهرزون ، ويقولون كلامًا مقفى بأعلى أصواتهم ، كقولهم : الله ينصر السلطان ، ويهلك فرط الرمان !

أرخ أهل القاهرة لأيامهم التالية بما جرى فى ذلك اليوم . ما قبل وما بعد . حكايات البلد ، والناس ، والحكايات الشخصية ..

فصل

صدر أمر القائد العام بتعويض الشيخ خليل البكرى عما سلبه النهابون . أصدر أوامره بحظر خروج أهل البلد من دورهم ، وتطلب من التجار أن يغلقوا الدكاكين ، وتهدد كل من يخالف بالإعدام أو السجن . طافت دوريات عساكر الفرنسيين شوارع القاهرة ، ولزمت الوقوف على النواصى ، يمتطون الجياد أو مترجلين . اعتاد الناس صوت إطلاق الرصاص فى الليل والنهار ، والمتاريس يقف وراءها - للتفتيش - جند الفرنسيين ..

فى يوم الأحد ، توجه المشايخ إلى بيت القائد العام . تشفعوا عنده فى المحبوسين ببيت البكرى والأغا والقلعة ..

نقل المترجم قوله :

- وسعوا بالكم ولا تتعجلوا ..

وانصرف المشايخ ..

رفض القائد العام كل الشفاعات التى رفعت إليه لإطلاق سراح من أودعوا بيت
البكرى . أمر بقتلهم ، وإغراق جثثهم فى النيل ، فى المسافة ما بين بولاق ومصر
القديمة ..

نودى فى الأسواق بالأمان ، ولا أحد يشوش على أحد ، وإن ظلت أعداد هائلة من
أهل البلد والشطار والزعر فى داخل السجون . واستمر إلقاء القبض على المشتبه
فيهم .

فصل

لم ينعكس ما فعله الفرنسيون من اقتحامهم ساحة الأزهر ، ودخولهم الجامع على
جيادهم ، ووطء أرضيته الطاهرة بالأحذية وسنابك الخيل . وربط الخيل فى القبلة ،
وكسر دواليب الكتب ، وطرح ما بداخلها من المصاحف ونفائس الكتب والمخطوطات ..
لم ينعكس ذلك كله على ملامح المعلم شيحة بالغضب ، ولا حتى مجرد الحزن ..

قال فى نبرة هادئة :

- الجامع من بيوت الله ، وعلى من دنسه أن يتحمل مغبة ما فعل !

ثم بتعمد لفصل الحروف :

- كل ما علينا أن نصلى صلاة استخارة لنعرف ماذا يأمرنا الله !

قال مختار الرمادى كالمنتبه :

- لم أر السيد بدر المقدسى بعد ما حدث ..

قال المعلم شيحة :

- قيل إنه سافر إلى جهة الشام ..

وتراقص على شفثيه ظل ابتسامة :

- يبدو أنه أشفق على نفسه من مصير قتلى القلعة ..

أردف فى نبرة مهونة :

- كل يبذل قدر استعدادده !

فصل

توالى الطرقات على باب البيت . بمجرد أن أدارت تغريد المزلاج ، تدافع جنود فرنسيون شهروا أسلحتهم . أهدلوا صرخة تغريد الخائفة . جاوزوها إلى داخل البيت . المعلم شيخة يتربع على الأريكة ، والام على باب حجرة نومها ، فزعة من الطرقات ..

أسكت المعلم شيخة صرخة تغريد بشخطة غاضبة . ظل الخوف فى عينيها وهما تتابعان حركة الجنود داخل الدار . تناثروا فى القاعة . صعدوا إلى الحجرات العلوية والسطح . هبطوا إلى البدروم . وقفوا على الباب الرئيسى ، وفى أيديهم البنادق ..

لم يظهر المعلم شيخة الضيق ، ولا التأثر ، حتى لعمليات التفتيش التى شملت البيت بكامله . اعتاد - فى داخل البيت - سماع وقع سنايك الخيل ، أو أقدام الجنود . يحدس أن الحملات تفتش عن الحرافيش الذين يتصدون لجند الفرنسيين بالسلاح . يتوقع طرقاتهم على باب البيت ، أو اقتحامهم له ..

كان يتصدر صحن الدار . يستند براحة يده على عصا من خشب السنط . يتأمل حركة الجنود بعين صاحية ، ساكنة . يعلو صوته بنداء ، أو ملاحظة ..

همسبت تغريد :

- هل يفتشون عن مختار ؟

لكزها بقبضة يده فى كتفها :

- لماذا يفتشون عنه ؟

ورماها بنظرة ساخطة :

- لا أحد سيؤذى مختار إلا لسانك الذى ساقطعه .. اخرسى !

تدرك ما يفعله مختار من قبل ترددها على بيت البكرى بالجودرية . تناديه من وقفته وراء الباب فى الطابق العلوى . قد يكون منشغلاً بالحديث مع ضيوفه فى القاعة التحتانية - ألفت وجوههم - فلا ينتبه لندائها ، ويواصل كلامه . يتأخر بعد موعد إغلاق الورشة ، لا يلزمها بانتظاره . تعد له العشاء ، وتصعد إلى حجرتهما . تروح فى النوم ، لا تشعر به وهو يتمدد على السرير بجوارها . طلب منها مختار أن تتردد على بيت البكرى ، وتخبره - وحده - بما تراه . جاوزت الحدس إلى التيقن من أن جلسات الطابق الأرضى تعد شيئاً ضد الفرنسيين .

قالت الأم :

- ماله مختار ؟

قال المعلم شiche :

- لا شئ !

وأشاح بيده :

- فليبحثوا عما يريدون ، ويذهبوا إلى حال سبيلهم !

آخر ما تبينوا وجوده قبو تحت الأرض ناحية درب المزينين فى جامع الأزهر . يتجه بتعرجات إلى تلال الدراسة . سدوا القبو من بدايته ، ومن نهايته . شقه الجنود بهدف القبض على الفاعلين . اكتشفوا مسالك أخرى فرعية ، مضى فيها العامة إلى حيث لا يدري أحد .

تحدث الناس فى قعداتهم داخل البيوت ، وعلى المقاهى ، ومصاطب الدكاكين ، عن حكايات الشطار مع جيش الفرنسيين . تباروا فى رواية ما بلغهم من أفعال الشطار وخفاياهم . تحدثوا عن الشاب ذى القدرة على الحياة فى الخفاء والستر ،

داخل الأقبية والمغارات والكهوف والحجرات المغلفة . وإجادته تسلق الأسوار والجدران كأنه العنكبوت . وعرف عنه إتقانه لفنون الحيلة وأحاييل الخداع ..

أبدى رواة السيرة وعازفو الربابة عجبهم لإصرار رواد المقاهى على أن تستعاد حكايات على الزبيق ، وما فعله ضد الكلبى ودليلة المحتالة . يهملون تدخين القنب ، واحتساء الشربات والقهوة ، ولعب الضامة والشطرنج والمنجلة ، ومشاهدة خيال الظل ، والثرثرة . يهللون لرؤية شاعر الربابة ، يتوقعون الحكايات والسير التى تطرد السأم المتنامى داخل النفوس ..

قاطعوا الراوى فى قهوة بحبح بالمناصرة . طالبوه بأن يستبدل حكاية على الزبيق بسيرة الهالبيين ..

لم يتحدث الجنود عن بواعث التفتيش . ظلوا صامتين ، وشاهرين لأسلحتهم . توزعوا بين الحجرات ، فى الطابقين الأرضى والعلوى ، وفى دورة المياه والحمام والمطبخ . حتى الباب المفضى إلى الخرابة الخلفية ، عالجوه حتى انفتح ..

فتشوا فى الخزائن المفتوحة ، وتحت الكنبات ، والأريكة التى يجلس المعلم شيحة فوقها . بعثروا ما فى الخزائن والثياب المعلقة على المسامير المثبتة فى الجدران . قذفوا بالقذور النحاسية والمغارف والمواعين . كسروا جرار الزيت . حطموا أنية الفخار . دسوا سيفاً فى جوال الدقيق بحثاً عن السلاح بداخله . لم يشغلهم انسكاب الدقيق على الأرض .

قال ضابط نحيل الجسد وهو يشير إلى صندوق لصق الجدار :

- أين المفتاح ؟

تلقت المعلم شيحة يغالب مخاوف لا يدري كنهها . اختلطت التصورات فى رأسه وتشوشت . دس يده فى جيب الجلباب . أخرج منديلاً ، مسح به حبات العرق النابتة فى جبهته

أخرجت الأم مفتاحاً من سيالة العباءة الواسعة السوداء . عالج به الضابط قفل الصندوق حتى انفتح . كانت الأم تحتفظ فى داخله بأحجية وعقود وسلاسل من الذهب والفضة ، ومناديل حريرية ، وقصاصات ورق ، ومفاتيح .

فصل

عمليات التمرد أربكت القائد العام . تجاوزت القاهرة إلى الكثير من المدن المصرية : تحولت دمنهور إلى مركز للمقاومة . تصيد الفلاحون الرسام جولى من رحلة لأعضاء اللجنة العلمية فى الدلتا . لم يستطع الفرار ، فقتل . قاد الشيخ حسن طوبار مئات المقاتلين فى المنطقة بين دمياط والمنزلة والمنصورة . شنوا الهجمات على السفن الفرنسية التى استقلها الجنود فى النيل ، وأبادوا حراس المخافر ، وتعددت المعارك بينهم وبين قوات الفرنسيين . كان الشيخ طوبار ملتزماً لكل عمليات الصيد فى بحيرة المنزلة . يمتلك أسطولاً كبيراً من مراكب الصيد ، قوامه خمسة آلاف مركب ، وعدداً من مصانع نسج القطن ، ومن المتاجر . وكانت له عقارات كثيرة ، وأراضى مترامية المساحة . اقتحم الفرنسيون المنزلة ، واستولوا عليها . سيطروا على منطقة البحيرة بأكملها . لجأ طوبار - وأسرتة - إلى غزة . تصدى الأهالى فى المنصورة لكتيبة من ١٢٠ جندياً . قتلوا ثلاثة ، وطاردوا الباقين فى الخلاء ، فلم يفلت منهم إلا العدد الأقل . اعتصم شيخ العرب سليمان الشواربى فى الجبل الغربى . ظل يناوئ عساكر الفرنسيين ، وينصب لهم الكمائن . قتل أهالى قرية علقام ستة عشر جندياً فرنسياً فى كمين . أمر القائد العام بحرقها ، ومصادرة ما فيها من ماشية وغلال ، واقتياد العديد من أعيانها إلى السجن . وقع الجنرال مينو فى كمين ، نصبه له أهل قرية شباس عمير ، فأحرقها - انتقاماً - عن آخرها . لقي الجنرال لانوس مقاومة شديدة من أهالى سلامون وسرسنا ، لكنهم أفلحوا فى قتل الشيخ أبى شعير ، ونهبوا داره ومتاعه وبهائمه ، وقتلوا عائلته وأسرتة ، ما عدا ولد صغير جعلوه شيخاً بدلاً من أبيه . تمكن العربان فى المنصورة من إبادة الحامية الفرنسية . أكثر من مائة وثلاثين جندياً ،

وامتدت ثورات العربان إلى سنباط وميت غمر ونديط وميت الفرماوى . خرج أهل قريتي تتا وغمرين التابعتين لمركز منوف . قتلت قوات الفرنسيين خمسمائة رجل وامرأة قبل أن تدخل غمرين . قتل أهالى عربة البرج كل من تصادف وجوده فى بلدتهم من القوات الغازية . بالبنادق والعصى ، رد أهالى أبو زعبل قوات الفرنسيين إلى الخانكة ، وقتلوا كل من حاول المقاومة . انسحب من بقى من الفرنسيين إلى المطرية والمرج ، وانتهى فرارهم فى القاهرة . قتل أهل بردين فى الشرقية خمسة من جنود الفرنسيين ، وجرحوا غيرهم ، بينما لاذ الآخرون بالفرار . اقتحمت قوات الفرنسيين القرية . أحرقوها ، وقتلوا من الأهالى ما يزيد على الثلاثمائة . فى " سدمنت " تواجه الفرنسيون من ناحية ، وأهل القاهرة والممالك من ناحية ثانية . طلقات الرصاص والمدافع قابلتها الهراوات والبلطات والمسدسات والغدارات . قتل من الممالك والمصريين ما يصل إلى أربعمائة ، بينما قتل من الفرنسيين ثلاثين قتيلًا .

رفع الشيخ الكيلانى - من مجاورى مكة والمدينة - راية الجهاد ضد امتلاك الفرنسيين أمور مصر . تبعه خلق كثيرون . انضم إليهم فى الطريق من الحجاز إلى الصعيد أعداد من أهل الصعيد ، ومن الترك والمغاربة . زحفوا على جرجا . لاقوا هناك قوات الفرنسيين ، ودارت معارك متتالية . وعاقب القائد العام أهل قرية السالمية - على ضفة النيل - لقتلهم ثمانية فرنسيين ، كانوا يحملون رسائل من كليبر إلى القائد العام . تعرضت للهجوم سفينة للفرنسيين تقطع المسافة بين رشيد والقاهرة . تعددت أحكام الإعدام ضد الثائرين فى رشيد . بدل الرواة وشعراء الرماية من السير والحكايات . أضافوا وحذفوا . عكسوا ما يجرى فى المدن والقرى ، وعلى ضفاف النهر ، وفى الخلاء والصحراء وداخل الزراعات ، وفى ميادين القاهرة وشوارعها ودروبها وعطوفها وأزقتها ..

لم يكن ذلك ما خطط له بونابرت ، ولا توقعه . تباعدت المسافة بين ما سجل على الأوراق والواقع . لم يتصور أن حكومة الإدارة ستهمل إغاثته بعد تدمير الأسطول الفرنسى فى أبو قير . توقع المدد من الرجال والمؤن والسلاح . تفاقمت المشكلات بما لم

يكن يتصوره . حصار الإنجليز للسواحل المصرية ، انتشار تمرد المصريين في المدن والقرى ، لا يهدأ تمرد ، حتى ينشب آخر . مناوشات ممالك مراد بك في مصر العليا ، تقلص أعداد الجنود والعتاد فلا يستطيع أن يضيف إليها أو يدعمها على أى نحو ، نفاذ الطعام من المعسكرات ، تبليغات الأعين بخيانة جوزفين ، الأنباء السيئة المتوالية ، عن تدهور الأوضاع الإدارية في باريس ، هزائم حكومة الإدارة المتوالية حتى حاصر التهديد كل حدود فرنسا .

صدرت أوامر القائد العام بمنع الناس من الكلام في أمور الحكم ، ومن التعبير عن الفرحة أو الشماتة ، إذا شاهدوا جنداً من الفرنسيين جرحى أو قارين ..

قال الكاتب جوزيف ماري مواريه :

- لو لم يتحطم الأسطول في أبو قير ، كنا قد أبحرنا عائدين إلى الوطن .

أضاف من بين أسنانه :

- صورت لنا الحملة على مصر فاصلاً ترفيهياً . لم يخطر في أذهاننا ما نعانيه .

كتب القائد العام ، في مذكرة يرد بها على الاستقالات التي رفعها إليه الكثير من ضباط الحملة : " ليس في نيتي أن أحتفظ في الجيش برجال لا يقدرون شرف زمالتي في السلاح . فليذهبوا ، وسأيسر رحيلهم ، لكنني لا أريد أن يخفوا دوافع رفضهم مشاركتنا الجهود والأخطار بدعوى الإصابة بأمراض شتى . نحن - في المقابل - لن نخاطر بإشراكهم في أمجادنا الحالية والمقبلة " ، وأملى على سكرتيره لإدارة باريس : " كل شيء هنا يجري على ما يرام ، والبلاد كلها تحت سيطرتنا ، والشعب أخذ يألفنا " .

الباب الثامن

فصل

حين أعلن الرسل قرب وصول موكب القائد العام إلى القاهرة ، هلل - لقدوم الموكب - من جمعهم الشيخ خليل البكرى ، وعدد من التجار وأرباب الحرف وأرباب الصنائع . دخلت الكتائب - من باب النصر - دخول الظافرين . نثر في طريقها سعف النخل . زينت المحال بانشقق والحرير والزردخان والتفاصيل الهندسية . أوقدت المصابيح والشموع ومنارات المساجد . عملت المغاني والمزامير في العديد من الجهات . حملت مواكب الصوفية البيارق والخرق والطبول والزمرور . عرضت في ميدان الأزيكية ما حصلت عليه الكتائب من غنائم . شق الموكب المدينة ، حتى بلغ قلعة الجبل . ضربت المدافع من الأبراج تحية له ، وهو يصعد إلى أعلى القلعة . اكتفى أهل القاهرة بالرؤية الصامته وهم وقوف على جانبى الطريق .

أهدى البكرى بونايرت جواداً عربياً ، سرجه مزين بخيوط الذهب واللاكي، والفيروز ، وأمسك بمقوده مملوك البكرى الشاب روستان . أهداه البكرى هو أيضاً إلى بونايرت ، وأهدى القائد العام جياداً أخرى ، عليها سروج فاخرة ، وجمالاً ، وسيوفاً مرصعة بالجواهر ، وسجاجيد ، وشالات من الكشمير ، وعباءات ، وزجاجات عطر ، ومجامر بخور .

ألقيت خطب الترحيب ، والفرحة للانتصار . ما قاله بونايرت أمام قلعة عكا :
أفل نجم حظى السعيد ، نقله الضابط برتيه إلى ضباط الحملة فى الشام ، نقلوه إلى ضباط الحملة فى القاهرة ، نقلوه إلى معارفهم من المشايخ . عرف خليل البكرى أن نابليون هزم فى سورية . ربط حياته بمصير الرجل ، فلا سبيل إلى التراجع .

كان الأميرال نلسن قد عاد إلى الإسكندرية في أول أغسطس . واجه أسطول الفرنسيين في معركة أبو قير ، وتحطم أسطول نابليون تمامًا . حوَّصر جنود الفرنسيين في مصر ، فانقطعت صلة الفرنسيين ببلادهم . لم تعد المملكة الشرقية في حوزة اليد ، ولا هي التي يسهل إنشاؤها ، ولم يعد أمام بونابرت إلا أن يوسِّع نواثر سيطرته ، فيمتلك سورية . أزمع أن يستولى على سورية ، ويقضى على دولة الخلافة العثمانية ، ثم يعود إلى أوروبا بطريق بر الأناضول . جمع الديوان . تحدث إلى أعضائه عما يأمله من الحملة . أهم المزايا تنمية التجارة . حدد مدتها بما لا يزيد عن الشهر .

قال :

- عليكم ضبط البلد والرعية مدة غيابنا ، ونبهوا مشايخ الأخطاط والحارات . كل كبير يضبط طائفته فلا تحدث فتن مع العسكر .

أصدر ساري عسكر أوامره إلى دوجا حاكم القاهرة ، بأن يطلق النيران من كل القلاع ، إذا حدث شغب . يحرق المدينة بلا تردد !

بدأت الحملة على سورية ، قوامها اثنا عشر ألف ضابط وجندى ، عانوا نقص الكثير من المعدات والذخيرة والمؤن ، حتى الأدوية والأحذية والملابس والنقود ، أشياء كثيرة كانت الحملة في حاجة إليها . وعانوا حرارة الجو ، وندرة الماء ، قرصات البعوض ، والحمى ، والخوف من المجهول .

استولت الحملة على قلاع العريش وغزة والرملة ويافا . كان السيد عمر مكرم قد ارتحل عن القاهرة بقدوم الفرنسيين إليها . صارح أقاربه وأصدقاءه ومريديه أنه لن يعود إلا على جهاد . ظل في العريش شهوراً ، حتى قدم إليها بونابرت على رأس جنوده في ١٧ فبراير ١٧٩٩ . لجأ عمر مكرم إلى يافا . اقتحم الفرنسيون المدينة . أعملوا السيف في كل من له وجه إنسان . ظلوا يقتلون ، ويذبحون ، يوماً كاملاً . بلغ عدد من ماتوا - ضحى اليوم التالي - أكثر من ألفى طفل وامرأة ورجل ، بالإضافة إلى هتك الأعراس والسلب والنهب والإحراق والتدمير . سبقت عودة القائد العام أنباء قتل

الأسرى . أكثر من ألفين وخمسمائة عسكري وافق على قتلهم بالحرب للنقص في طلقات الرصاص . ارتفع في ساحة القتال هرم مرعب من القتلى ، ومن المشرفين على الموت .

كان نابليون حريصاً - ربما للتخويف - أن تصل أنباء ما حدث إلى القاهرة . أضاف إليه بياناً - بالعربية - يبلغ فيه سكان المدينة أنه لم يترك في عكا حجراً فوق الآخر ، وأنه يمكن للمرء أن يسأل عن المدينة التي كانت في هذا المكان ؟!

لحق القائد العام السيد عمر مكرم في المدينة . أرسل في مقابلته . كانت المدة التي مضاهها بونابرت في الحياة المصرية قد وضعت يده على قيم الرجال ومكانتهم . وجد نابليون في عودة عمر مكرم إلى القاهرة ما يطمئن به قلوب المصريين ، ويكسب ودهم . هو يعود من المنفى الذي لم يفرض عليه ، فهو يطمئن إلى حكم الفرنسيين ، فيطمئن كذلك أهل البلاد .

أمر نابليون بإرجاع عمر مكرم إلى مصر محاطاً بالاحترام . أمضى في دمياط ثلاثة أشهر قبل أن يتركها إلى القاهرة . بلغها في الثالث من صفر ١٢١٤ ، الموافق السابع من يوليو ١٧٩٩ .

حاصرت قوات الفرنسيين قلعة عكا . نصبت من حولها المتاريس والطوابي ، وحفرت الخنادق ، وبدأت في ضربها بالمدافع والقنابل . بعث القائد العام الكثير من الكتب ، تشيد بانتصاراته ، ويترحيب أهالي البلاد التي وصل إليها بقوات الفرنسيين . وقال في أحد كتبه " عند وصول كتابنا هذا إليكم نكون قد ظفرنا بقلعة عكا . وأما إقليم الشام ، وما يلي عكا من البلاد ، فإنهم لنا طائعون ، وبالاغتناء ومزيد المحبة راغبون ، يأتوننا بكل خير عظيم ، ويحضرون إلينا أفواجا بالهدايا الكثيرة والحب الجسيم من القلب السليم . وهذا من فضل الله علينا ، ومن شدة بغضهم للجزار باشا ، ونخبركم أن الجنرال يونون انتصر على أربعة آلاف مقاتل حضروا من الشام ، خيالة ومشاة ، فقابلهم بثلاثمائة عسكري بقيادة من عسكرنا ، وانتصر عليهم ، وأوقع منهم نحو ستمائة نفس " .

ما فعله نابليون بقتل ثلاثة آلاف جندي أسرى من الشوام والأتراك ، أحدث رد فعل لم يتوقعه ، حين أمر بالفعل الشرير . اعتزم من احتموا بقلعة عكا أن يواصلوا الدفاع ، لا يلقوا السلاح حتى لا يواجهوا مصير الأسرى الشهداء .

تولى أحمد باشا الجزار نفسه تجهيز جنوده داخل القلعة ، وتزويدهم بما يحتاجون إليه من الذخائر وآلات الحرب والمؤونة ..

قال نابليون لأحد ضباطه :

- لو استطعت أن أستولى على عكا ، فسأُنصب نفسي إمبراطوراً على الشرق ، وأعود إلى باريس عن طريق القسطنطينية !

حمل جند نابليون - عشرات المرات - على القلعة ، وأبراجها ، وأسوارها ، ووضعوا السلالم عليها . لكنهم دحروا بعد أن أبيد غالبيتهم . وحين أفلح بعض جند الفرنسيين في التسلل - تحت جنح الظلام - إلى المتاريس والطوابي خارج القلعة ، وبنفوذوا إلى الداخل . واجههم جنود المسلمين بنيران المدفعية ، وبالسيف ، وفجروا لغمين كبيرين كانوا قد أعدوهما ، فتحولت الأرض من حول الفرنسيين إلى جحيم ..

أضاف الأسطول الإنجليزي إلى إضعاف الحصار على قلعة عكا ، حين أغرق - في ميناء عكا وحيفا - ما تبقى من سفن الأسطول التي أفلتت من النيران ، وظلت بعض السفن الإنجليزية راسية في ميناء عكا وحيفا . استمر حصار عكا أربعة وستين يوماً . عرض بونايرت الهدنة لسحب قتلاه ، وتبادل الأسرى . لكن الجزار باشا طرد مبعوثي بونايرت ، وأمر بمواصلة القتال . تكررت محاولات التسلل ، وتكرر إخفاق الفرنسيين ، وبلغ عدد قتلاهم ألفاً ومائتي جندي ، وجرت رعايا القادة والضباط ، ومات بالطاعون حوالي الألف ، بشور ودمامل تحت الإبط ، أو في الجزء الأملس من البطن ، بقع قرمزية اللون ، أو جمرات حمراء على الساقين . تنفجر الدمامل . يخرج منها كميات هائلة من القيح ، ثم يأتي الموت .

حمل الأطباء تعليمات بأن يشخصوا الطاعون على أنه حمى مصحوبة بدمامل ، فمن السهل شفاؤها . من تسول له نفسه أن ينشر الخوف في نفوس الجنود بتسمية الطاعون ، لا يستحق أن يكون مواطناً فرنسياً ، ويحق عليه العقاب .

بلغ عدد المرضى والجرحى بحالات خطيرة حوالى الألفين والثلاثمائة جندى . لم يعد أمامهم إلا تفجير ما تبقى فى حوزتهم من ذخائر ، والتخلص من أمتعتهم ، ودفنوا فى الرمال ما عجزوا عن حمله . ثم لاذوا بالفرار إلى غزة ، ومنها إلى مصر ..

أجبرت الخسائر قوات الفرنسيين على العودة إلى مصر فى العشرين من مايو ١٧٩٩ . أمام عكا تبدلت الأمور . أضاف إلى المأساة ما قاله " دوجا " نائب القائد العام فى رسالة من القاهرة : " إننا نفتقر هنا إلى المال ، والمال ، والمال ، وإلى الرجال والذخيرة والخشب والسلاح وصداقة السكان " . تحولت حياة بونابرت إلى ما قبل ، وما بعد . تسلت الأكاذيب حتى فى أوامره إلى جنوده : " والآن وقد وطدنا أقدامنا فى قلب سوريا ثلاثة أشهر بحفنة من الرجال لا أكثر ، وبعد أن هدمنا حصون غزة ويافا وحيفا وعكا ، سنعود إلى مصر ، وقد اتخذت قرار العودة مضطراً لتوقعي إقدام العدو على إنزال قوات هناك " . أردف قراره بالانسحاب ، قراراً غير معلن بأن يجعل هزيمته انتصاراً دعائياً .

امتطى القائد العام جواد البكرى المهدى إليه . مضى الموكب إلى مقر إقامة بونابرت فى قصر الألفى ، من حوله أتباع البكرى والتجار والحرفيون ، وطلقات المدفعية تطلق قذائف الفرحة فى سماء القاهرة .

استقبل بونابرت أعضاء الديوان . ابتدرهم بقوله :

- بلغنى شائعات الأعداء بأننى مت . حدّقوا فىّ جيداً . هل أنا بونابرت أو لا ؟

وأخلى وجهه لتكشيرة :

- لابد أن نضع حداً للفتن التى يحاول بعض المشايخ فى الجوامع إثارتها ..

وسدد إليهم نظرة من اتخذ قراراً :

- أريد من الأزهر أن يصدر فتوى تلزم الناس أن يقسموا يمين الطاعة لى .

تبادلوا النظرات فى حرج . تمنع الشيخ الشرقاوى فى وجهه ، يتبين ما إذا كان
يعنى ما قاله :

- أن تطلب رعاية رسول الله الذى يحبك ، وتريد من المسلمين أن يعيشوا تحت
رايتك . وكما قلت فانت لست مشركاً ولا وثئياً . لماذا إذن لا تعتنق الإسلام ؟

قال بونابرت :

- علام تبني عدم إسلامى ؟

وأشار إلى البكرى والسادات :

- هذان الشيخان يشهدان بإسلامى ..

أردف فى لهجة غاضبة :

- أشم رائحة تأمر لإبعادى عن دين الإسلام !

* * *

ذهب السيد عمر مكرم إلى قصر الألفى . امتد غيابه عن القاهرة ثمانية أشهر ،
شهدت انهيار دولة إبراهيم ومراد ، وتحطم أسطول الفرنسيين فى أبى قير ، وثورة
القاهرة الأولى ، وأحداث أخرى كثيرة ، توالى فأخطأها العد .

لم يجد فى لقائه بالقائد العام ما يصنع انفراجة باب بين المصريين والفرنسيين .
عاد إلى داره بنية الاعتكاف . لا يتصل بالفرنسيين ، ولا بالمتصلين بهم من
المشايخ أعضاء الديوان . اعتذر عن المشاركة - بأية صورة - فى حكم البلاد . معنى
المشاركة إقرار حكم الفرنسيين وتأييده . لم يدخل الديوان ، ولا حاول استعادة المنصب
الذى سلبه البكرى منه فى نقابة الأشراف . حين تولى نقابة الأشراف ، لم يظهر

البكرى الغضب ، ولا مال إلى المعارضة من أى نوع . بدا كأنه امتثل للأمر ، وإن كتم الحقد فى نفسه أعواماً ، حتى قدم الفرنسيون . أعادوا له ما يزعمه لنفسه من منصب ومكانة .

لم يحاول حتى تولى نظارة الأوقاف التى استمر حكمه لها سنوات . ولما أعاد له بونابرت بعض ما صادره من أملاكه ، تعفف من أن يطالب القائد العام برد كل تلك الأملاك .

فصل

لن يتكرر ما حدث فى أبى قير ، ولا فى الشام .

تلقى القائد العام أنباء الإنزال العثمانى فى أبى قير ، وهزيمة الكتيبة الفرنسية ذات الثلاثمائة جندى ، والدفاعات الضعيفة .

فاجأه ما لم يتوقعه . شمله القلق ، وإن أخفاه بأوامر سريعة ، بصوت هادئ ، وتوقعات غير مهتزة . إعادة تجميع الكتائب الفرنسية ، تأمين مؤخراتها ، تهدئة المصريين - أو تخويفهم - فلا تنشأ من جانبهم تصرفات تضيف إلى متاعب كتائبه .

جعل بونابرت مقر قيادته فى قرية بركة غطاس بالقرب من دمنهور . عشرة آلاف جندى من كتائبه ، وألف من سلاح الفرسان . هاجم المماليك والجيش الهمايونى من اليسار ، عند الزحف على الإسكندرية ، ومن اليمين عند السير فى اتجاه النهر . توالى هجمات جنود الفرنسيين كالأمواج العالية ، تهبط موجة ، فتلحقها أخرى . شكل توالى الأمواج مدأ دفع أمامه قوات الجيش الهمايونى المبعثرة فى اتجاه البحر . ابتلعت المياه آلاف الجنود من الأتراك ، ربما عشرة آلاف جندى أو أكثر . أغرقت ناقلاتهم قبل أن ينزل إلى ساحل أبوقير . وطفقت فوق المياه آلاف القطع من أزياء جنود المماليك والعثمانيين . انتصر ذكاء القائد العام لكتائب الفرنسيين ، وحسن

تدبيره ، على قتال العثمانيين العشوائى ، وغياب الإعداد والتخطيط عند فرسان الممالك . أعلنت قوات الجيش الهمايونى استسلامها ، بعد أيام من بداية المعركة .
عوض النصر الفرنسى هزيمة عكا ، محاسناً تماماً . احتضن كليدر قائده .
ولم يكن يخفى ضيقه من تصرفاته . وهتف :

- أيها الجنرال ، اسمح لى أن أقبلك . أنت كبير مثل العالم ! بل إن عظمة العالم ليست بالقدر الذى يساوى عظمتك !

حتى هزيمة الأسطول الفرنسى فى المدينة نفسها - قبل سنة - شجبت ، تلاشت ، كأنها لم تكن .

دعا القائد العام أعضاء الديوان . حدثهم عن ذكر العلوم والفنون فى القرآن الكريم . لامهم على تقاعسهم عن رد الشائعات التى نالت منه ، ومن الجيش الفرنسى قال إن أرساده أبلغوه بدعواتهم الملعنة لأن يواجه الهزيمة ..

طاف عليهم بنظرة جامدة :

- لو أن ما تمنيتموه قد تحقق ، فإن دق أعناقكم هو المصير الذى كان ينتظركم !

وتقلصت راحته على مقبض السيف :

- هذا ما كنت قد أمرت به ..

وعلا صوته متسائلاً :

- كيف شككتكم فى نصرى ؟ لقد أكدته لكم قبل رحيلى ، وكان لابد أن يكفيكم هذا .

أعلم ما يدخره الله لى جيداً ، حتى إننى من عشرة آلاف رجل اصطحبتهم معى إلى أبو قير لم أستخدم سوى ثلاثة آلاف فقط ، وكان فيهم الكفاية لهزيمة جميع الخونة وقتلهم ..

أخذه الغضب ، فراح يتكلم بلا توقف . تحشرج صوته . اختنقت الكلمات فى حلقه . غمغم بما لم يفهمه هو نفسه .

كان الشيخ الشرقاوى على ثقة أن الفرنسيين يختلفون عن المماليك . يسمى المماليك أنفسهم " المصرلية " . أما الفرنسيون فليسوا إلا محتلين . قاد تمرداً شعبياً ضد المماليك حتى اضطروهم إلى قبول السير فى الناس سيرة حسنة ، وانجلى الفتنة . هل يستطيع أن يقود التمرد نفسه ضد الفرنسيين ؟ أليست المعاملة الشنيعة التى واجهتها ثورة القاهرة تحذيراً ، فلا يقدم على قيادة ثورة ثانية ؟

قال الشيخ لنفسه : سيظل بونابرت غريباً وكافراً ، ما لم يثبت اعتناقه الإسلام . قاطع القائد العام :

- سيدى الجنرال . لقد وعدتنا بأن تصبح مسلماً ؟

قال القائد العام :

- لم أعدكم بشيء . مع هذا فأنا مسلم . وربما كنت كذلك أكثر منكم .. لكن إذا لم تغيروا من سلوككم هذا فسوف أعود للمسيحية عقاباً لكم !

ثم وهو يهز إصبغه :

- سوف أجعل ما قيل يمر هذه المرة .. لكن تذكروا أنها الأخيرة ..

يثق أن الكذب يتجاوز حديثه عن الإسلام إلى تأكيد الانتصار فى أيامه الحالية ، وفى المستقبل ..

هزم محاولة إنزال العثمانيين فى أبو قير ، لكن القرار الصعب ظل لائحاً أمامه . نوى حلم الدولة الشرقية . صار فى قبضة المستحيل . حسم قراره حين تلقى من حكومة الإدارة فى ٢٦ مايو ١٧٩٩ رسالة تقول : " عليك أيها المواطن الجنرال أن تنتظر فى ما إذا كان بوسعك أن تترك فى مصر - باطمئنان - جزءاً من قواتك . فى هذه الحالة ، فإن حكومة الإدارة تخوّلك أن تعهد بقيادتها إلى من تراه مناسباً " .

فصل

نقل السقا حميدة أبو قطة إلى مختار الرمادى ما أشيع فى الأسواق من وجود

علامات بوصول قريب لجيوش عثمانية . أطلال بونايرت زيارة إلى بيت شيخ السادات . نفى الشيخ ما أثاره بونايرت من وجود رسالة بعث بها العثمانيون . تجمع المنات من أهل القاهرة أمام بيت السادات . يظهرون انزعاجهم على الشيخ . تناثرت الأقوال ، وإن تلاقى في أن القائد العام يخشى من تمرد المصريين ، وأنه - خوفاً على حياته - سيعتق دين الإسلام . وقال بيرم الغندور السقا بسوق الجمعة إن بونايرت طلب من الشيخ السادات تصريح أمان لمغادرة مصر . وحين تعالت الأصوات - فجأة - عند خروجه من البيت ، سأل نابليون وهو يتجه إلى عربته . بذل المترجم تلاوة الناس للفتحة ، إلى أنهم يدعون للقائد العام .

فصل

التقيا في دار جمال الدين الذهبي كبير التجار بحارة خوش قدم . يطل على الفناء مقعد ذو عقدتين متكئين على عمود من الرخام ، ومن الجهة الشرقية تطل القاعة الكبرى على إيوانين تتوسطهما درقاعة مغطاة بقبة صغيرة من الخشب ، يكسو أسفل جدران القاعة رخام ملون بديع الصنع . وثمة جزء على هيئة محراب ..

ليظل الأمر في تكتم ، صحبه إلى الإيوان البحري . في صدر القاعة مشربية مغلقة على الشارع ، تعلوها شبيباك صغيرة من الجص ، وقطع الزجاج الملون ، وسقفا القاعة والمقعد مزينان بالدهان والذهب ، وأرضية القاعة مغطاة بالرخام ، وتتوسط فناء البيت نافورة من الرخام ...

فاجأه بالقول :

- بونايرت عاد إلى بلاده ..

- لعله رحل لأمر طارئ ..

- مضى في الليل ولن يعود .. أخبرني بذلك ضابط فرنسي صديق ..

أضاف - من رواية الضابط الفرنسي - أن بونايرت أدرك - بعد إخفاقه فى حصار
عكا - أنه لم يعد بإمكانه البقاء فى مصر . تظاهر - حتى أمام ضباطه - أنه سيظل
حاكماً لمصر ، وأنها ستظل نقطة الارتكاز فى إمبراطوريته الشرقية .

عرف نابليون فى القاهرة أن جيش الفرنسيين يخوض معارك فى أوروبا ، فآزمع
العودة - سرّاً - إلى فرنسا . أدهشه ما رواه الضابط من أن خدم نابليون فضّوا رسالة
تركها لكليبر - قبل عودته إلى بلاده - يدعوه للتفاوض مع الباب العالي فى الجلاء عن
مصر ، إن لم يأت المدد خلال ستة أشهر . أمر بتعيين كليبر قائداً عاماً ، وتعيين ديزيه
قائداً للصعيد ..

فصل

قالت البلانة نعناعة وهى تدخل على زينب :

- عندى خبر سيئ ..

ظلت ساكنة ، وإن أومأت بأن تستكمل كلامها ..

- الفرنسي عاد إلى بلاده ..

- أى فرنسى ؟

- القائد العام .. نابليون بونايرت ..

حاولت أن تتغلب على شعورها بالمفاجأة . منذ أيام ، استضافه أبوها فى بيت
الأزبكية ، فى احتفاله بالمولد النبوى الشريف . زار أبوها الجودرية هذا الصباح . لم
يشر إلى نية القائد العام فى الرحيل . تكلم عن لقاءات أخرى قادمة .

- ما شأنى إن سافر أو ظل فى مصر ؟

- حسبت أن هذا الخير يهكم ..

وداخل صوتها ارتباك :

- تكلموا به فى السوق .

همست زينب كأنها تكلم نفسها :

- لم نعد نلتقى منذ فترة طويلة ..

هجرها القائد العام منذ رآها فى الثوب الفرنسى . بولين نوريس هى التى حرضتها على إبدال ثوبها . المرأة خائطة ، فحاكت بنفسها الثوب الذى ارتدته . أدركت المعنى حين قصر نابليون صداقته - فيما بعد - على بولين . حين عرض عليها الضابط أونوريه ديستان وده ، غالبت التردد . بدت العلاقة مقبولة بين الشريفة والقائد العام ، ثم عرفت الطريق إلى بيت الضابط ..

قالت زينب :

- لا أحد يستطيع أن ينسب إلينا علاقة غير قائمة ..

وارتعش أنفها بالارتباك :

- كل علاقة لها طرفان .. فأين الطرف الآخر ؟ ..

فصل

استعصت الأمور على بونابرت فى عكا ، فعاد إلى مصر ..

دخل جيش الباب العالى دمشق . انضم إلى إنكشارية الجيش العثمانى أعداد من الأمراء والولاة وجنود الإقطاعيات ، فبلغ خمسين ألف جندى ، ثم واصل الصدر الأعظم سيره إلى مصر . استولى على العريش ، وأسر نحو مائة وخمسين من قوات الفرنسيين ، وقتل الباقين ..

قال الشيخ المقدسى :

- لعله سافر لغزوات جديدة ..

قال مختار الرمادى :

- ولماذا لا يكون قد أدرك استحالة البقاء فى مصر ؟

- ما أعرفه أن نابليون عهد بالأمر إلى الجنرال كليبر .

- كليبر !..

عرف ممن اتصلوا به أنه يجيد الشئون الإدارية ، ويميل إلى الانضباط ، وأن هيبته يحترمها الضباط والجنود ..

قال :

- يقال إنه لا يؤمن بجذوى الحملة !

قال المقدسى :

- ما يهمله هو المحافظة على أرواح المواطنين الفرنسيين ، وليس التطلع إلى إعجاب التاريخ !

- لذلك رحل نابليون دون أن يتيح له مناقشة القرار ..

وهرش ذقنه فى حيرة :

- إنه حتى لم يلتق به قبل رحيله ..

- فلنتوقع مفاوضات قريبة بينه وبين الإنجليز أو العثمانيين ، أو كليهما ، للرحيل عن مصر ..

قال الرمادى :

- لو أننا وصلنا طرق الحديد وهو ساخن ، فسيقترب يوم خروج الفرنسيين ..

كانت سفن الإنجليز قد أبحرت من الإسكندرية فى اتجاه قبرص . تسلل بونابرت إلى السفينة التى عادت به إلى بلاده فى ظل خلو الميناء من أسطول الإنجليز . رافقه

برتية ، ومورا ، ولانس ، ومارمون ، وأوجين دى بوهارنيه ، وبرتوليه ، ومونج . ركبوا
الفرقاطتين كارير ومويرون . أقلعتا - أول الليل - بعيداً عن الإسكندرية . حتى بولين
فورييه ، لم يبلغها باعتزامه العودة إلى فرنسا .

فصل

شق موكب القائد العام كليبر - فى هيبة - شوارع وسط البلد من الأزبكية إلى
القلعة ، يصحبه الكتبة والصيارف ، يركبون الجنايب والبغال والرهوانات ، ويتقدمه
القواسة والمقدمون ، بأيديهم الحراب المفضضة والمذهبة ، والتبايت ، وينابون فى
الناس : هذا هو السلطان القائد العام . انحنوا له أيها المسلمون !

صعد الموكب إلى القلعة . قدم كليبر تلميذاته لأعضاء الديوان بأنه لا يحمل إلا
الخير لكل المصريين ..

أردف بصوته الأجش :

- إننى قلما أنزعج من الأشرار . أهل الخير سيرا قبونهم ويعرفوننى بهم . الشرير
يجب أن يعاقب .

يقينه أن تعاون المشايخ مع الحملة ضرورة مؤقتة فرضتها الظروف . يذهب
الفرنسيون - كما يتمنون ويتوقعون - فيعود كل شىء إلى حاله .

فصل

هاجم العثمانيون العريش ، واستولوا عليها . فعلوا فى الجنود الفرنسيين الأسرى
ما فعله بونايرت فى أسرى يافا من العرب والأترك . قتلوهم جميعاً . واصل
العثمانيون تقدمهم نحو القاهرة ، تسبقهم تحريضات للمصريين بأن يعلنوا الجهاد .
قال كليبر لخاصة ضباطه :

- أعرف أن الأعوام الماضية كانت كابوساً مزعجاً .

وداخل صوته تغير :

- تبددت كل الأحلام الوردية ، ولم يعد أمامنا إلا الرد على التمرد اليومي

للمصريين !

ثم فى نبذة حاسمة :

- ما نملكه هو القتال فتهينوا له !

تهامس الناس فى الأسواق باقتراب الجيش العثمانى من مصر . قال الشيخ المقدسى إن خروج الفرنسيين لملاقاة الجيش الهمايونى سيتبعه خلو الأماكن كلها منهم ، فيسهل على المصريين توجيه ضربات قاصمة إليهم لا يقوون على ردها ..

ترقب أهل مصر قدوم العثمانيين ، وأعلنوا الجهاد فى سبيل الله ، وأعدوا أنفسهم للانضمام إلى قوات الخلافة ، وأقدموا على قتل من صادفوه داخل القاهرة من الفرنسيين ، وأقاموا المتاريس على نواصى الطرقات ، وفى التقاطعات والمفارق ..

أحدثت أنباء قدوم الجيش العثمانى إلى مصر ما أزعج الفرنسيين . توزع تفكيرهم بين دفع قوات الباب العالى ، والتصدى لثورات المصريين . استدعى المسيو فوربيه أعضاء الديوان . أبلغهم نبأ احتلال الجيش العثمانى القادم من سوريا مدينة العريش . تحدث عن ضرورات الحرب ، تقضى باعتقال عدد من يؤثرون فى الأحداث . أنهى كلامه بالإشارة لجنوده . اقتادوا المشايخ الأربعة : عبد الله الشرقاوى ومحمد المهدي ومصطفى الصاوى وسليمان الفيومى ، مع علماء آخرين ، إلى سجن القلعة . ظلوا فيه مائة يوم . لم يخرجوا إلا بعد توقيع الصلح بين قوات العثمانيين والفرنسيين على أن تخرج الثانية من مصر المحروسة ، وتتجه إلى رشيد وأبى قير ، قبل أن تترك البلاد كلها .

فصل

قال الكاتب جوزيف ماري ديزيه :

- لو أن المصريين سكتوا عن وجودنا ، ربما أهمل نابليون العودة إلى فرنسا ، وأقام هنا دولته المستقلة !

كان التصرف الصواب - في تقدير كليبر - هو الجلاء عن مصر . إذا لم يكن الجلاء ممكناً - في ظل الحصار الإنجليزي ، العثماني ، وثورات المصريين - فإن المفاوضات هي السبيل لقيام صلح يحفظ للجندى الفرنسي - في عملية الجلاء - كرامته . واجه ارتباكاً في إعداد قواته للسفر من مصر . قال إن بوناپرت بدأ قبل رحيله مفاوضات مع الباب العالي . خاطب ضباطه بالقول :

- مضيت في تلك المفاوضات حتى الآن ، والأمر الآن متروك لكم إن أردتم العودة إلى فرنسا ، لكنني لا أستطيع قبول المقترحات المعروضة على . وأعتقد أنه لا يوجد جندي لن يفضل الموت على ترك أسلحته . فهل سيرغب في العودة إلى الوطن عارياً ، مجرداً من كل شيء ، وكأنه متشرد طرد من بلد كان يخشى يوماً جانبه فيها ؟

أرسل إلى الأميرال الإنجليزي سميث يطلب وساطته في عقد اتفاق مع الدولة العثمانية لتنظيم جلاء قوات الفرنسيين . عقد اجتماع بين الصدر الأعظم والأميرال الإنجليزي وضباط فرنساويين . وقعوا اتفاقاً ، يقضى بجلاء قوات الفرنسيين من مصر - بكل أسلحتها - على سفن إنجليزية .

قال كليبر لضباطه وجنوده :

- سترون الوطن بعد أربعة أشهر ، وإن خدمتكم للوطن في الجيش الفرنسي ستكون أكثر فاعلية مما هي في مصر ..

بدأ كليبر في سحب قواته من القاهرة إلى الإسكندرية . اقتربت قوات العثمانيين - من ناحية مقابلة - لاستلام مواقع في القاهرة . عرف القائد الأعلى للأسطول الإنجليزي

فى البحر المتوسط ما آلت إله قوا؁ الفرنسىين من ضعف . رفض اءفاق العريش ، وأمر أن تبحر السفن الإنجليزية ، وعليها قوا؁ الفرنسىين - بعد إعلانها بالأسر - إلى إنجلترا بدلاً من فرنسا ..

هاجم كليبر - بالمفاجأة - قوا؁ العثمانيين الزاحفة إلى القاهرة . هزمها فى المطرية وعين شمس . انتصر التنظيم الفرنسى على فوضى العثمانيين ، وطارد القوا؁ العثمانية إلى بلبيس ، ثم إلى يافا .

حقق الفرنسيون انتصاراً أضعف من قوتهم . لا سلاح ، ولا عتاد ، ولا مؤن . اكتفى بونابرت بتحديد مهلة الإنقاذ . تواصل النزف من الجسد المأخن بالجراح .

الباب التاسع

فصل

قالت زينب للانزعاج فى عينى أبيها :

- فورة وتنتهى ..

صار لها علاقاتها المتشابكة بضباط فرنساوية . رفضت تلميحات الجنود . لا تهمل انتماءها إلى عائلة من الأشراف ، ولا تهبط من القائد العام إلى جندى بلا شأن ..

شاهدها حميدة أبوقطة فى بركة الأزيكية ، حيث أرباب الملاهى والمغنيات والغوازى والخواطى والراقصين والراقصات والبغايا والحشاشين وشاربى الخمر والحواة والسحرة ولاعبى القمار والقروود والفساق والعياق وأهل الأهواء وطوائف الرميلاية والخلابيص

أحدث الفرنسيون بغيظ النوبى المجاور للأزيكية أبنية على هيئة مخصوصة ، تتعالى فى جنباتها أصوات الطبول والزمور والكمنجة والقانون والعود والرباب والصاجات والرق والدفوف . يلتقى فيها النساء والرجال للهو والخلاعة فى أوقات مخصوصة ، كل من يدخل يدفع مقابلاً ، أو يكون حاملاً لتذكرة تبيع له الدخول .

أذهل مختار الرمادى أن بنت البكرى تعطى جسدها للكفار ، بينما المعلمة ريحانة صاحبة فرقة العوالم بناحية باب الخلق ترفض أن يرقص نساؤها أمام جنود الفرنسيين ، حتى لا تصيبهن أعين الكفار بالنجاسة .

* * *

طوح مختار الرمادى شومته فى الهواء . تلقفها وهو يدور حول نفسه . هوى بها على جسد غير مرئى . دار فى وقفته ، ثم عاود الضرب ..
هتف الناس باسم عمر مكرم . بدا المنقذ والأمل المرتجى ..
وضع مختار الرمادى والذين معه أسلحتهم تحت يدى السيد عمر مكرم ، يأمر باستخدامها على النحو الذى يريده ، وفى المكان - أو الزمان - الذى يحدده .
قال الرمادى :

- اغتصب البكرى منصب نقيب الأشراف ، والأولى به منصب نقيب الخونة !
خرج السيد من عزلته الاختيارية . لزم بيته منذ أن أعاده نابليون من يافا إلى القاهرة . غضب من تخاذل الممالك . لم يعد أمامه إلا أن ينادى المصريين ليدافعوا عن أنفسهم .
سار المناوون فى المدينة ، يذيعون فى الناس ما ينبغى لكل واحد أن يقوم به ، وما يجب على الجميع أن يتبعوه .
لبى الناس نداء عمر مكرم . خرج كل من كان فى القاهرة من الرجال . لم يبق فى داخل المدينة إلا العجائز والنساء والأطفال . تنازل الجميع عن معظم ما يملكون لشراء السلاح والذخيرة والخيام .
مضى عمر مكرم وشهبندر التجار أحمد المحروقى ، وطائفة من البكوات ، إلى التلال خارج باب النصر . انضم إليهم أترك خان الخليلى والمغاربة المقيمون فى مصر والحجازيون . تبعهم كثير من نوى المهن والحرف والصناعات ، ومن العامة والحرافيش ، يحملون العصى والنباييت والبنادق والسيوف والخناجر . يخرقون الدروب والعطوف ، وأصواتهم تعلو بكلمات مغناة من اختراعهم . قدمت جماعات من الدرب الأحمر والتبانة وسوق السلاح وباب الوزير ، وطوائف من العدوية والأسبوطية .

عمل التجار بنصيحة السيد عمر مكرم . جمعوا الأموال ، ودبروا إنفاقها . تعهد المحروقي بتغطية نفقات حفر الخنادق ، وإقامة المتاريس والاستحكامات ، وغيا ب الرجال عن أسرهم ، وإمدادهم بالطعام والشراب . تأثرت صلته بالفرنسيين - للمرة الأولى - منذ دخولهم مصر . ظلت له عندهم حظوة شبيهة بما كان له أيام المماليك . اختاره القائد العام عن التجار فى الديوانين العمومى والخصوصى . رافق نابليون فى رحلته إلى السويس . تبدلت حساباته ، وتصرفاته بالتالى ، بتصوره - عند قيام الثورة - أن دولة الفرنسيين زالت . لم يقتصر إسهامه على التأييد المادى والمعنوى ، لكنه شارك بنفسه فى الإعداد والتنظيم والمواجهة .

بدأت الأحداث فى حى بولاق . جمع أهل الطوائف ، كل طائفة من أبنائها ، ما يغطى تكاليف الخروج على الفرنسيين . نودى بالنفير العام . خرج الناس إلى المتاريس . وأغلق التجار دكاكينهم ، وأغلقوا الأسواق .

خرج الجميع إلى بر بولاق . أولاد البلد وأولاد العرب ومساتير الناس والزعر والحرافيش والفلاحين والأعراب ..

أجاد أهل القاهرة تنظيم أنفسهم . تسلحوا بكل ما بلغته أيديهم من البنادق والفؤوس والخناجر والعصى والشوم والسكاكين . أنشأوا معملأ للبارود فى بيت قائد أغا بالخرنفس . صنعوا المدافع والذخائر . لجأوا إلى ما خلفه الفرنسيون من قطع المدفعية فى ضواحي القاهرة . أنشأوا مصنعاً حربياً فى بيت القاضى ، وفى قاعة المحكمة ، وفى الخان المجاور . صنعوا قنابل من حديد الجوامع والمطارق وآلات الحرفيين . أقاموا مصنعاً للبارود فى بيت قائد أغا . توزعوا على أبواب البيوت ، وفى الخلاء ، وعلى نواصى الشوارع والميادين . أعدوا المتاريس والخنادق والحفر العميقة ، وقفوا وراءها يحملون الأسلحة . عملت محال صهر المعادن فى تشكيل أسلحة من الحديد والنحاس ، بلط وسيوف وخناجر ومدى . وقف الرجال على متاريس أقاموها عند تقاطعات الطرق ، وأخذوا على أنفسهم السهر فى الدروب والعطوف لدرء أية محاولة للهجوم .

أشرف السيد عمر مكرم بنفسه على كل شىء . تنقل بين الرجال وراء المتاريس ، وفى النواصى ، وفوق الأسطح . صار جميع أهل مصر ، والعساكر كلها ، واقفة بأطراف البلد ، عند الأبواب والمتاريس والأسوار . حملت النساء الطعام إلى الرجال وراء المصدات والمتاريس ، وفى الخلاء ..

تحزم الحاج مصطفى البشتيلى وزملاؤه من التجار . هيجوا العامة ، وهينوا عصيهم وأسلحتهم ، وتقدموا الجميع إلى نطاق الفرنسيين فى ساحل البحر . قتلوا من أدركوه منهم ، واستولوا على جميع ما فيه من خيام ومتاع وغيرها . عادوا إلى القاهرة ، ففتحوا المخازن التى أودع بها الفرنسيون أغراضهم . أخذوا كل ما استطاعوا الوصول إليه ، ثم عملوا كرانك حول البلد ، ومتاريس ، وتصايحوا بدعوة الجهاد .

* * *

فى الثامن من إبريل عام ١٨٠٠ شن الفرنسيون هجوماً عنيفاً على أجزاء من بولاق . أحرق العديد من الدور . سقط المئات جرحى وقتلى ، محتسبين عند الله شهداء . تعالت الجثث برائحة تؤذى النفوس ..

ما أزعج الفرنسيين أنهم يعتبرون بولاق مساوية للقاهرة تماماً . هى - فى تقديرهم - أشد أهمية من الجيزة . سكانها يزيدون عن أربعة وعشرين ألفاً ، وبها أربعة وعشرون مسجداً ، وثلاثون وكالة أكثر اتساعاً وأبهة مما فى القاهرة ، وميناؤها يستقبل سفناً محملة ببضائع الدلتا وواردات أوروبا . كان الفرنسيون قد أضافوا إلى أهميتها بشق طريق طويل يربطها بالقاهرة عند قنطرة المغاربة .

أخلى حى بولاق من سكانه . تصور الفرنسيون ميلهم إلى الاستسلام . ما كادوا يمشون خطوات فى داخل الحى ، حتى عاجلتهم طلقات المدفعية . ألقت النساء - من فوق أسطح الدور - بقطع الحجارة وقوالب الطوب والماء المغلى .

استمات المدافعون المتحصنون داخل البيوت، وخلف المتاريس ، رفضوا أن يلقوا أسلحتهم . قالوا : إنه مدامت الحرب مستمرة فى القاهرة فإنهم لا يمكن أن يستسلموا .

أعلن مراد بك نفسه سلطاناً فرنسياً . قدم للفرنسيين ما كان ينقصهم من المؤن والذخائر . سلمهم من لجأ إليه من عساكر العثمانيين . أرسل ما احتاجوا إليه من المراكب المحملة بالأحطاب والمواد الملتهبة لإشعال الحرائق التى تقضى على الثورة . دارت المعارك من حارة إلى حارة ، ومن بيت إلى بيت . لجأ جنود الفرنسيين إلى أبشع ألوان القتل والتدمير والنهب . ارتكبوا ما لا يمكن تصوره من الفظائع . لم يبعد الثوار عن مواقعهم إلا إضرار النار فى كل شيء . احترقت بولاق بالكامل . لم يعد يوجد فيها إلا الدمار .

* * *

امتدت الأحداث إلى كل أخطاط القاهرة وشوارعها وحواريها ودروبها وعطوفها وأزقتها . من باب الفتوح وباب النصر والعطوف إلى الحسينية وباب الشعرية . من بيت القاضى إلى الخرنفش . من بركة الرطل إلى درب الجماميز . من بركة الفيل إلى طولون . صعدت إلى المحجر والقلعة ، وإلى زين العابدين . تناثرت أسماء على الإسكافى وعلى الساييس ومختار الرمادى وحسن الجداوى وإسماعيل القاضى ومحمد الجوهري وتاجر الكتان محمد آغا الطويل .

عاد المشايخ الشرقاوى والمهدى والفيومى والعمروسى من مفاوضات مع الفرنسيين فى الأركان العامة . طالبوا بإيقاف الحرب ، وأن تعود الأحوال إلى ما كانت عليه قبل الثورة ، فلا جزاء ولا عقاب . كرر الشيخ الشرقاوى نصيحته بأن يتوقف الناس عما بدؤوه ، ويظهروا الخضوع لقوات الفرنسيين . أدرك الناس أن الشيخ ألف الترف والرفاهية ، وأنه يستريح إلى الدعة أكثر من التهيؤ لرفض وجود الفرنسيين . رفضوا إيقاف المعارك . إذا أراد الفرنسيون الرحيل ، فليرحلوا . وإذا أرادوا تنظيم

إقامتهم ، فالمعارك لا بد أن تستمر . رمى المتمردون عمائم المشايخ ، وأسمعهم قبيح الكلام . عابوا عليهم أنهم واصلوا الفرنسيين ، وانضموا إليهم ، وسايروهم ، ولاطفوهم في أغراضهم . قالوا : هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيين ، ومرادهم خذلان المسلمين ، وقد أخذوا دراهم من الفرنسيين . ضرب المتمردون المشايخ ، ورموا عمائمهم في الأرض ، وسبّوهم بشتائم قاسية ..

عاد المشايخ إلى بيوتهم حاسري الرؤوس ..

جمع الحرافيش ما أطلق على المدينة من القنابل والقذائف ، ولم ينفجر . حاولوا إعادة رميها على الفرنسيين . ترك جنود الفرنسيين ثلاثة مدافع في ساحة المعركة بالمطرية . أتى بها الأوباش من موضعها ، وأعادوا تجهيزها . أطلق نصوح باشا نيرانها على قصر الألفى ، حيث يقيم القائد العام . وضع الزعر مدفعاً في حديقة بيت البكرى بالأزبكية . قصفوا به مقر قيادة الفرنسيين في بيت الألفى .

تحول الفرنسيون إلى القاهرة . جرى القصف والتدمير ، وإشعال الحرائق والتقتيل . رفض أهل القاهرة أن يتركوا مدينتهم . أقسموا بالله ورسوله أنهم يؤثرون أن يدفنوا تحت الرماد والأنقاض على أن يروا المدينة وقد سقطت من جديد في أيدي الكفار . رفض الجنود الأتراك كذلك إطاعة الأوامر بالجلء عن المدينة .

توالى إطلاق القنابل والرصاص من أعلى القلعة ، ومن الشوارع المحيطة بميدان الرميّة ، ومن أعلى الدور . امتد الخراب والتدمير والحرائق والفوضى والسلب بما لم يحدث من قبل . هدموا مسجد النقيب ، وضربوا ما حوله . أزالوا البنايات من أحياء بأكملها . هدموا كل القصور المطلة على الأزبكية . تحول الحى إلى كتبان من الخرائب والرمال والآتربة . تساقط البمب في الصناديقية وبين القصرين والسكركية وقصر الشوق والغورية . أكد أهل المشهد الحسينى أن بركات ابن بنت الرسول منعت القذيفة التي سقطت أمام بيت القاضى من الانفجار .

دخل الفرنسيون القاهرة بقوة المدافع . نهبوا بيت السيد عمر مكرم ، ونهبوا بيوت
الأمراء الذين ناصروا أهل القاهرة فى الدفاع عن مدينتهم . اعتقلوا الحاج مصطفى
البشتيلى . وجدوا فى وكالته البارود مخبأ فى القنور والزلع وتحت البلاطات . خيروا
بعض أتباعه بين مواجهة الإعدام ، وفتكهم للرجل بأيديهم .

تحصن الزعر فى بيت أحمد أغا شويكار . يسميه الفرنسيون " بيت رينيه " على
اسم جنرال فرنسى من قادة الفرنسيين ..

سد الفرنسيون مداخل القاهرة تماماً . صار من الصعب أن ينفذ أحد ، سواء
كان من الداخلين إليها ، أو الخارجين منها ..

عانى المصريون أياماً قاسية . فرضت الضرائب الباهظة ، وكثرت
المصادرات ، ومات الكثير من التجار والعلماء والعامة فى السجون ، وتحت قسوة
التعذيب .

هجم الجنود الفرنسيون بالليل كأنهم خفافيش الكهوف والأماكن المظلمة . لكثرة
عمليات اقتحامهم بيوت المصريين ، سموا عفاريت الليل . العفاريت تفاجئ الناس ليلاً ،
مثلاً يفاجئهم جنود الفرنسيين فى الوقت نفسه . هجر الكثيرون دورهم وأماكن رزقهم
، وشهدت أطراف القاهرة مظاهر هجرة غير مسبوقة .

لم يعد بوسع الأهالى مقاومة العنف الفرنسى ، ولا تحمل الحصار . دامت الثورة
أربعة وثلاثين يوماً . أحدثت من التدمير والخراب ما لا يوصف ، وأزالت من الوجود ما
يصعب حصره .

قتل فى المعارك ما بين ثمانمائة وثلاثة آلاف من المصريين ، وحوالى ألف
وسبعمائة جريح . بالإضافة إلى ما بين سبعمائة وألفين من الأتراك والمماليك ، وسقط
الكثير من البيوت عند المفارق من جامع عثمان كتخدا إلى رصيف الخساب ، ومن خطة
الرويعى إلى حارة النصارى . صارت كلها تلالاً وخرائب كأنها لم تكن مغنى صبايات ،
ولا مواطن أنس ونزاهات .

فصل

أمر القائد العام كليبر بتزيين القاهرة ثلاثة أيام . دخل القاهرة في ٢٧ إبريل . تقدم الموكب عساكر على الجياد ، يأمرؤن المصريين بالوقوف عند اقتترابه ، يهينون بالضرب والشتم من يتباطأ في ذلك .

صدرت الأوامر بقتل كل من يحمل السلاح ضد الفرنسيين ، لا مساءلة حتى لو قُتل كل الأهالي . البشتيلي هو الوحيد الذي استثناه كليبر من العقو العام . اعتبره المحرض الرئيسي على التمرد . عثر لديه على رسالة يقول فيها لعثمان كتحدا : الكلب دعانا للصلح ، فأبينا . أمر القائد العام أعوان البشتيلي - إذلاً له ولهم - أن يقتلوه بأنفسهم . طافوا به المدينة ، ثم انهالوا عليه بالنبايت ، حتى مات .

فرض القائد العام على أهل طنطا غرامة خمسين ألف ريال ، وخمسين ألفاً أخرى على علماء المدينة ، واقتيد اثنان من العلماء إلى قلعة الجبل ، فسجنوا فيها . وفرض الفرنسيون على الشيخ سليمان الفيومي غرامة خمسين ألف ريال ، واعتقلوه حتى دفعها . هرب شهيندر التجار أحمد المحروقي إلى الشام ، فلا يلحقه أى الفرنسيين . عرفوا بمشاركته في الثورة ، فأزعموا عقابه .

دهى الناس بهذه النزلة التي لم يصابوا بمثلها ، ولا ما يقاربها . ومضى عيد الأضحى دون أن يلتفت إليه أحد ، ولا يشعر به . نزل البلاء والذل بالجميع بما لا يوصف . لم يجد الدائن من يدينه ، ولا من يشتري منه متاع بيته . ضاق الناس ، وتمنوا الموت .

فصل

زار العلماء كليبر . ارتدوا أفخر ما لديهم من الثياب . تصوروا أنه سيشكرهم على الوساطة بين أهل مصر والفرنسيين .

فاجأهم القائد العام بالقول - من خلال ملامح متجهمة :
- كنت أظنكم أعقل الناس لأنكم المثل والقنوة .. لكن السرور الذى استقبلتم به
العثمانيين جعل نفاقكم واضحا .
غالب الشيخ العمروسى ارتباكاه :
- قلت لى أنكم أصدقاء السلطان ، وهو - كما تعرفون - سلطاننا القديم ، ولسطان
المسلمين ..

قال كبير :

- لماذا لم تمنعوا الرعية عن محاربتهم لنا ؟

قال الشيخ الفيومى :

- لقد تقووا علينا بغيرنا . وحين أشرنا عليهم بالصلح وترك القتال ، لجأوا إلى
حربنا وبهدلتنا !

قال كبير :

- إذا كان الأمر كما ذكرتم فلا تستطيعون إسكات الفتنة .. ما فائدة رئاستكم
إذن ؟

ثم فى نبرة مفعمة بالغضب :

- أنتم تستحقون المعاملة التى عومل بها أهل بولاق ..

وغالب غضبه ببسمة سخرية :

- نحن لن نقتلكم ، وإنما سنأخذ منكم الأموال .

فرض غرامة عشرة ملايين من الفرنكات على مائتى شخص ، نصفها نقداً ،
ونصفها عيناً . يستثنى منها أهل القاهرة لأنهم لم يعودوا يملكون شيئاً ، ويستثنى
منها الشيخ البكرى لما تعرض له من إيذاء المتمردين ، والشيخ المهدي الذى أحرق بيته .

شكا الشيخ الشرقاوى ما لحقه من أذى على أيدي المصريين ، بسبب ما دعا إليه من الخنوع والتوقف عن المناوأة . عوضه الفرنسيون عما ادعى أنه نهب منه . وعاد الرجل إلى اتفاقاته القديمة معهم ..

لم يكن القائد العام ينوى قتل المشايخ . لعله وجد في قتلهم ما يحدث ارتباكات ، ويضيف أعباء جديدة . وجد في فرض الغرامة ما يدفع به رواتب الجنود المتأخرة ، ويصلح مالية الجيش ، ويعصر مصر كما تعصر الليمونة .

اعتقل الفرنسيون الشيخ محمد الأمير بجامع سارية . ادعوا أن ابنه كان أحد المحرضين على الثورة ..

سأله الضابط الفرنسي بليار :

- أين ولدك ؟

قال الشيخ :

- مقيم فى بيتى بقوة ..

- غير صحيح . إنه عند العثمانيين الذين يتهيئون لدخول البلاد ..

- إن شئتم أرسلت إليه بالحضور ..

- سأمهلك ثمانية أيام ، مسافة الذهاب إلى قوة ، والعودة منها . إذا لم يحضر الولد فستدفع الثمن !

انتهت الأيام الثمانية ، دون أن يحضر ابن الشيخ . اعتقله الفرنسيون ، وحبسوه فى القلعة .

اتهم القائد العام شيخ السادات بأنه هو الذى كان وراء ثورتى القاهرة الأولى ، والثانية ، وأنه دفع أموالاً للمتمردين فى حى قناطر السباع . فرض على الشيخ غرامة باهظة . وكان يضرب مرتين فى اليوم الواحد لإجباره على دفع الضريبة

الباهظة . أهمل كبير ما سبق لنا بليون من العفو عن شيخ السادات بعد اتهامه بزعامة الثورة الاولى :

- أعرف أنه يجب قطع رأسه ، لكن هذا القتل سيأتى بمساوى أكثر مما يأتى بالفوائد . الرجل اسمه معروف فى الشرق كله ، وقتله يعنى جعله شهيداً ..

أعاد كبير القول :

- هذا الرجل هو زعيم التمرد .

قال نابليون :

- عليك إذن أن تقتله رمياً بالرصاص !

أردف فى لهجة مؤنبة :

- الأوفى أن يكون للمصريين زعماء من نوع هذا الرجل ، لا يحسنون ركوب الجياد ، ولا استخدام السيف ، بدلاً من زعماء مثل مراد بك .

ثم وهو يهز رأسه :

- قتل هذا العجوز لن يفيد شيئاً ، وربما حقق نتائج سلبية بأكثر مما نتصور !

عرف الشيخ بدر المقدسى من أعوانه أن ما يواجهه شيخ السادات هو نتيجة وشاية من مراد بك . ظل فى نفسه توبيخ شيخ السادات له ، عندما قدمت أنباء دخول الفرنسيين الإسكندرية ، بأن ما حدث هو نتيجة أفعاله وتعديه هو وأمرأؤه على متاجر المصريين ، وأخذ بضائعهم . أغرى القائد العام بشيخ السادات . وكان كبير ينقم عليه منذ الأيام الاولى لقدم الفرنسيين ..

اكتفى مراد بك بمتابعة الأحداث ، لم يحاول المشاركة فى الثورة على أى نحو . فضل أن ينتظر حتى تبين الكفة الراجحة ، فيضع ثقله فيها .

بعث مراد إلى الفرنسيين يتودد إليهم ، ويلتمس مصالحتهم ، على أن يتولى أمر الصعيد ، يطلقون فيه يده هو وجنده ومماليكه . أرهقته مناوشته للقوات الفرنسية في الصعيد . رحل بونابرت ، وحل كليبر بدلاً منه ، فلماذا لا يعرض المهادنة والتعاون ؟

وقع كليبر مع مراد اتفاقية سلام وتحالف . يحكم مراد - بمقتضاها - الصعيد الأقصى جنوبى بلدة بلصفورة . يمنح خراج إقليم جرجا . يؤدى " الميرى " إلى السلطة الفرنسية ، بدلاً من حكومة السلطان . يمّون الحامية الفرنسية فى ميناء القصير ، يساعدها فى حالة الاعتداء عليها ..

أهمل مراد دعوة الجهاد ، واستبدل بها المضى إلى الصعيد ، يتصور فيه الاطمئنان إلى صداقة الفرنسيين . بلغت الأهالى نصيحة مراد بك للعثمانية والمماليك بمصالحة الفرنسيين ، هاجت ، ووضعت أيديها على خيول الأمراء والمماليك العثمانية . حبستها ، وأهانت هؤلاء الأمراء والأغوات ، وأهانت من مال إلى الصلح من مشايخ الديوان ..

فصل

نزل شيخ السادات ، وركب إلى داره . لم يعد فى غياب الأمن ما يساوى كل ما عنى به : الرخام الملون ، والأعمدة الفاخرة . حولها مساكن ومخادع وقصر لجلوسه ، ومكان لإقامة الحريم ، ودار بها رواش ومساقى وبستان عامر بأنواع الشجر ..

ذهب معه عشرة من العسكر ، وجلسوا على باب داره . لما مضت حصة من الليل ، حضر إليه عشرة من العسكر أيضاً . أركبوه ، وطلعوا به إلى القلعة ، وحبسوه فى مكان . أرسل إلى عثمان بك وتدخل عليه ، فشفع فيه .

قال له القائد العام :

- أما القتل فلا نقتله لشفاعتك ، وأما المال فلا بد من دفعه ، ولا بد من حبسه وعقوبته حتى يدفعه ..

قال شيخ السادات :

- لم يحدث قط أن والدى ولا من ريونى قد ضربونى . على العكس ، إن الكبراء والعلماء كرمونى واحترمونى دائماً ، وأبدى الأمراء الاحترام نفسه !

قبض الفرنسيون على فراش شيخ السادات ومقدمه ، وحبسوهما . ثم أنزلوه إلى بيت قائمقام ، فظل فيه يومين . ثم صعد به الجند إلى القلعة الثانية ، وحبسوه فى حاضن . ينام على التراب ، ويتوسد حجراً ، وأسرفوا فى إهانته ، ووالوا عليه الضرب . لم يردعهم مقامه المستمد من نسبه ومولده ، ولا منزلته بين مواطنيه ..

ظل الشيخ فى سجنه يومين آخرين ، ثم طلب زين الفقار كتحدا . طلع إليه وهو وبرطملين ..

قال لهما الشيخ :

- أنزلونى إلى دارى حتى أسمى وأبيع متاعى ..

استأذنا له ، فنزل إلى داره . أحضر ما وجده من النقود ، تسعة آلاف ريال ، منها ستة آلاف فرانسة . وقوم الفرنسيون ما وجدوه من الذهب والفضيات والثياب الثمينة وغيرها بأثمان بخسة ، مجموعها خمسة عشر ألف ريال فرانسة . بلغ مجموع النقدية والمقومات واحداً وعشرين ألف ريال ، والعسكر يحيطون به ، حتى لا يصعد إلى أهله ، وإن كان قد وزع أهل بيته وابنه إلى مكان آخر ، ولأن أكثر أتباعه باماكين مجهولة ..

واصل الجنود تفتيش الدار ، والبحث فى أرضها عن الخبايا . لما لم يجدوا شيئاً ، اقتادوه ماشياً إلى بيت قائمقام . وواصلوا ضربه خمس عشرة عصا فى الصباح ، ومثلها فى المساء . وأحضروا تابعه محمد السنوبى ليدله على مكان زوجة الشيخ وابنه . أكرهوه على الإقرار حتى اعترف . أحضروا المرأة والولد . أودعوا الولد عند أغوات الإنكشارية ، بينما حبسوا الزوجة معه .

كانوا يضربونه أمام عينيها ، وهى تبكى ، وتلوى . وكان شاغلهم هو النكاح والتشفي .

تشفع الشيوخ الشرقاوى والفيومى والمهدى ومحمد الامير وزين الفقار كتحدا . استعداد القائد العام قول نابليون : نحن إذا كسبنا تأييد كبار شيوخ القاهرة ، كسبنا الرأى العام فى مصر كلها . ليس بين زعماء مصر كلهم من هو أقل خطراً علينا من الشيوخ ، فهم عاجزون عن فعل شئ ، ويوحون بالتعصب دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين .

نقل الجنود زوجة الشيخ السادات إلى بيت الفيومى ، وظل الشيخ فى سجنه ، ووضعوا معه مقدمه وفراشه .

فى الخامس من محرم ١٢١٥ أصعدوا شيخ السادات إلى القلعة ، ومنعوه من الاجتماع بالناس . ظل فى اعتقاله ، لم يفرجوا عنه إلا فى قيادة الجنرال مينو . وكان قد سد الغرامة المفروضة عليه . واستولى الفرنسيون على حصصه وإقطاعه ، وقطعوا مرتباته ، وكذلك جهات حريمه ، والحصص الموقوفة على زاوية أسلافه ، وشرطوا عليه ألا يترك قصره ، ولا يجتمع بالناس ، وألا يركب دون إذن من القائد العام ، ويقتصد فى أموره ومعاشه وتقليل أتباعه .

الباب العاشر

فصل

مختار الرمادى ..

التفت ناحية الصوت . تبين رامى خشبة ، التاجر بالحمزاوى . يعرف صلته بالفرنسيين . أدرك أنه يواجه مأزقاً . دلهم الرجل - لا بد - على موضعه . لاحظ تردده على سكة المناصرة . لاحقه بالمتابعة قبل أن يبلغ جيش الفرنسيين عن وجوده فى المناصرة ، فى هذه اللحظة . قدم إليها لشراء أدوات لدكانه ..

عاود التلفت - فى اللحظة التالية - إلى المكان من حوله . كان يستبدل بالميادين والشوارع الواسعة ، طرقاً جانبية ، ضيقة ، مزدحمة . الزحام يهب الفرصة للاختباء ، فى تلاصق الأجساد ورائحة البشر والدواب . شعر - بخلو الشارع - أنه عار . لم تكن الاحتمالات تخيفه ، ولا تخيفه الحياة فى الخطر . داهمه خوف من المجهول لم يشعر به من قبل ، ولا تصور أنه سيعانيه . ربما منذ حدثته تغريد عن القىء الذى عاودها ثلاثة صباحات . لن تنذر النور ، وتطوف على كتاب الأحجية وقارئى الفئجان ، وعلى الأضرحة والمقامات . تدفعها أمها إلى ما كانت تجد فيه تعجلاً بالحمل . تستكين لما تعرف أن أمها ستفعله : الشراب الممزوج بخنافس مسحوقة ، تفتح صدرها فتلقى فيه الأم ضفدعة ذكراً ، لكى تحمل ويأتى المولود ذكراً ، تخطو - وهى ميتة من الخوف - فوق شعبان يتلوى على أرضية الحجر . تمسك الأم بالمصحف وهى واقفة ، يجرى لسانها بأدعية ورقى ، بينما تمر تغريد من تحت المصحف المرفوع سبع مرات ، وسخونة البخور فى المبخرة - من تحت - تشوى ساقها ..

أشفق عليها لما قالت من بين شفتين متقرزتين :

- إذا خيرت بين الموت وما أتعاطاه ، أختار الموت !

قال مختار :

- اختيارنا هو الطفل الذى يجعلنى أباً ..

رفضت أم تغريد ما عرضته أمه ، لما أخفق ما لجأت إليه من أفعال
فى وضع البذرة داخل أحشائها . ضرب لها الرمل منجم فى ناحية الصناديقية .
طالبها بنزول لأهل العوالم السفلية ، وتحدث عن الاستعانة بالسحر لتحقيق الأمانة
المشتهاة .

هل يسلب الخوف من المجهول شجاعته ؟ هل أخطأ بإهمال عمله وبيته ؟ أو أنه
أخطأ بالزواج ؟

خروجه إلى الفرنسيين جاء تالياً لنزوله فى بيت المعلم شبيحة . لو أن الأمور لحقها
تقديم أو تأخير ، ربما مضت إلى وجهة مختلفة . ربما ظل عزباً ، مسئولاً عن نفسه
وحدها . يترصد للفرنسيين ، يقاتلهم ، يأكل ما يقدم إليه ، وينام حيث يلحقه التعب ،
يهمل الاختفاء والاستتار عن أعين الفرنسيين وبصاصيهم .

اندفع إلى باب جانبي ، موارب . صعد السلّمات الحجرية . قفز من فوق النظرات
المتسائلة ، والخائفة ، والصرخات . دفع باب السطح . ارتبك لرؤية المرأة تثبت الغسيل
بالمشابك على المناشر . نط من جانبها إلى السطح المجاور ، ثم إلى أسطح أخرى ،
متلاصقة . اصطدم بنساء وأطفال ومناشر غسيل وقطع أخشاب ودجاجات . هبط إلى
طوابق تحتية ، وصعد إلى طوابق عالية ..

حين طالعه ميدان الرميّة فى أسفل ، فطن إلى أنه اقترب من البيت .
توقف ليسترد أنفاسه . قفز إلى السطح الملاصق . هبط السلالم إلى شقته
فى الطابق الثانى . تنهد لرؤية تغريد تفتح الباب . دس جسده
بجوارها تحت الغطاء ، التصق بها . أشفقت من الرعشة فى صدره ، فطوقته
بذراعها ..

فصل

كان القائد العام ينصرف من دار الجنرال داماس رئيس أركان الحرب . تناول الغداء مع قيادات جيشه . مال - والمهندس المعماري بروتان - إلى الرواق الطويل ، تظله تكعيبة عنب . يفضى إلى دار القيادة . فاجأهما الشاب . فى حوالى الثلاثين . جسده أميل إلى الضمور ، وجهه شاحب ، مسحوب إلى أسفل ، ووجنتاه بارزتان ، وأنفه مدبب حاد ، ونظراته ساهمة .

أظهر الشاب نو الزى الأزهرى أنه صاحب حاجة يستغيث . أفلت من الحراس ، تقدم نحو القائد العام .

أدرك الجنرال أن الشاب يتسول . ما أكثر الذين يستوقفونه لصدقة . قبل أن يجاوز الشاب ، مد الشاب إليه يده بمظلمة . مد كليبر يده . قبض عليها ، ووجهه باليد الأخرى ثلاث طعنات . صرخ كليبر فى تألم وهو يقبض على ساعد المهندس المعماري . كانت طعنة الخنجر قد نفذت إلى الصدر .

هتف :

- إلى أيها الحراس ..

وسقط على الأرض .

جرى الشاب . جرى وراءه بروتان حتى أدركه . لم يكن تهيأ لعراك . لحقه الشاب بست طعنات ، فقتله فى الحال ..

عاد الشاب إلى كليبر الغارق فى دمه . طعنه - للتأكد من موته - ثلاث طعنات . لكن الطعنة الأولى كانت قد انتزعت السر الإلهى ..

صرخة كليبر وهتافه نهباً العسكر . ارتفع صوت النفير ، وحدثت فوضى . قدم مئات الجند من ميدان الأزيكية ، يتنادون بالشار للقائد القاتل . هاجموا - بتأثير ما حدث - كل من صادفهم فى الطرقات من المصريين . لم يفرقوا بين ذكر وأنثى ، ولا بين

طفل وشيخ . حركهم الدافع إلى الانتقام . قال القائد العام مينو لكبار المشايخ والوجهاء :

- لابد من عقاب كل من تسبب في هذه الجريمة ، وإلا فسنقتل أهل مصر عن آخرهم !

واصل الجند التفتيش في الطرق الخالية ، وبين الدكاكين والبيوت المغلقة . لم يكن القاتل قد ترك موضع اختبائه في الحديقة ، فعثر عليه الجنود ، وقد غطت الدماء ثوبه . اقتادوه إلى بيت أركان الحرب . عثروا على الخنجر في الموضع نفسه .

نقل جنمان كليبر إلى حديقة قصر العيني . دلى التابوت المغطى بعلم الفرنسيين في حفرة وسط الحديقة . لا يظل فيها ، وإنما يعوبون به إلى فرنسا . استجوب الجنرال مينو القاتل . واجهه المعمارى بروتان . توالى الأسئلة : اسمه ؟ دينه ؟ ماذا أتى به إلى مصر ؟ من حرضه ؟ من أسر إليهم من أهل مصر بما كان يعد لارتكابه ؟

ذكرت روايات عن ترصد القاتل للقائد الفرنسي منذ أيام . وقف على باب مقر القائد الفرنسي في الجيزة ، بيده عريضة يريد تسليمها . رفض بيروس - سكرتير الجنرال - دخوله . أمر الجند ، فطردوه إلى خارج المقر . رآه الياوران ديفوج - صباح يوم الجريمة - وسط جماعة من الخدم . يعرفهم الياوران جيداً . خمن أنه من العمال الذين يعملون في عمارة السراى ، فطرده إلى الحديقة . لم ينكر الشاب فعلته ، ولم يعتذر عنها . زاد فإدان أبناء العرب والإسلام على تخاذلهم ، وحمد الله على توقيفه في قتل القائد العام كليبر .

هو سليمان . طالب علم من حلب . أبوه تاجر اسمه أمين . مسلم من حلب التابعة لبلاد الشام . عمله طلب العلم والكتابة . لم تكن هذه هي زيارته الأولى لمصر المحروسة . أتى إليها في السابق ، وله فيها هذه المرة خمسة أشهر .

نفى أن يكون ما فعله بتحريض من أحد . واصل رؤساء الفرنسيين استجوابه . أعادوا الأسئلة نفسها ، وضيقوا على الشاب الحلبي بملاحظات ، ثم اتبع معه الرومى

بارتملى - يسميه العوام فرط الرمان - طريقة التعذيب . باح بكل ما كان يخفيه ، وبواعث ارتكاب جريمته . حرضه على قتل الجنرال ضابطان تركيان ، وأرسله أغا الإنكشارية لعملية القتل . قدم من غزة قبل شهر ، وتنقل فى أكثر من مكان . أفشى الخطة السر لثلاثة من أهل مصر . جاء الجند بالرجال الثلاثة . أخضعوا للأسئلة المتوالية والتعذيب ، فاعترفوا . أضافوا قولهم إنهم لم يتصوروا إقدام الحلبي على تنفيذ ما انتوى فعله ..

سليمان الحلبي ..

أستعاد مختار الاسم . ربما التقى به فى رواق الشام بالأزهر ، أو وكالة التجار السوريين بالطوفة ..

قال مختار :

- أقدم الحلبي على ما عجزنا عن فعله ..

قال الشيخ المقدسى :

- لا تجلد نفسك .. لعله وجد الفرصة التى لم نجدها ..

وانزلت حبات المسبحة بين أصابعه :

- هو طالب بالأزهر ، واجبه الدينى يدفعه لنصرة الإسلام ..

فصل

طبقوا العدالة على طريقتهم ..

مثل الشاب الحلبي أمام المحكمة العسكرية . مقيداً بالأصفاد ، ويحيط به جنود . بدأت المحكمة أعمالها بالاطلاع على تقريرى الطبيب الشرعى للقنيلين كليبير والمهندس بروتان .

- اسمك ؟
- فى نبرة واثقة :
- سليمان الحلبى ..
- ديانتك ؟
- مسلم ..
- مصرى ؟
- من أهل حلب
- ماذا تعمل ؟
- صنعتى طلب العلم والكتابة .
- متى جئت إلى مصر ؟
- منذ خمسة أشهر ..
- لماذا ؟
- ليست هذه أولى زياراتى إلى القاهرة ..
- من أرسلك ؟
- لم يبعثنى ولا حرضنى أحد .. جئت بأمر من نفسى ..
- من يعرف سرك من أهل مصر ؟
- لا أحد .. لم أكشف أحداً بسرى ..
- أنت تنكر ما اعترفت به من قبل ..
- وأشار إلى الجنود الفرنسيين المحيطين بالحلبى :
- استدعوا له ذاكرته !

والى الجنود ضربه . شكوا عليه أنواع التعذيب . استخدموا من الوسائل ما لا قبل لبشر على احتماله . أجبره التعذيب - الذى لا يطاق - على الاعتراف بكل ما اعترف به ، وأنكره ..

طلب رئيس المحكمة من الشاب أن يروى الجريمة من بداياتها .

أنكر الشاب ما حدث ، وأنكر صلته حتى بالخنجر ، وأن الجنود صادفوه خارج الحديقة . أمر قائد الجند مينو بضربه حكم عوائد البلاد . حالاً أنضرب ، فطلب العفو ، ووعده أنه يقر بالصحيح ..

أحضر الفرنسيون الشيخ الشرقاوى ، ومعه قاضى مصر الشيخ أحمد العريشى . أودعوهما سجن القلعة إلى منتصف الليل ، ثم ألزموهما البحث عن الأزهرين الأربعة الذين ذكر الحلبي أسماءهم فى اعترافه . استجوب المشايخ الذين ائتمنهم على سر قتله . كرر عليهم الضرب ، فاعترفوا ..

قال القائد العام مينو :

- ما نوع الإعدام عند المصريين ؟

قال الشيخ البكرى :

- إنها أنواع (وعد بأصابعه) قطع الرأس وتعليقها على رمح فى موكب يمر بالأسواق .. التوسيط من أسفل السرة .. ينقسم الجسد إلى نصفين .. غرس خازوق بالأرض ، يرفع الذنب على قمته ..

قاطعه مينو :

- هذا هو العقاب الأنسب لقاتل القائد الكبير .

لم يكن ثمة من يدافع عن المتهمين فى مواجهة الادعاء . عينت المحكمة الترجمان لوماكا للدفاع عنهم . صدرت الأحكام - فى النهاية - بحرق اليد اليمنى للحلبى ، ثم وضعه على الخازوق حتى الموت ، وتترك جثته ليأكلها الطير .

أما الشبان الأربعة الذين كتموا السر : محمد الغزى وأحمد الوالى وعبد الله الغزى ، والهارب عبد القادر الغزى ، فتقطع رؤسهم .

نفذت الأحكام فوق تل العقارب بالقاهرة فى ١٧ يونيو ١٨٠٠ . قطعت رؤوس المشايخ الثلاثة أولاً . ظل الحلبي فى لحظات إعدامه هادئاً ، يردد الشهادتين ، ويتلو آيات من القرآن . بينما كان الجلال بارتملى يحرق يده اليمنى ، أخذ عليه أنه حرق كوعه بالفحم ، وهى عقوبة غير مشروعة .

وضع الحلبي فوق الخازوق . تعذب لبضع ساعات ، دون أن تصدر عنه أهة تألم . ناوله جندى فرنسى كأساً من الماء ، اختصر عذاباته .

فصل

دعا شيخ الصوفية مريديه وأتباعه لقراءة الفاتحة على روح سليمان الحلبي . نال الشهادة دفاعاً عن دين الإسلام . لم يغفر علماء الأزهر للفرنسيين ما عاناه الشيخ السادات على أيديهم من صنوف القهر والإذلال . ضربوه ، وصادروا أمواله ، ودفعوه إلى بيع أملاكه ، وفاء لما فرضوه عليه من غرامات . هو شيخ عظيم المقام ، ومن الإساءة للإسلام ، وللمسلمين ، أن يتعرض للإيذاء . أذن العلماء للحلبي بالإقامة ثلاثين يوماً داخل الأزهر ، وسكتوا عن نيته الملعنة فى قتل كبير ..

فصل

لم يجد المصريون فى اعتناق مينو للإسلام تصرفاً صادقاً . هو أقرب إلى النفاق ، ربما لأن زبيدة استهوته ، فلم تهيه نفسها دون زواج ، أو لأنه أراد استمالة المصريين ، فلا تناله مقاومتهم . هى ابنة أسرة شريفة النسب ، من رشيد ، أبوها السيد على الرشيدى ، ومطلقة من سليم أغا . أظهر حالة العقد للإسلام ، ونطق

بالشهادتين ، لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها . إيمانه أن فرنسا قدمت إلى مصر لتستقر فيها . يختلف مع كليبر الذى أعلن عدم اقتناعه - منذ الأيام الأولى لوصول الفرنسيين - بجبوى بقائهم فى مصر .

أعاد مينو تكوين الديوان من تسعة مشايخ : الشرقاوى والفيومى والأمير والمهدى والبكرى والسرسى والجبرتى والرشيد . عنى بإشراك أهل مصر فى إدارة بلدهم . شارك فى الاجتماعات مشايخ الحارات ومشايخ الطوائف وأشخاص من العامة . أجرى تعديلات فى تعيين القضاة ، وتغييرات فى أساليب القضاء . ظل الديوان يعقد اجتماعاته ، رغم احتجاز عدد من أعضائه فى القلعة .

كان كليبر قد أفرج عن شيخ السادات ، بعد أن جرده من معظم ممتلكاته ، وضيق عليه الاشتغال بالأمور العامة .

شدد على مراد بك أن يظل هادئاً فى الأقاليم التى منحت له ، ولا يتراسل مع سورية ، أو يقيم علاقة تخابر مع الجيش الهمايونى . لمح باشتباهه فى أن مراد يعد لمخططات شريرة .

أقام البكرى مأدبة بانخة لمينو وكبار قاداته ، بمناسبة المولد النبوى . حضرها بعض الموظفين العموميين وكبراء البلد . أضاء بيته فى الأزبكية بالقناديل ، وعلق على واجهته الأشرار والأعلام ، وارتفعت البيارق - ذات اللونين الأحمر والأخضر ، وعلت مدائح المتصوفة من مريدى الطريقة البكرية ، وانطلقت الشهب والألعاب النارية والصواريخ والمفرقات .

أما الضباط فقد أقلعوا عن تزيين بيوتهم ، وعن إقامة الحفلات والمآدب ، والتردد على قاعات العروض المسرحية ، والتعامل بمنطق البقاء فى مصر بلا انتهاء .

أصبح الانسحاب فى مدى الأفق .

الباب الحادى عشر

فصل

قال القائد العام :

- إذا كنا قد نجحنا فى إخضاع المصريين ، فكيف نخضع الطاعون ؟

وتهدج صوته بالانفعال :

- يبدو أن القوى الغيبية تناصر هؤلاء الناس !

قال الكاتب جوزيف مارى مواريه :

- ألا تلاحظ أن جنودنا لم يلقوا السلاح طيلة أعوام الاحتلال ؟

ونمت لهجته عن استياء :

- أربعون فى المائة من الضباط والجنود سقطوا بين قتيل ومفقود ..

هز مينو رأسه مؤمناً :

- ما أثق فيه أن محصلة الحملة خسارة مؤكدة !

تفشى الطاعون فى مصر كلها . أفلت الساحل من الإصابة ، بينما أكل الوباء القاهرة ، وسقط ثلث سكان مصر العليا ضحايا للمرض اللعين . انتشر كما لم يحدث من قبل . الفئران والدم والموت . لم يستطع الأطباء إيقاف الكارثة . خرج العدد عن حد الكثرة . مات به ما لا يحصى من الأطفال والشبان والجوارى والعبيد والماليك والأجناد والكشاف والأمراء . تزايدت أعداد الوفيات فى اليوم الواحد ما بين ثلاثمائة إلى أربعمائة مصرى فى اليوم الواحد . لم يعد للناس إلا ذكر الموت وبواعثه ومواعظه . ولم يعد من وقت أمام المفلسين يريحون فيه أبدانهم . أصيب بالعدوى نصف جنود

الحملة . ارتفع عدد ضحايا الطاعون وجرحى المعارك إلى ألفين ، وقتل أكثر من خمسمائة ، وفقد نظره بالرمد ألف جندي .

لم يخل شارع ولا حارة ولا بيت من النحيب والبكاء والمويل والصوات . تعددت مشاهد الجنازات ، وارتماء النسوة في الشوارع ، وعلى أبواب البيوت ، ينخرطن في النحيب والصراخ . أهمل الناس مراعاة قواعد الجنائز . هلك من الخلق أكثر من عشرة آلاف شخص في شهر واحد ..

فصل

طالب القائد العام بإبطال رفع الأذان في غير مواقيت الصلاة . الأذان في غير موعد ، إشارة للتنفيذ لعمليات ضد جنود الفرنسيين .

كانت الحياة تغيب عن المدينة من العشاء حتى مطلع الفجر . الخروج من الدور مغامرة . يترامى - من خلف الأبواب المغلقة - إيقاع خطوات الجند . يبحثون عن مخابئ سرية وسرايب وأنفاق ، يخفى فيها الثوار الأسلحة ، ينتقلون من موضع إلى آخر ، يلونون بالفرار من القاهرة إلى تلال الدراسة ، أو متعرجات المقطم ..

تحددت الأيام في التوقع والانتظار وبوى القنابل والرصاص ..

سأل البكرى في اجتماع الديوان عن أصوات المدافع في القاهرة . ترامت إليه في بيت الجودرية . هل هي من جانب الفرنسيين ، أو من جهة أخرى ؟

قال الشيخ العريشى :

- تقاربت الجيوش فلا نستطيع تبين الجهة التى تطلق نيران المدافع

قال البكرى :

- أنا أثق في قدرة الجيش الفرنسى على الدفاع عن القاهرة

ثم فى صوت هامس يقطر توجساً :
- الحذر من الخيانة هو ما نطلبه الآن . على مشايخ الأحياء وعساكر الجندرية أن يبلغوا عن المفسدين
أظهر المعلم شيحة تخوفه من محاولة اقتحام الحسينية . أقام الفرنسيون حصنين هائلين على جانبي الحى من الخارج ، فيصعب الدخول إليه ..
قال مختار الرمادى فى تأكيد :
- سنستعيد الحسينية من الفرنسيين ..
وهز قبضته :
- أعرف أن الكثيرين سيستشهدون .. لكن دخول الحسينية يستحق دمائنا ..

فصل

بدأت قوات العثمانيين وقوات الإنجليز - عقب رحيل نابليون - فى مناوشة قوات الفرنسيين . ظلت المعارك متواصلة ، متقطعة ، وثورات المصريين قائمة فى الداخل .
أوصدت فى وجوه جنود الفرنسيين كل الطرق المؤدية إلى الإسكندرية . صارت حامية الإسكندرية مفصولة عن حامية القاهرة . وقع من ركبوا القوارب فى أسر سفن الإنجليز والعثمانيين ، وفتك الأهالى بمن صادفهم فى الطريق ، أو قيدوهم أسرى . لم يبلغ الإسكندرية إلا العدد القليل من جنود الفرنسيين . ترامت الأنباء باستيلاء قوات العثمانيين على رشيد والرحمانية ، وتقدمها نحو القاهرة ، توازرها قوات الإنجليز . وأنزل الأسطول الإنجليزى عشرة آلاف جندي فى أبو قير .
واصلت القوات العثمانية زحفها - ترافقها قوات الإنجليز - نحو الإسكندرية هزمت فيها قوات الفرنسيين . توالى الهزائم وأعداد القتلى . بلغت خسارة قواته أربعة آلاف ، بين قتل وجريح وأسير ، فى يوم واحد . زاد نقص المياه ، وتفشى الطاعون

طلب القائد العام هدنة ، يعد قواته خلالها للجلاء عن مصر . تخلى - بتواصل معاناة الجيش الفرنسى - عن أحلامه بالبقاء الأبدى للفرنسيين فى مصر .
قال مينو :

- أنا أشد الفرنسيين إيماناً بضرورة بقائنا فى هذا البلد ..
استطرد فى نبرة تسليم :

- مع ذلك ، فإنى أبدأ قيادتى للحملة بالتفاوض على الخروج من مصر .
اختلف مع كليبر - منذ البداية - فى النظرة إلى معنى الحملة وجدواها . لم يجد كليبر فائدة فى فتح مصر . بينما تحمس هو للأمر . مصر هى البديل لمستعمرات جزر الأنتيل الضائعة . تصبح فرنسا سيدة تجارة إفريقيا والهند بما ستنتجه مصر من البن والسكر والقطن والتبلة وغيرها .

كتم الضباط والجنود الضيق فى نفوسهم للقب عبد الله الذى أُرِدْف به الجنرال مينو اسمه . تغيير دينه جعله أقل شعبية بين الجنود . أضافوا إلى استيائهم إطلاق اسم سليمان على وليده من زبيدة ، وهو اسم قاتل كليبر . اعتبروه مرتدّاً عن دينه ، وتشككوا فى قدراته العسكرية والإدارية . لم يكن يمتلك هبة بونابرت ، ولا هبة كليبر . ميزته الوحيدة أنه الأكبر سناً بين الجنرالات . وسيلته إلى قلوب الجنود هى دفع مرتباتهم ، وتلبية احتياجاتهم ، من ميزانية تعاني الجذب بصورة واضحة . لم يكن كذلك يمتلك الكفاءة ولا الشجاعة ولا الخيال المنطلق مما ميز سلفيه بونابرت وكليبر . واجهه أحد ضباطه بالقول : إن الموقع الذى يجدر بك الوقوف فيه هو المطابخ وليس قيادة الجيش !

قال الكابتن جوزيف مارى مواريه :

- ربط الرجل مصيره وعواطفه بامرأة من هذا البلد ، فهل يفكر فى التخلي عن أسرته الجديدة ليعود إلى فرنسا ، حيث يواجه السخرية ؟

فصل

ظهر مراد بك بعد طول احتجاب .

أقام معسكراً على الضفة الغربية فى نيل القاهرة ، بينما كانت الكتائب الفرنسية قد تجمعت فى مدخل الحى الأوروبى ، غربى القاهرة ، بين القاهرة والنيل . نشطت المراسلات بين مراد بك وبين الفرنسيين ، عبر الست نفيسة والمسيو روزيتى . ظل إبراهيم بك على تردده . اعتزم الانضمام إلى الفرنسيين بشروط مشابهة لشروط مراد بك . ثم تخلى - فى آخر لحظة - عما اعتزمه .

انتقل مينو إلى الإسكندرية ، وتولى بليار قيادة الجيش الفرنسى فى القاهرة . لكى يضمن بليار السكينة ، اعتقل فى القلعة شيخ السادات وأعضاء الديوان : الشرقاوى والمهدى والصاوى والفيومى ، وعدداً من المشايخ والوجهاء والتجار . تزايدت الاعتقالات بتهم شتى : التفوه بأقوال معادية للفرنسيين ، حيازة أسلحة ، التجسس . ونفذت إعدامات فى القلعة .

ضاق الخناق على قوات الفرنسيين . اتفق الفرنسيون وممثل الباب العالى على أن يخلى الفرنسيون مدينة القاهرة ، وينسحب الجند بأسلحتهم وعتادهم ومدفيعيتهم وذخائرهم إلى رشيد عن طريق البر ، بحذاء شاطئ النيل الغربى . إذا انتهوا إلى رشيد ، حملتهم السفن العثمانية والإنجليزية إلى موانئ فرنسا على البحر المتوسط ..

طالب الفرنسيون بثلاثة آلاف كيس من الأموال ، تعويضاً عما سيخلفونه من سلاح ومال . رفض ممثلو الباب العالى ما طلبه الفرنسيون . قالوا : إن ما ستركونه وتسمونه مال الجمهورية ، وكل ما فى أيديكم ، سوف نحصل عليه ، فلا تماطلوا ولا تضيعوا الوقت .

قال المعلم شيحة إن التاجر أحمد المحروقى جمع من أهل القاهرة خمسة عشر ألف مدين لسد المبالغ التى طالب بها الفرنسيون ..

قال مختار :

- أخشى أن يسلبنا الأتراك والإنجليز ثمرة جهادنا ..

وارتفعت نبرات صوته ، فبدت خطابية :

- لولا ثوراتنا المستمرة ، ما شغلهم حتى مجرد التفكير فى طرد الفرنسيين ..

قال الشيخ مدين الهمشرى خادم مسجد السيدة فاطمة النبوية :

- مطلبنا هو إجلاء الفرنسيين عن بلادنا .. النتيجة لا الوسيلة ..

قال مختار :

- لتظل البلاد فى أيدينا لا فى أيدي العثمانية والإنجليز ..

أريد وجه الشيخ .

- هل تساوى بين القوات المسلمة وقوات الكفار ؟!

وأشاح بيده فى إنهاء للمناقشة :

- قوات العثمانيين تمثل دولة الخلافة التى ندين لها بالولاء ..

رمقه مختار بعينين متأملتين ، كأنه يريد أن يعيد اكتشافه . ثم هز رأسه دون

معنى محدد ، وسكت .

تحدث المعلم شريحة عن السيد عمر مكرم . هو أشد العلماء ترقباً لكشف الذين تعاونوا مع الفرنسيين . قامات طويلة وقفت موقف الذل والمسكنة . يشغله - فى الوقت نفسه - استرداد منصب نقيب الأشراف . حصل عليه خليل البكرى بلا حق ، عليه أن يتركه بلا ملاحظة .

لحق الطاعون مراد بك ، فأزهق روحه ، لم يهنأ بإمارته على إقليم الصعيد ، واستولى مماليكه على كل ما خلفه من أموال وأمتعة وأراض ..

فصل

لما طال غياب مختار عن البيت ، قال المعلم شيحة في لهجة واثقة :

- لا تخشوا على مختار فهو فى أمان ..

أدرك العجوز أن مختار مضى وراء الفرنسيين ، يتابعهم ومئات العامة وأبناء البلد . لا يهبون ثقتهم حتى لانطلاق الجنود العثمانيين والإنجليز وراء الفرنسيين . واصل الجيش العثماني زحفه نحو القاهرة من ناحية الشرق ، وزحف الجيش الإنجليزي من رشيد ، وتكاثرت عمليات المصريين فى داخل البلاد ..

فى منتصف يونيو ١٨٠١ كانت قوات الإنجليز والعثمانيين قد وصلت بالقرب من القاهرة . كتب بليار إلى مينو : ما عاد من الجائز أن ننخدع فيما يتعلق بوضعنا . أعتقد أن انتظار وصول عون هو من قبيل التعلل بالأوهام .

صدر بيان يعلن أنه قد تم عقد الصلح بين جيش الفرنسيين من ناحية ، والجيش الهمايوني والإنجليز من ناحية ثانية .

فصل

توقع المعلم شيحة أن يفتش جنود الفرنسيين البيت - كعادتهم - وينصرفوا . فاجأه سؤال الضابط :

- أين مختار الرمادى ؟

كتم المعلم شيحة ارتبأكه . ظل على صمته وهو يرمق الضابط بنظرة محايدة ..

أعاد الضابط القول :

- أين زوج ابنتك ؟

قال المعلم :

- مادمت لم تجده فهو ليس هنا ..

- أسألك أين هو ؟

- لا أعرف !

عرف الفرنسيون بأمر مختار الرمادى . وشئ به أُرصادهم ، فضيقوا عليه الخناق . تعددت الكمائن التي نصبت للإيقاع به . عرفوا " مختار " بون بقية الاسم . لم يعرفوا ملامحه ، ولا مهنته ، ولا أين يسكن . هو مختار فقط . تصدر أفعال عوام المصريين بأفكاره وتخطيطه .

فصل

تلكأت قوات الفرنسيين فى الجلاء عن الإسكندرية . ظهر أنهم ينتظرون وصول إمدادات من فرنسا . دار قتال عشرة أيام ، خرج فيه الفرنسيون من الطوابى على ضفتى بحر مريوط وطابية العجمى . قتلت أعداد كبيرة فى داخلها . قدم القائد العام طلباً بالهدنة ثلاثة أيام ، يتفاوض فى أثنائها لتسليم الإسكندرية .

سلّمت الإسكندرية قلاعها وحصونها وبنائاتها وكل ما يقع فى دائرة المدينة فى مدى عشرة أيام . ركب عساكر الفرنسيين سفناً أعدت لنقلهم إلى فرنسا ..

أصر الرمادى على أن يتحرى أحوال جيش الفرنسيين برؤية العين إلى بلوغه رشيد ، ثم تحملهم السفن إلى الموانى التى بدأ منها غزوهم قبل ثلاث سنوات . تدافع الأولاد بين أرجل الكبار ، يتطلعون إلى الجيش المنسحب ..

انضم المعلم يعقوب - وعدد من أعوانه - إلى الفرنسيين فى انسحابهم . ركبوا الفرقاطة الإنجليزية " بالاس " مع قوات الفرنسيين . أبحرت ناحية قبرص وساحل شبه جزيرة آسيا الصغرى .

كان يدبر الأمور لهم ، ويعد أنواع المكر والخدع ، ويطلعهم على الأموال والثغائر المخبوءة ، ويبرر أفعالهم . وافق نابليون على أن يرافق ديزيه فى حملته لمطاردة مراد بك ، وإخضاع الصعيد . جهز للحملة ما يلزمها : أمن طرق المواصلات ، نظم الأمور المالية والإدارية ، وفق بين ما كان معمولاً به فى البلاد ، وما أصدره الجنرال ديزيه من أوامر . عاد من حملة ديزيه فأوكل إليه القائد العام تنظيم مالية البلاد ، وتحصيل ما يفرضه الفرنسيون من ضرائب وغرامات على التجار والوجهاء وعامة الناس . أهمل نصيحة بطريك الأقباط بالعدول عن غيه ، ومراعاة صالح مواطنيه من المصريين . شارك بنفسه - أحياناً - فى المعارك ضد العثمانيين والمماليك . أشد ما غاظ الناس من تصرفاته ، حين هدم الأماكن المجاورة لبيته فى حارة النصارى ، خلف الجامع الأحمر . أحاط البيت بسور عظيم ، أقام من ورائه أبراجاً ومدافع وحراساً مسلحين .

وصلت الأنباء - بعد أيام من الرحيل - بموته . تعددت الروايات ، وما إذا قتله الخمر ، أو مات مسموماً ، أو قتله الفرنسيون . أغلب الروايات أن المعلم يعقوب أصيب بالحمى ، بعد يومين من ركوب البحر . طلب - وهو يلفظ أنفاسه - أن يدفن مع صديقه الجنرال ديزيه فى قبر واحد . احتفظ قائد الفرقاطة بجثمان المتوفى حتى بلغت مرسيليا ، فدفن فى مقبرة المدينة ..

ما حدث تناقلته النسوة على أعتاب البيوت ، وعبر النوافذ والمشربيات ، وتناقله الرجال على المقاهى ، وفى الجوامع والزوايا والخلاء . حتى عمليات البيع فى الأسواق ، تخللتها أنباء وملاحظات وتعقيبات ، وأنشد رواة السيرة سيرة المصطفى ، وسيرة الهلالين ، وعنترة ، والظاهر بيبرس ، وحكايات على الزبيق ..

أزال أهل القاهرة من أولاد الناس والحرافيش والسوقة وأهل الحرف السافلة ، ما أقامه الفرنسيون حول القاهرة ، وفى شوارعها وميادينها من متاريس وحصون واستحكامات ، وما حفروه من خنادق واسعة ، وعميقة . ارتفع العلم العثمانى على قلعة الظاهر بيبرس . رحل الجنود الفرنسيون فى أثناء الليل ، وتدفق العثمانيون على القاهرة . انطلقت الزغاريد من الطيقان ، وفى الأسواق ، وعلت صيحات الفرحة ،

وتكونت الحلقات - تلقائية - تنور بالرقصات المنتشية .

ترك الناس للمعلم شريحة بركة رفع المزاليج من أبواب الأزهر . ظلت مغلقة منذ ثورة القاهرة الأولى حتى جاء أوان فتحها . دعوه إلى صدارة المشهد . لمس المزاليج بيده ، قبل أن ترفعها أيديهم فى صخب من الفرحة ..

أصبح التعرف على القاهرة أمراً صعباً . الدروب الضيقة تلتف حول البيوت المتهدمة والخرابات . هدم الفرنسيون أغلب المباني والمدارس التى كانت القاهرة عامرة بها . تحولت إلى خرائب ، القصور الفخمة والمستشفيات والمساجد والمدارس والمباني التى كانت القاهرة عامرة بها . لم تعد سوى مبان متهدمة ، وحطام ما كان يوماً - ذات يوم - أسواراً قوية ، وأبواباً رائعة تحمى القاهرة ضد عدوان المغيرين ، وبلغت الحياة حدّاً من التعاسة والفقر والبؤس ، يتنافى مع حياة البشر فى أى مكان . امتلأت الشوارع والأزقة وأسطح المنازل بأجساد الضحايا ، كما تسببت المجاعات فى أن يهم الناس بأن يكل بعضهم بعضاً ، وانتشرت الأوبئة ..

كان الفرنسيون قد أحالوا بعض المساجد إلى حانات يحتسون فيها الخمر ، ويعبثون بالنساء . أفاد التلاميذ من مواضع الخرائب فى تلقى العلم . فى محاولات الفرنسيين إحالة القاهرة إلى معسكر كبير ، هدموا قباب المدائن قرب المقطم ، ونبشوا القبور ، لجأ عدد كبير من أهالى القاهرة إلى دفن موتاهم فى البيوت ، أو فيما تبقى من مساجد ومدارس .

ألصقت على وأجهات الجوامع ، وعلى النواصى ، فرمانات تقضى بعدم التعرض بالأنية للنصارى واليهود وأهل الذمة ، والاعتذار عنهم بأن الحال لهم على تداخلهم مع الفرنسيين صيانة أعراضهم وأموالهم ..

قال المعلم شريحة :

- أعطى إسماعيل كاشف زوجته " هوى " الأمان لتعود إليه من الفرنسيين ، ثم قتلها أهل القاهرة ..

قال مختار :

- هذا الصباح ، خرج آخر جند الفرنسيين ..

فصل

ظلال الغروب تملأ الأسطح وأعلى البيوت . سكنت حركة الطريق . حتى الطيور فوق أشجار الجودرية لاذت بالصمت ، وإن تنهات - كالصدى - جلبلة السوق القريبة .

لزم بيته فى أول الجودرية ، حين أبلغه مريدوه أن أهل البلد أقاموا المتاريس فى مفارق الطرق وعلى ناصية الشوارع . يرفضون السماح بالمرور لرجال الديوان وكبار المشايخ ورجال الشريعة إلا لمن يثبت أنه لم يبيع نفسه . أوقدت الشموع على الدكاكين ، وعلقت القناديل فى الشريات ، وعلت الطبول والدفوف والزمر والأبواق والصنوج والمغانى فى شوارع القاهرة وأسواقها ، وارتفعت العصى بالتحطيط والرقص ، وأطل النسوة من الشرفات والنوافذ والطيقات والأسطح ، ووقفن على أبواب البيوت . علت أصواتهن بالأهازيج والأغنيات والزغاريد ، وتصايح الرجال . ذاعت القصص والحكايات والألغاز والنكات والملح والنوادر والأزجال والمواويل . تلا القراء آيات القرآن الكريم ، وأنشدوا الابتهاالات الدينية . نحرت الذبائح ، ووزعت الصدقات على الفقراء والمساكين ، ووزعت المقاهى أكواب الشربات ، وازدحمت الحلقات حول شعراء الرماية والمداحين والمغنين . اختار المعلم شريحة - للتعبير عن فرحته - توسط حلقة ذكر أمام ساحة جامع شيخون . خرج إلى الطرقات أرباب المناصب والأكابر والأعيان والعلماء والفقهاء والمفتون بالشريعة المحمدية والخواص والعوام من أهل مصر المحروسة ..

ألف وقع أقدام جند الفرنسيين أسفل البيت . يمشون فى الدروب والعطوف المتشابكة . من قلعة الجبل وإليها . يميزها ارتطام الأحذية الثقيلة فى أرض الطريق .

أزال الفرنسيون - فى مدى السنوات الثلاث والنصف الماضية - كل ما أعاق الاتصال بين مركز بونا بريت والإدارات الفرنسية الأخرى ، وصولاً إلى القلعة ..
قالت الأم فى خوفها :

- لماذا لم نرحل مع الفرنسيين ؟... معاهدة الجلاء أباحت لأى مصرى أن يرافق الحملة فى عودتها دون أن يتعرض لأذى .

عرف بخروج عملاء الفرنسيين مع القوات المنسحبة إلى الروضة والجيزة ،
بمتاعهم وحريمهم : المعلم يعقوب ، ويوسف الحموى ، وعبد العال الأغا قائد الإنكشارية
الذى ذاق أهل القاهرة الكثير من قسوته ويطشه ..
- وزينب .. نحن لا نعرف أين هى ؟

توقع أن ينقض عليه أهل القاهرة ، وعلى أهل بيته . ترامت الأنباء بما حدث
للشيخ أحمد المتينى . حمل زعر الحارات والدروب والعطوف ألوان السلاح وآلات
الحرب ، تقدمتهم الصيحات بنصرة دين الإسلام . صعدوا إلى بيت الشيخ . أرغموه
على النزول ، وعلى أن يمتطى جواده . اقتناوه بزفة إلى ميدان القلعة . امتلأ بالخلق
والبيارق والأعلام والنداءات . أجبروه على الوقوف فوق الجواد متسانداً على رجلين
من بين الحشود . ردد ما لقنوه إياه :

- هذا جزاء من صالح الفرنسيين !

ثار هياج فى الغورية وخط الصناديقية والفحامين وبيت القاضى وباب زويلة . رجم
أهل البلد أعضاء الديوان ، ومن كانوا على صلة بالفرنسيين بالطوب والحجارة ،
فطلبوا الهرب . من وقع فى أيديهم سحبوه بالضرب والتكال وطالبوه بالتوبة . هدموا
مصاطب الحوانيت ، وجعلوا أحجارها متاريس لمنع المرور إلا بإذن . وقف وراء كل
متراس أعداد من أهل البلد والشطار والزعر ، فى أيديهم البنادق والشوم ووسائل
الأذى .

بلغته الأنبياء بأن الناس الغاضبة انقضت على بيوت الكثير ممن كانوا أصدقاء للفرنسيين ، واستقبلوهم فى بيوتهم ، وذلوا لهم الود والمساعدة . شملت عمليات الإعدام معظم أحياء القاهرة . هلل أهل القاهرة لإعدام الكلاجرى مصطفى الطارتى - فى ميدان باب الشعرية - بعد أن جعل نفسه فى خدمة المعلم يعقوب ، وتولى أمر اعتقال التجار وأولاد الناس ، وحبسهم ، وعقوبتهم ، وضربهم .

أدين مسلمون وأقباط بتهمة التعاون مع الفرنسيين ، وبارتكاب المظالم وأعمال العنف . قتلت نساء لإقامة علاقات محرمة مع الضباط والجنود والفرنسيين . وضعن فى زكائب ، وألقى بهن فى نهر النيل .

لم يجد حزباً يستند عليه . تخلى عنه حتى من كان يعتبرهم خاصة أصدقائه وأتباعه وخدمه . لم يعد أمامه سوى الركون إلى التوقع ، وما يعده له ، ولآل بيته ، هؤلاء الذين تابعوا ابنته بتهديداتهم ، وطاردوه فى المواضع التى كان يتنقل بينها .

أين أنت يا زينب ؟ وما المصير الذى ينتظرك ، وينتظر أباك ؟

اتجه إلى زوجته بلامح يائسة :

- وماذا نفعل فى بلاد الفرنسيين ؟

واغتصب ابتسامة مريرة :

- ليس عندهم أشراف فاكون نقيباً لهم !

أحاط أعوان الرمادى بحديقة الأزبكية . خلت من الفرنسيين وأمرء الممالك وجنود الباشا . فتشوا البيوت بيتاً بيتاً ، حتى وجدوا زينب مختبئة فى بيت امرأة مشبوهة . تقدمتهم فى الشوارع بجرس من الأزبكية إلى الجوردية . اجتمع الناس فى طريق الموكب ، يتطلعون ، ويسألون ، ويتبادلون التعليقات . ثمة من يعرف الحكاية ، وثمة من يسأل ، وأعداد المحيطين بها للفرجة تتزايد حتى بلغ جامع ببيرس الخياط .

علا صوت خليل الرمادى ، يأمر الجميع - ما عدا أعوانه - بالعودة .

اقترب وقع الأقدام المتلهفة فى داخل البيت .
انفتح الباب عن زينب ، يدفعها ، ويحيط بها ، جماعة من الرجال . شعناء الشعر ،
حافية القدمين ، ممزقة الثياب ، وروحها مسحوبة من الخوف .
تنبه البكرى على قول مختار الرمادى :
- نحن نمثلك احتفاظك بنقابة الأشراف حتى عاد إليها السيد عمر مكرم .
ثم فى نبرة ملمزة :
- عاد السيد عمر مكرم إلى نقابة الأشراف كما كان الحال قبل الفرنسيين ..
تردد الشيخ ، ثم قال :
- نصر من الله ..
وداخلت كلماته رنة استعطاف :
- يعلم الله أنى ما وضعت يدي فى يد الفرنسيين إلا ليساعدوا أهل مصر على
التخلص من ظلم المماليك .
قال محرم الدالى المجلداتى بسوق الوراقين :
- هل من مساعدة المصريين كل ما جرى من تدمير وإحراق وتقتيل واعتداء حتى
على حرمان ديننا ؟!
- ما يدريك أنى لم أكن أعترض ..
وهز قبضته :
- كنت أعترض .
أشار مختار إلى الفتاة :
- ماذا كانت تفعل الفتاة قبل أن يخرج الفرنسيون ؟

هذا ما كان يتوقعه . تصور الأسئلة والأجوبة والملاحظات المعيبة . بدأت الأمور بما لم يعد له ، وانتهت إلى ما لم يدر فى تصويره .
قال مختار :

- حتى احتفالات الفرنسيين التى اعتذرت أنت عن المشاركة فيها .. أصرت ابنتك على حضورها ..

ماذا يعرفون عن حياته أكثر مما يعرفه ؟

الدعوة تأتية ، مثلما تأتى لكتخدا الباشا والقاضى وأرباب الديوان وأصحاب المشورة والمتولين المناصب . يظهر امتنانه للدعوة ، وإن لزم البيت ، فلا يخرج إلى الاحتفال . قهره الخوف من غضب أهل البلد منذ دخل عساكر الفرنسيين الجامع الأزهر . ركبوا الخيول ، وبينهم المشاة ، توزعوا فى الصحن والمقصورة . قيدوا خيولهم بالقبلة . عاثوا بالأروقة والحارات . كسروا القناديل والسيارات . هشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة . نهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع ، والمخبآت بالدواليب والخزانات . دشتوا الكتب والمصاحف على الأرض . داسوها بأقدامهم . أحدثوا فى الجامع ، وتغوطوا ، وبالوا ، وتمخطوا ، وشربوا الشراب ، وكسروا الأواني ، وألقوا بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه عروه ، ومن ثيابه أخرجوه ، ونهبوا بعض الديار بحجة التفتيش عن النهب وآلة السلاح والضرب ، وخرج سكان الناحية يهرعون للنجاة بأنفسهم .

أزال الفرنسيون مراكز المتاريس ، ونظفوها من الأتربة والأحجار المتراكمة ، وأفسحوا الطريق للمرور . قضوا على ما جرى فى فتنة القاهرة ، ودخلوا الأزهر ، وأودعوا علماء بيت البكرى فزادوا فى إحراجه . حتى النساء اللاتى ألقى القبض عليهن ، أودعن بيته ..

قال مختار :

- هل تفاضيت عن علاقتها ببونا بارت توهماً أنك ستصبح حما السلطان الكبير ؟

- هذا اتهام خطير !
- ابنتك كانت فى بركة الأزيكية ..
- قال محرم الدالى :
- لعله كان مشغولاً باستعادة مملوكه الجميل !
- وواجهه بعينين مشتعلتين :
- يا مولانا .. أنت الذى حرصتها على ما فعلت ..
- وهو يربت صدره :
- أنا ؟
- قال هادى بشر الطالب بالأزهر :
- ذهبت ابنتك إلى الفرنسيين بعلمك ..
- قال محرم الدالى :
- وأنت أتحت لهم دخول بيتك ..
- هل كنت أقدر أن أمنعهم ؟
- هل كان يستطيع أن ينقلب على الفرنسيين ؟ هل يبادلهم الصنيع الجميل بالإساءة ؟
- قال هادى بشر :
- لم يطالبك بونايرت بأن تهديه غلامك المفضل ..
- هو الذى طلبه ..
- يا شيخنا .. أنت تكذب ..
- ورفع كتفيه :

- نحن نعرف أن نابليون لم يكن فى حاجة إلى هديتك !..

واتجه إلى زينب بعينين تفحان ناراً :

- ماذا كنت تفعلين فى الأزيكية ؟

قالت فى خوفها :

- أنا تبّت من ذلك ..

قال للشيخ :

- ما تقول يا مولانا ؟

الموافقة على قتلها هى ما يملكه خوفاً وتبرئة لنفسه من الشهرة التى لا يمكنه سترها ، ولا يقبل عذره فيها ، ولا التنصل منها . الرجال - إن رفض - ربما قتلوه هو أيضاً . أنقذه الخواجة أحمد بن محرم فى أيام الفتنة ، فمن ينقذه فى غياب الفرنسيين ؟

هجم العامة على بيته ، ونهبوه ، وهدكوا حريمه ، وعروه من ثيابه ، وسحبوه بينهم مكشوف الرأس من الأزيكية إلى وكالة ذى الفقار بالجمالية ، وبها عثمان كتحدا الدولة . شفع فيه الحاضرون ، وأطلقوه بعد أن أشرف على الهلاك . أخذته الخواجة أحمد بن محرم المحروقى - شاهبندر التجار - إلى داره ، بالقرب من الغورى . حظى المحروقى بتقريب الحاكم له ، والإنعام عليه . تحقق له من المكانة ما يضعه فى منزلة شيخ البلد . أسكن روع البكرى ، وألبسه ثياباً ، وأكرمه ، وبقي بداره إلى أن انقضت أيام الفتنة . عوضه الفرنسيون عما نهب منه ، ورجع إلى الحالة التى كان عليها معهم ..

بعد رحيل قوات الفرنسيين ، استعاد المشايخ - ممن شاركوه عضوية الديوان - هيبتهم . قدم الناس إلى بيوتهم ، يطلبون المشورة والرأى ، وانتظمت الصفوف من ورائهم لصلاة الجمعة فى الأزهر والحسين والسلطان حسن والحاكم وابن طولون وغيرها . فتور العلاقات بين المشايخ والعثمانيين مضى كسحابة صيف عابرة . إسماعيل الخشاب - السكرتير السابق للديوان - هو الذى حرر بيانات العثمانيين عقب

عودتهم إلى القاهرة . حتى الشيخ عبد الله الشرقاوى ، أصبح - بعد أشهر قليلة من عودة العثمانيين - مستشارهم المسموع الكلمة . حتى المعلم يعقوب لم ينله الأذى ، ولو لم يقبضه الموت لكان الآن فى بلاد الفرنسيين ، بعيداً عن انتقام الخرافيش والغوغاء والزعر ..

هو وحده عزل من الوظائف التى كان يشغلها . عزل من عمله نقيباً للأشراف ، ثم عزل من مشيخة البكرية . لجأ - بعد رحيل الفرنسيين - إلى الاحتجاب ، حتى ينسأه الناس ، ويسقطوا ما يؤذى سمعته . حوصر فى البيت الذى اشتراه فى شارع الجودرية ، فلم يعد يستطيع - فى مواجهة الكراهية - أن يتركه .

خشى مصير المؤثوقين بالحبال ، سحبهم رجال من أهل القاهرة أعلى قلعة الجبل ، والخلاء ، والمناطق البعيدة . استعاد ما كان يفعله الفرنسيون بأهل البلد . يوثقونهم بالحبال ، ويودعونهم السجن . ربما اقتيدوا إلى محاكم ، قضاتها من الفرنسيين ، فتحكم بتبرئتهم أو إدانتهم . مضى الرجال بمن كانوا أصدقاء للفرنسيين إلى ميدان القلعة . أقرروهم بالعقاب والضرب ، اعترفوا بما ارتكبوا فى حق ناسهم ، وفى حق أنفسهم . عاودوا الضرب ، لم يرفعوه إلا بعد أن صحت توبتهم ، وتقبلها الناس .

قال فى صوت متلكئ :

- إنى برىء منها ..

قالت الأم وهى تغالب النشيج :

- ماذا تفيدون من قتلها ؟

اقترب مختار من الفتاة . حاولت أن تجرى ناحية الباب . أدخل محرم الدالى وهادى بشر - على الباب - ذراعيها فى ساعديهما . اقترب مختار حتى لامست أنفاسه وجهها . لحق تواصل صراخها بإحكام حصار راحتى حول رقبتها . سكنت ، وإن ظلت العينان جاحظتين ، والفم مفتوحاً ..

مراجع الرواية

مؤلفات عبد الرحمن الجبرتي . وصف مصر - ت زهير الشايب ومنى زهير الشايب . الخطط التوفيقية لعلى مبارك . الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى لعزت حسن أفندى الدارندلى - ت . جمال سعيد عبد الغنى . ذكر تملك جمهور الفرنسيين فى الديار المصرية لنقولا الترك . فتح مصر الحديث لأحمد حافظ عوض . مصر فى القرن الثامن عشر لمحمود الشرقاوى . أبطال المقاومة الشعبية للحملة الفرنسية على مصر لمحمد قنديل البقل . تاريخ الحركة القومية العربية ج ٢ لعبد الرحمن الرافعى . مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر لجوزيف مارى مواريه . بونابرت فى مصر لـ ج . كريستوفر هيرولد . الحملة الفرنسية فى مصر لهنرى لورنس وآخرين - ت بشير السباعى . المصريون الفرنسيون فى القاهرة ١٧٩٨ - ١٨٠١ لأندرى ريمون - ت . بشير السباعى . المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة لأحمد حسين الصاوى . نابليون بونابرت لفليكس ماركوم وإميل لودفيج .

مؤلفات محمد جبريل

روايات :

- ١ - الأسوار
- ٢ - إمام آخر الزمان
- ٣ - من أوراق أبي الطيب المتنبى
- ٤ - قاضى البهار ينزل البحر
- ٥ - الصهبة
- ٦ - قلعة الجبل
- ٧ - النظر إلى أسفل
- ٨ - الخليج
- ٩ - اعترافات سيد القرية
- ١٠ - زهرة الصباح
- ١١ - الشاطئ الآخر
- ١٢ - أبو العباس - رباعية بحرى
- ١٣ - ياقوت العرش - رباعية بحرى
- ١٤ - البوصيرى - رباعية بحرى

- ١٥ - على تمارز - رباعية بحرى
- ١٦ - بوح الأسرار
- ١٧ - الحياة ثانية
- ١٨ - المينا الشرقية
- ١٩ - مد الموج
- ٢٠ - نجم وحيد فى الأفق
- ٢١ - زمان الوصل
- ٢٢ - ما ذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله
- ٢٣ - حكايات الفصول الأربعة
- ٢٤ - زوينة
- ٢٥ - صيد العصارى
- ٢٦ - غواية الإسكندر

قصص قصيرة :

- ١ - تلك اللحظة
- ٢ - انعكاسات الأيام العصبية
- ٣ - هل
- ٤ - حكايات وهوامش من حياة المبتلى
- ٥ - سوق العيد
- ٦ - انفراجة الباب

٧ - حارة اليهود

٨ - رسالة السهم الذى لا يخطئ

٩ - موت قارع الأجراس

كتب أخرى

١ - مصر فى قصص كتابها المعاصرين

٢ - مصر .. من يريد لها بسوء

٣ - نجيب محفوظ .. صداقة جيلين

٤ - السحار .. رحلة إلى السيرة النبوية

٥ - آباء الستينيات .. جيل لجنة النشر للجامعيين

٦ - قراءة فى شخصيات مصرية

٧ - مصر المكان (دراسة فى القصة والرواية)

٨ - حكايات عن جزيرة فاروس (سيرة ذاتية)

٩ - البطل فى الوجدان الشعبى

الفهرس

| | |
|-----|-------------------|
| ١٣ | الباب الأول: |
| ٤٥ | الباب الثاني: |
| ٦١ | الباب الثالث: |
| ٨٧ | الباب الرابع: |
| ١٠٧ | الباب الخامس: |
| ١١٧ | الباب السادس: |
| ١٣٩ | الباب السابع: |
| ١٦٥ | الباب الثامن: |
| ١٨٥ | الباب التاسع: |
| ٢٠١ | الباب العاشر: |
| ٢١٣ | الباب الحادى عشر: |

